حارة نجوى

رواية: حارة نجوى
تأليف: آدم سلامة
الناشر: مؤسسة تبارك
الطبعة الأولى 2016
الطبعة الثانية 2016

رقم الإيداع: 2016/3142

تصحيح لغوي: محمد رمضان
إخراج فني: Mostafa Designer
تصميم الغلاف: محمد محسن

حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لمؤسسة تبارك – 2016

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه أو اختصاره بقصد الطباعة واختزان مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدمًا.

مؤسسة تبارك للنشر والتوزيع
نشر – توزيع
0020/01007224444-01143900097
e-mail:
m.z2000@hotmail.com

حارة نجوى

رواية

آدم سلامة

تبارك
للطباعة و النشر و التوزيع
TABARK

إهداء

إلى الأستاذ عمر خطاب الخولي

الفصل الأول

حارة المساخيط

لا تحسبنَّ الدمع لابن آدم وحده   حكرًا على كل فرِحٍ ومنفطرِ
إن كان لا يبكي إلا كل مكلَّفٍ   ما فجّر الله الماء من الحجرِ

يخرج متخفيًا ليقف على أحوال الرعية بنفسه، لا يعتمد على تقارير العسس والبصاصين ورجال قصره، تذهب به قدماه إلى حيث تشاءان لتستقر به عند باب زويلة، على مدخل الخيامية تنشط الحركة حتى في مثل هذا الوقت من الليل، فالحج لم يبق عليه إلا شهران بعد انتهاء رمضان والخياطون يسابقون الزمن للانتهاء من كسوة الكعبة ليحملها المحمل إلى الحجاز، إنه ينتوي الذهاب بنفسه على رأس المحمل تواضعًا وشكرًا لله ولأداء الفريضة. يعسعس بنفسه ليرى حركة الأسواق في الأيام الباقية من الشهر الفضيل، وهل هناك ما ينقص العباد والبلاد,أم أن كل شيء على ما يرام؟ يلفت نظره هذه النصبة التي يعرفها جيدًا منذ أن بيع عبدًا مملوكًا للأشرف برسباي بخمسة وعشرين درهمًا قبل أن يصير إلى الظاهر جقمق الذي أعتقه واستخدمه في جيشه حتى صار أتابك العسكر قبل أن يبايع بالسلطنة، يتذكر وقفة العبد الذي لا يملك من أمر نفسه شيئًا، تتقاذفه الأيادي كما الجماد الرخيص، حتى يصير أمره في النهاية إلى سيد يستخدمه كمملوك محارب أو كأغا خادم للحريم، يتنهَّد بحزن على ماضيه الذي تركه قبل أن يُخطف ويباع في أسواق النخاسة، يتمنَّى أن يعود به الزمن ويترك العز والجاه والسلطان ليرتمي بين أحضان أمه التي لا يعلم هل ماتت حرة أم ماتت جارية تحت سيد اشتراها هي الأخرى. تمر لحظات ثقيلة عليه وشريط ذكرياته يمر على عقله إلى أن ينتبه إلى هذا النخاس الذي يعرض بضاعته، ينامون وقوفا كالخيل في وقت غير معتاد من السنة، حيث ينصرف الناس في هذا الشهر إلى العبادة بعيدًا عن شراء الجواري والمماليك، لا بد أن

هناك خطبًا ما. يتحرَّك في خفة حتى يصير على رأس النخاس الناعس فيوقظه لينظر إليه بعين ناعسة ويشير إليه بأن يأتيه في وقت آخر بالنهار:

– اذهب الآن أيها السيد ولتأتِ في وقت لاحق.

– ولماذا لا ترحم بضاعتك من برد الليل وتنام أنت؟ أليسوا بشرًا؟

يفتح النخاس عينيه في صعوبة لينظر إلى هذا الواعظ الملثم الذي أتاه في وقت سخيف:

– إن كنت من الوعاظ فلا حاجة لي بوعظك وإن كنت من التجار فلا أبيع إلى تاجر.

يغتاظ من أسلوب هذا التاجر الوقح ويتذكر التاجر الذي باعه في زمن مضى، ويتمنى أن يقبض على رقبة هذا الجشع، ولكنه يتمالك أعصابه ويكتم غيظه:

– وإن كنتُ شاريًا كل ما تعرض؟

هنا انتفض النخاس وهرب النعاس من عينيه فجأة وأتى بمقعد للضيف الكريم ومسحه ليجلسه عليه، ثم أمر بكوب خشاف معتبر وقدمه لصاحب الجاه متملقًا:

– عذرًا يا سيدي الكريم؛ فالحال نائم والجهد كبير والناتج ضعيف؛ فأرجو أن تغفر سوء أدب تاجر مسكين بالكاد يدبر قوت أولاده.

لم يرد عليه، واكتفى بإشاحة من رأسه نحو البضاعة المعروضة، ثم توجه إليه بالحديث :

– أتراك لو كنت عارضًا لحم بهيم مذبوح هل كنت تتركه مكشوفًا حتى يعطب أم كنت ساتره؟

تحرَّج النخاس من السؤال وحاول أن يبرر، لكنه أسرع في عرض ما عنده لهذا الوجيه المجهول، فقام واتجه إلى النصبة ولكز الجواري الأربع والمملوكين الصغيرين حتى اصطفوا واقفين في تململ كي يتفقدهم الشاري ليختار منهم بغيته، وأشار النخاس إليه أن يتقدم ويقلب في البضاعة، فتحرك نحوهم ناظرًا في سحناتهم النائمة، حتى استوقفته تلك العينان الواسعتان كبحر مظلم يبتلع كل من يحاول الإبحار فيه، ولكنه قرر الإبحار في هاتين العينين الغدارتين، ووقف أمامها لحظات مقتطعة من الزمن لم يشعر بها في حياته، حتى سألها أخيرًا:

– ما اسمك؟

نظرت إليه الجارية نظرة دهاء ودلال قائلة:

– الجارية يسميها من يملكها.

التفت إلى النخاس ليسأله عن سعرها:

– كم سعرها؟

تعجَّب النخاس لاستيقاف هذه الجارية تحديدًا له، وأوشك أن يثنيه عن شرائها، ولكنه انتهز الفرصة ليتخلَّص منها:

– أبيعها لك بخمسين دينارًا يا سيدي.

– أمعك صكُّها.

– بالتأكيد يا سيدي.

أخرج من جيبه صرة ألقاها للنخاس الذي التقطها:

– إليك مائة، وإليَّ بصكِّها.

توقف النخاس عن النطق للحظات وهو يحملق في هذا الأحمق الذي

دفع ضعف السعر المطلوب في بضاعة مزجاة كاد أن يهديها إليه مجانًا، ولكن مع نظرة الزبون الغامض إليه تحرك سريعًا وأحضر له صك الجارية لينصرف بها من أمام النخاس الذي ضرب كفًّا بكف من هذا المخبول الذي اشترى اللعنة بضعف سعرها: – فليغفر لك الله ما فعلته في نفسك ... همس التاجر ساخرًا قبل أن يفك الصرة ليعد ما بها من دنانير.

انصرف السيد الجديد، وبدلًا من أن تتبعه الجارية فوجئ بها تتقدم عليه في السير وتسرع الخطا كأنها تريد اللحاق بموعد ما مع شخص ما في مكان ما. اضطر أن يجاريها في السير السريع الذي تحول إلى ركض ثم إلى عدو وهو يستغرب من سرعتها الشديدة كأن ما سيفوتها هو الحياة نفسها، حتى استقر بها الأمر في مكان متسع مظلم، فتوقفت فجأة عن السير وتوقف هو عن الجري ليلتقط أنفاسه المتقطعة من محاولة اللحاق بها، وبعد أن استرد أنفاسه فوجئ بها واقفة لا تتحرك وإذا به يسمع أنينًا خافتًا، شك لحظتها أن يكون صادرًا منها؛ فاقترب منها بحذر شديد ليستطلع أمرها، حتى إذا ما اقترب منها بدأ شكلها يظهر في الظلام وكأنها صنم لا يتحرك؛ فاستلَّ سيفه من غمده وتسلل حذرًا مقتربًا منها فإذا بصوت الأنين يبدو أوضح، فمد يده إليها في وجل ليلمسها، فوقعت يده على سطح بارد كأنه الرخام؛ فالتفت ليقف في مواجهتها ليفاجأ بأنه يقف في مواجهة تمثال من طين محروق كأنه الفخار المزجج، ورأى الدموع تنحدر من مقلتيها مع أنين خافت.

***

انتفض السلطان قايتباي من نومه مفزوعًا من هذا المنام الذي يتكرر معه للمرة الثالثة، تفل عن يمينه وتعوَّذ بالله من الشيطان، وبسمل وحوقل قبل أن يلتقط أنفاسه، لينهض من فراشه واقفًا أمام نافذة غرفته مستنشقًا هواء الفجر ليريح أعصابه بعد هذا المنام العجيب. هل هي رسالة محددة في المنام

لأمر يجب عليه فعله؟ أم أنها أضغاث أحلام؟ أم هو سحر؟ أم ماذا؟... هو لا يعلم، ولكنه يوقن أن هذه الجارية المسخوطة في المنام ستظل تفاصيل وجهها وملامحها محفورة في ذهنه حتى ولو لألف عام.

نزل السلطان قايتباي من غرفته ليتمشَّى في حديقة الرَبع الذي بناه في صحراء المماليك قريبًا من مسجده، لم يلحظ جنديا الحراسة وجوده جالسًا على الناحية الأخرى من المصطبة الرخامية التي تلتف دائرياً حول شجرة ضخمة والتي استقبلها الجنديان ليفرشا عليها طعام العشاء الذي لا يخلو وقت تناوله من ثرثرة بينهما ليضيعا الوقت المتبقي على نوبة الحراسة الجديدة التي سيتسلَّمها غيرهما، انتبه السلطان قايتباي لوجودهما ولكنه لم يشأ أن يقطع سمرهما ولا طعامهما، فلم يحدث صوتا ولم يرتفع صوت أنفاسه، فكان كجلمود الصخر الذي نحتت منه المصطبة.

– هل سمعت عن حارة المساخيط؟

نظر أحد الجنديين باستغراب إلى زميله الذي بادره بالسؤال ورد عليه:

– مساخيط؟

– إنك تمزح ... أليس كذلك؟

– أنا لا أمزح، هذه الحارة تبتعد عن الرَبع مسافة ليست بالبعيدة وكل أهلها مساخيط، كانوا بشرًا مسخهم الله أصنامًا من طين مزجج.

هنا انتبه السلطان قايتباي للحديث الدائر بين الجنديين، وشحذ كل حواسه للتصنت على باقي كلام الجندي الذي لم يدع فرصة لدهشة زميله، فأكمل:

– يقولون إن هذه الحارة كانت تسكنها امرأة جميلة فاجرة تبيع جسدها لمن يريد، وكان كل أهل الحارة يسترزقون من بغائها، حيث أصبحت حارتهم

مقصد العباد من أقصى البلاد وأدناها، فباعوا وتاجروا وكنَزوا الكنوز، فلما طمعوا في المزيد أجبروا نساءهم على مضاجعة من يريد حتى استمرءوا الدياثة وانتشرت بينهم النجاسة، ولم يستنكفوا البغاء ولا التكسب من تحت ماء النساء حتى أرادت هذه البغيً أن تتوب فهددوها، وعن التطهر منعوها، وعلى النكوص أجبروها حتى لا تفسد عليهم نساءهم اللواتي أصبحن رؤوس أموالهم، ولما لم تكن في توبتها صادقة وعن الفطرة مارقة، تمادت في غيها وعرض لحمها، فلم تفرق بين شيخ وشاب، فتقطعوها بالأنياب، فغضب الله عليهم غضبة شاب لها الولدان، وتحطمت لها الجدران، فأرسل عليهم صيحة مسختهم أصنامًا مساخيط حتى يكونوا عبرة لكل فاجر أو صنديد، ومن يومها وكل المساخيط يبكون كل ليلة يناجون الله أن يعفو عنهم، ولكن هيهات أن يستطيعوا التوبة بعد الممات، وقد سماها الناس بحارة النجوى التي عمت عليها البلوى. برز السلطان قايتباي من مكانه، وفوجئ الجنديان به يقف على رأسيهما موجهًا حديثه للجندي الثرثار:

– أين هذه الحارة؟

***

قبيل صلاة الفجر كان السلطان قايتباي يدخل حارة المساخيط وأمامه الجندي الثرثار دليلًا له، ويصحبه نفر قليل من الجند يؤمنون ظهر السلطان، وما إن اقترب من الحارة حتى توقف ليسترق السمع، حيث خيل إليه أنه يسمع أنينًا يشبه البكاء الصامت، التفت إلى أحد مرافقيه من الجنود الذين بلغت قلوبهم حناجرهم من الرعب مما يسمعونه عن هذه الحارة الملعونة، وسأله السلطان:

– هل سمعت ما أسمع؟

بلع الجندي ريقه في صعوبة وأجاب السلطان:

- نعم يا مولاي، هناك من يبكي.

استوقف السلطان الجندي الدليل وأزاحه بيده إلى الخلف، وتقدم هو حتى وصل إلى قلب الحارة ممسكًا بمشعل في إحدى يديه واليد الأخرى يقبض بها على طرف سيفه، وأصبح الجنود هم من يحتمون به بدلًا من حماية ظهره، وهاله ما رأى؛ فالبيوت على حالها وكأن ساكنيها أحياء يعمرونها دخولًا وخروجًا، بدأ بأقرب بيوت الحارة من المدخل ودفع بابه الموصود ففتح بسهولة، وما هي إلا لحظات حتى كان في قلب هذا البيت، واستمد الجنود شجاعتهم من السلطان وبدأ فريق منهم ينتشر حوله ، حركه فضوله للتجول داخل البيت حتى دخل إلى غرفة بدا له أنها غرفة نوم، وما إن دخلها حتى رأى سريرًا محاطًا بخيوط العنكبوت المنسوجة عليه من سنين؛ فأزاح خيوط العنكبوت بطرف يده ودلف ببصره بحرص إلى داخل السرير فرأى تمثالًا لرجل مسجى على السرير، وسمع نفس صوت الأنين الذي سمعه بالخارج ولكن بوضوح أكثر، وما إن قرَّب المصباح إلى وجه هذا التمثال حتى رأى الدموع تنساب من عينيه، وعندما رأى هذا المنظر الجنديُّ الثرثار نظر إلى زميله في نوبة الحراسة غير مصدق لما يراه حتى وإن كان هو من حكى لزميله عما يرونه الآن، ولكن ليس من يسمع وينقل كمن يرى.

استمر السلطان في التنقل من بيت إلى بيت داخل الحارة وكأنه يبحث عن بُغيَةٍ معينةٍ ولا شيء غيرها، وكان كلما خرج من بيت زاد حماسه ولهفته لدخول البيت الذي يليه، حتى كان بيت القصيد الذي لا يعلم هو شخصيًّا إن كان حقيقة أم وهمًا، إنها هي كما رآها مرارًا في منامه عند النخاس، نفس الوجه ونفس العيون الساحرة الغامضة، ولكنها استحالت لصنمٍ من طين، وقف أمامها وكأنه يريد أن يتحدث إليها ليسمع منها شكواها، رآها تبكي بدموع تخرج من مقلتيها وتختفي تحت خديها وكأنها تعود مرة أخرى إلى

عينيها لتعاود النزول، ظن السلطان أن ما يراه ضرب من خيال أو مسٌّ من السحر، حتى إنه اضطر إلى الإلتفات لمرافقيه من الجند ليتأكد منهم:

– هل ترون ما أراه أم أراني قد مسني الجنون؟

نظر الجنود لبعضهم، ثم تحدث أحدهم إلى السلطان غير مصدق لما يراه ومؤكدًا ما يراه السلطان:

– لو مسك الجن يا مولاي فلا بد أننا مسحورون معك، ولكنها الحقيقة التي هي أعجب من كل سحر.

التفت السلطان مرة أخرى إلى التمثال واقفاً أمامه في حيرة من أمره، مد يده ليلمس وجهه فإذا بالدموع تبلل إصبعه، وإذا بالتمثال يزداد نحيبًا وكأنه الطفل الذي غابت عنه أمه ثم رآها فظل يبكي ويشكو لها مرارة الفراق، ولكن كان كمن يشكو أمورًا أخرى للسلطان، يشكو مرارة العجز.

تهامس الجنود فيما بينهم لما يرونه مما يعجز العقل عن تفسيره، فمال أحدهم على زميله قائلًا:

– سبحان الله قادر على كل شيء! ولكن هل يمكن أن يبكي الصنم؟

لم ينتظر الجندي من زميله جوابًا؛ فقد سمعوا جميعًا صوتًا يشدو في أفق بعيد بأبيات شعر وكأنها تجيب على ما يدور بنفوسهم كلهم، فبدا على كل الحضور بمن فيهم السلطان أنَّ سنة من نوم قد أخذتهم وهم يستمعون إلى صوت الشادي قائلًا:

لا تحسبنَّ الدمع لابن آدم وحده حكرًا على كل فرحٍ ومنفطرِ
إن كان لا يبكي إلا كل مكلَّفٍ ما فجّر الله الماء من الحجرِ

***

عندما كانت عنايات تشتهي أي شاب أو رجل أو حتى طفل كان لا بد أن تأتي به في النهاية إلى مضجعها مهما طال الوقت الذي غالبًا ما يكون قصيرًا.

كانت شديدة الرغبة، ولا مانع عندها من القتل في سبيل تحقيق رغبتها، وعلمها جوارجي بعض العزائم الخاصة بالسيطرة على الجن التي كانت تتلوها وهي تمارس عادتها السرية متخيلة الشخص المرغوب فيه، حتى إذا أفرغت ماءها دهنت أكبر جزء ممكن من جسدها به ثم تسترخي بعد انتفاضتها لتهدأ منتظرة قدوم المحبوب المسحوب على وجهه.

شغلها كثيرًا هذا الشاب ذو الخمسة وعشرين ربيعًا الذي رأته ذات مرة خارج الحارة وهي تتبضع من السوق ولفت نظرها بطلته الأنيقة وجسده المنحوت وعينيه الواسعتين وعطره المميز، وشعرت تجاهه بشيء ما لم تستطع تحديده جيدًا، ولكن ما تعرفه أن جسدها الآن يناديه، ولا بد له من أن يلبي هذا النداء صاغرًا.

امرأة في الخامسة والأربعين تعبد رغبتها عبادة حقيقية، لا تعرف العيب ولا الحرام، وترى أن الجسد قبل أن يأكله التراب لا بد أن يأكل ما يشبعه، وجسدها لا يشبعه إلا صحة الرجال، ولا يرويه إلا ماؤهم الساخن المسكوب بداخلها.

مقابلاتها دائمًا ما تكون داخل بيتها في الحارة على مرأى ومسمع من كل سكانها الذين لا يملكون الجرأة لرفع أعينهم فيها وهم يرونها تصحبهم الواحد تلو الآخر إلى بيتها الذي تملكه وتعيش من ريع إيجار بعض الشقق فيه.

لو تجرأت امرأة من أهل الحارة وفكرت في نعتها بأنها مومس يكون مصيرها سحرًا أسود يصنعه لها جوارجي الذي كان هو الآخر لا يستطيع

عصيانها وكأنها أقوى من السحر الذي يصنعه للناس، ووصل بها الفجر أنها كانت عندما تشتهي رجلًا من أهل الحارة تطلبه بنفسها من زوجته التي لا تستطيع أن تعصي لها أمرًا.

لم يأخذ أي رجل تشتهيه أكثر من أسبوع حتى تكون قد قضت منه وطرًا، ولكن هذا الشاب صاحب العنفوان استعصى عليها كثيرًا، فلم يأتها إلا بعد عشرة أيام من العزائم المتتالية والإنهاك الجسدي لها في تحقيق رغبتها من طرف واحد، حتى أتاها أخيرًا في ثالث ليالي الاحتفال بعد عزيمة مخصوصة أملاها عليها جوارجي بعد أن ألحت عليه كثيرًا بعد أن رفض في بداية الأمر؛ لأنه رأى شيئًا علمه جيدًا ولم يفصح لها عنه، وحاول مرارًا أن يتهرب من طلبها هذا بالذات، ولكنها ألحت عليه حتى أتى بالشاب إليها في بيتها.

لم يرها الشاب ولم تره إلا مرة واحدة ومع ذلك سيق إليها كالأعمى الذي يسحبه مبصر، وذهب إليها مع أنه لم يكن يعرف بيتها ولا يعرف حتى اسمها ولا هي تعرف اسمه، ولكن ما تعرفه جيدًا أنه تريده ولا ينبغي أن يقف أي شيء في طريق إرادتها.

بعد صعود الشاب إليها استغرب من هذه الاحتفالات التي تعم الحارة، وعندما سألها نصحته بألا يضيعا أي لحظة من دون المتعة.

عندما اعتلاها أحست إحساسًا غريبًا تجاهه، إن هذه الخلقة وهذا التكوين كأنه اعتلاها من قبل، نفس الدم ونفس الروح، كان هناك شيء ما فطري يحاول أن يمنعها من الاستمرار، ولكنها استسلمت لرغبتها الدونية ولعنفوان الشاب الذي يفركها تحته كأنها ورقة شجر يابسة بين يديه.

حدث المراد، ووصل الماء إلى الأرض البوار، وشعرت بما لم تشعر به من قبل، إحساس مختلط من النشوة والشعور بالذنب، ولا تدري له سببًا محددًا، هل هي لعنة الشاب الذي تخلصت منه الحارة منذ يومين؟ أم أن

رغبتها الجسدية بدأت في الانحسار لتقدمها في السن؟ أم هناك شيء آخر يخفى عليها ولا تستطيع أن تمسك بطرف خيطه؟

قام الشاب بعد انتهاء ليلته واستأذنها أن يستخدم حمام منزلها للاستحمام قبل الخروج من عندها.

شيء ما دفعها في اختفاء الشاب داخل الحمام أن تعبث بمحتويات ملابسه؛ فأخرجت حافظة نقوده ونظرت في بطاقته الورقية وليتها ما نظرت.

إنها تعرف اسم والده جيدًا، إنه زوجها الأول وهذا ولده ... هذا الشاب لم يكن إلا ابنها ... ابن عنايات الذي حرمها منه أبوه.

الفصل الثاني

ظهور الغلام

الكل ينظر، ولكن من يستطيع أن يرى؟

إنه يرى.

هناك من تضطره الظروف للشرب من ماء المستنقع، وهناك من يضطره عقله لمضاجعة جيفة. أوشكت المرأة على الإختناق من رائحته النتنة وهو يتحرك فوق جسدها كفأر المجارير فوق قطعة الجبن الطازج الشهي. عاشت أشد لحظات حياتها بؤسًا وهذا المسخ يعتليها؛ فهي إن أغلقت المجال أمام أنفها حتى لا تشم رائحته اختنقت من قلة الهواء وإن فتحت المجال لنفسها لاستنشاق الهواء أصابها الغثيان من رائحته التي تفوق رائحة الكلاب الميتة.

أوشك قطار ماء (جوارجي) على الوصول لمحطته داخل رحم هذه البائسة، وعندما زادت حركته زادت إفرازات رائحته التي جعلت المرأة تتمنى الصراخ، ليس من الغنج ولكن من شدة القرف.

فجأة توقف جوارجي عندما سمع في أذنه ذلك الهاتف من أحد خدامه قائلًا:

– ظهر الغلام.

انتفض جوارجي من فوق جسد المرأة حابسًا ماءه من الخروج، وذهب مسرعًا نحو منضدة خشبية قديمة يبدو عليها العفن، وأخرج من تحتها كومة من الأوراق القديمة المتسخة، وظل يقلبها بين يديه حتى أخرج من وسطها ورقه ظل يحدِّق فيها، وبدا الذعر والرعب بوضوح على عينه اليسرى، وانطفأ بياض عينه اليمنى العوراء حتى تحولت إلى ظلام قاتم، وتمتم بصوت خفيض:

– لا بد وأنها حقيقية.

في هذه الأثناء كانت المرأة العارية تلملم ثيابها الفاخرة من على أرضية الغرفة القذرة التي يترفَّع الخنزير عن التغوُّط فيها، وكانت تمسح جسدها بقطعة قماش مبلل بالعطر أخرجتها من حقيبتها الغالية في محاولة لإزالة آثار العدوان على جسدها، وبدا أنها تحاول تقطيع جلدها لمجرد أن هذا الجرذ كان راقدًا فوقها من لحظات.

ارتدت ملابسها، وأخرجت من حقيبتها مبلغًا من المال وتحركت نحو جوارجي الأعور الذي كان في عالم غير العالم حتى إنه لم يلحظ نداءها له وهي تخاطبه:

– هذا الحساب المتفق عليه، هل انتهيت لي من عمل الموت لضرتي؟

لم ينتبه لكلامها؛ مما جعلها تلفت نظره مرة أخرى:

– عم جوارجي.

انتبه جوارجي للواقفة أمامه تمد يدها بالمال، فسألها في شرود:

– ماذا تريدين؟

تعجبت المرأة من سؤاله وأعادت سؤالها:

– هل انتهيت لي من عمل الموت لضرتي؟

أجابها مستغلًّا جهلها بأمور السحر وطامعًا في تكرار الاتصال الجسدي معها:

– عمل الموت يكون على مائي المختلط بمائك، وأنا لم أعتصر اليوم؛ لذلك سنكرر ما حدث اليوم مرة أخرى حتى يتم المراد.

بدا على المرأة الانزعاج والرعب من تكرار هذه الفعلة الشنيعة مع هذا المسخ مرة أخرى، ولكنها ما لبثت أن تذكرت غايتها الأسمى، وهي

التخلص من ضرتها؛ فتراجعت عن التفكير في صرف النظر، واستسلمت للأمر الواقع، وتنهدت قائلة:

– إذن فمتى يكون الموعد القادم؟

نظر إليها سارحًا للحظات دون أن يجيب ، ثم انتبه لسؤالها فأجابها بنفس الشرود:

– ليكن في منتصف الشهر العربي القادم، بعد شهر من اليوم.

نزل الموعد على رأسها كالصاعقة؛ فسألته في إحباط:

– وهل سأتحمَّلها شهرًا كاملًا على قيد الحياة؟

– وهل كنت تنتظرين أن تموت فور رجوعك للبيت؟

– لا لم أقصد، ولكن خير البر عاجله.

ابتسم جوارجي في سخرية قائلًا لها:

– البر؟

شعرت المرأة أنه لا فائدة من الحوار، فدفعت إليه بالمبلغ:

– عمومًا هذا المبلغ تحت الحساب المتفق عليه، والباقي عند انتهائك من العمل.

وضعت المبلغ على المنضدة وانصرفت خارجة من الغرفة وهي تتمنى ألا تعود إليها مرة أخرى، ولكن للضرورة أحكام.

ظل جوارجي شاردًا وهو يجلس عاريًا تفوح منه رائحته التي تملأ المكان، كان كل ما يشغله هو تلك النبوءة القديمة التي أخبره بها أحد خدامه من الجن الذي يستعين بهم في السحر الذي يحترفه منذ أربعين عامًا.

قال له هذا الخادم ذات يوم:

– سيظهر لك غلام يكون على يديه زوال ملكك وذهاب عمرك.

تعجب من كلام الجني ساعتها ورد عليه قائلًا:

– هذا لن يحدث.

رد عليه الجني:

– بل سيحدث، سيأتي لك غلام يكون على يديه تدمير ملكك وانهيار سطوتك، وسيكون ظهوره مقدمة لموتك الذي لن يكون على يديه.

أخذ جوارجي كلام الجني على غير محمل الجد ساعتها، فهو يعلم أن الجن وإن صدق فهو كذوب، وظن أنه يهذي أو يلاعبه بحيلة من حيل الجن؛ فالساحر مهما أوتي من قوة عليهم لا يأمن مكرهم وخداعهم، فهم لكي يسيطروا عليه يجعلونه دائم الاحتياج إليهم، وتخفى سيطرته الظاهرة عليهم خوفًا وعجزًا منه تجاههم؛ فالجن الكافر المستخدم في السحر لا عهد له ولا أمان ودائمًا ما يبحث للساحر عن نقطة ضعف يدخل إليه منها ويستحوذ عليه من خلالها، فمنهم من يسكن الجن في موضع شهوته فيجعله دائم الهياج والبحث عن أي امرأة، ومنهم من يسكن الجن في أحد أعضاء جسده لا يفارقه أبدًا حتى يسبب له فيها عجزًا عضويًّا ظاهرًا يعجز الأطباء عن تشخيصه أو علاجه؛ فقد يكون الساحر أعرج مع أن قدمه سليمة ولكن الجن يسكنها، وقد يكون الساحر ثقيل اللسان أو ضعيف السمع، وقد يكون الساحر أعور مثل جوارجي الذي سكن الجن في عينه فمسحها له فلا يستطيع الإبصار بها مع أنها سليمة، وجوارجي يعلم ذلك؛ لذلك لم يفكر في الذهاب بها إلى أي طبيب رمد منذ بدأت تضعف وتذبل؛ لأنه يعلم عدم الفائدة من وراء ذلك وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يطلب من

الجن أن يشفيها له، فمعنى ذلك خضوع أكثر وضعف أكبر من جوارجي أمام الجن الذي يسيطر عليه بالفعل على عكس المتوقع من أن الساحر هو الذي يسيطر عليهم.

مع ظن جوارجي بأن هذه النبوءة قد تكون خدعة أو ألعوبة إلا أنه كان يتذكرها كل فترة ويفكر فيها وتأتي أمامه رأي عين كأنه يراها تتحقق؛ مما كان يسبب له قلقًا شديدًا.

بحث مرة أخرى في الورقة التي أخرجها من تحت المنضدة، وأحضر كوبًا خزفيًّا وأحرق الورقة في الكوب وطحنها داخل الكوب ووضع عليها قليلًا من الماء، فبدت كأنها بقايا قهوة، وظل يبحث فيها ويدقق النظر حتى يرى ما بداخلها حتى رأى أخيرًا أن الغلام بالفعل قريب جدًّا منه.

رمى الكوب جانبًا وشرد يفكر فيما يجب أن يفعله للقضاء على هذا الغلام المجهول.

***

عاد الشيخ خطاب إلى بيته ليجد زوجته الحاجة فاطمة تفترش الأرض وأمامها "عدة صنع القهوة" التي فرغت لتوها من شرب فنجانها الصباحي اليومي، الذي اعتادت عليه بعد أن يخرج الشيخ خطاب لعمله بالأزهر.

ألقى الشيخ خطاب السلام على الحاجة فاطمة التي تعجبت من عودته مبكرًا:

– السلام عليكم ورحمة الله.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، لماذا عدت مبكرًا؟

قالتها وهي تقوم لتخلع عنه القفطان لكي تضعه على الشماعة الخشبية،

فرد عليها الشيخ خطاب الذي ظهر من صوته أن هناك أمرًا ما يضايقه:

– لا شيء ...لا شيء.

نظرت الحاجة فاطمة في عينيه قائلة:

– عيناك لا تخفي وأن أخفى لسانك، ما بك يا شيخ خطاب؟

جلس الشيخ على الكنبة الإستانبولي وهو يبدو عليه الضيق صامتًا للحظات قبل أن يجيبها:

– مشكلة صغيرة بيني وبين الشيخ المراغي.

– لا حول ولا قوة إلا بالله، ولماذا يختلف العلماء في غير المسائل الفقهية؟

تنهَّد الشيخ مشيرًا إلى عدة القهوة المنصوبة على المنضدة:

– شيطان دخل بيننا، اصنعي لي فنجان قهوة؛ فإني أشعر بقليل من الصداع.

أعدت الحاجة فاطمة فنجان القهوة وقدمته للشيخ خطاب الذي شربه في صمت بينما كانت تراقبه إلى أن فرغ من تناوله، فقامت بأخذ الفنجان منه وفي أثناء شروده وصمته قلبت الفنجان على طبقه وظلت تنظر فيه بتركيز شديد مما لفت نظر الشيخ خطاب الذي وجدها صامتةً تنظر في الفنجان؛ فتأفف قائلًا:

– لا ترجمي بالغيب يا امرأة، ولا تفعلي فعل الجاهلية.

أشارت إليه بالصمت بينما استمرت في التركيز في الفنجان، وعندما شعر منها باليأس قام ومدد جسده على السرير، وبعدها بدقائق فرغت الحاجة فاطمة من قراءة الفنجان، فنظرت إليه من مكانها قائلة له:

– هل تعرف شخصًا أسمر اللون أزرق العينين إذا تحدث إليك كان ناعمًا؟

انتبه على وصفها ونظر إليها وهو مستلقٍ على السرير سارحٍ ببصره ليتذكر شخصًا بهذه الأوصاف:

– يرد عليا ألوان وأشكال متعددة يا حاجة فكيف أتذكرهم كلهم؟

أكملت كلامها وهي تنظر في الفنجان وتصف ما تراه بدقة:

– هو شخص طويل ريفي اللكنة يجلس معك في الحلقة، ومنذ يومين كان ينتظرك على باب الجامع الأزهر، وعندما خلعت مداسك انحنى على الأرض وحمله عنك.

اعتدل من رقدته وجلس أعلى السرير وسرح ببصره إلى أن تذكر فقال:

– نعم تذكرت، على ما أتذكر كان اسمه عليًّا.

– بل علوان.

– نعم اسمه علوان، إنه طالب علم عندي في الحلقة.

نظرت الحاجة فاطمة إلى الشيخ خطاب وعقبت على كلامه:

– ليس طالب علم، ولكنه طالب خراب.

تعجب من كلامها وسألها:

– خراب؟ كيف ذلك؟

– إنه وإن كان طالب علم فهو لا يطلبه إلا ليخدع به الناس، وهو من أصحاب العيون الحامية وأراه أمامي هنا ينظر إليك بعينه الزرقاء أثناء جلوسكم في الحلقة أمس، ويحدث نفسه حاسدًا إياك على علمك وعلى

حب الشيخ المراغي لك، وهو ما أوقع بينك وبين الشيخ المراغي اليوم.

تنهَّد الشيخ خطاب بحزن متمتمًا: – لا حول ولا قوة إلا بالله.

قامت الحاجة فاطمة ووقفت بجواره وأرقدته ووضعت يدها اليمنى على جبهته ترقيه:

– بسم الله أرقيك الله، يشفيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد.

كررتها ثلاثًا.

نظرت إليه بابتسامة:

– إن شاء الله غدًا تدخل على الشيخ المراغي ويقابلك بترحاب شديد، وأيام ويذهب علوان هذا ولن يعود مرة أخرى.

كانت الحاجة فاطمة امرأة ذات بصيرة اختصها الله عز وجل ببعض الكرامات كرؤية الفنجان الذي كان يعترض عليه الشيخ خطاب، ولكنها كانت تعتبره نوعًا من الرؤيا، فليست كل الرؤى منامًا؛ فهي كانت ترى بعض الأحداث أثناء اليقظة أيضًا، ولم تخطئ أبدًا فيما تقوله، وكان الشيخ خطاب يثق تمامًا فيما تقول ولكنه كان رجلًا شديد الورع يحب الابتعاد عن مواطن الشبهات. بالفعل عندما دخل الشيخ خطاب في اليوم التالي على الشيخ المراغي وجده يقابله بترحاب شديد جدًّا، ونسي ما كان بينهما بالأمس، ومرت أيام وتغيَّب علوان الذي رأته الحاجة فاطمة في الفنجان ولم يعد بعدها ثانية، وعندها قال الشيخ خطاب في نفسه:

– فنجان الحاجة فاطمة مكشوف عنه الحجاب.

***

لم يكن يومًا عاديًّا في حياتي وبالنسبة لأهل بيتي، فهو اليوم الذي سأذهب فيه إلى القاهرة لاستلام النيابة في مستشفى العباسية للأمراض النفسية بعد أن قضيت عامًا كاملًا ممارسًا عامًّا في إحدى مستشفيات محافظة الغربية التي أنتمي إلى عاصمتها طنطا.

نشأت في أسرة طيبة ميسورة، جدي هو الشيخ خطاب الخولي أحد علماء الأزهر الشريف، ووالدي هو الأستاذ عمر خطاب الخولي مدرس اللغة العربية، وواضح من اسمه تيمن جدي –رحمه الله – بالفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى إن شهرة والدي في صباه كانت عمر بن الخطاب قبل أن يتغير لقبه فيما بعد إلى (عمر أفندي)، ولذلك قصة أخرى.

أما والدتي فهي السيدة اعتماد، وقد كانت اسمًا على مسمًّى، فكان والدي يعتمد عليها في كل حياته لدرجة قد تصل إلى التواكل، فوالدي لم يكن من النوع الذي يحب حمل الهموم، ولكنه مع ذلك كان يحب والدتي حبًّا شديدًا ولا يتوانى في تلبية رغباتها التي يعتبرها أوامر من ناحية ومن ناحية أخرى كان يعتبر هذا نوعًا من التكفير عن أخطائه الخفية تجاهها، لقد كان حقًّا زوجًا عظيمًا.

كان مولدي في عام 1967م بعد هزيمة يونيو بشهور، وبالتحديد في العاشر من ديسمبر من عام 1967م، وأصر والدي على تسميتي بعبد العليم على اسم الفنان عبد العليم خطاب الذي كان والدي يحبه لدوره في فيلم دعاء الكروان رغم كآبة الفيلم وقسوة دوره.

نعود إلى هذا اليوم التاريخي، وهو نزوحي إلى العاصمة لاستلام عملي في العباسية متخصصًا في الطب النفسي، هذا اليوم الذي اعتبرته أمي فتحًا بكل المقاييس؛ فهي كانت تجهزني بالمؤن وكأنها تجهز جيشًا يذهب للغزو وفتح المدن الجديدة.

في هذا اليوم استيقظ البيت كله بأكمله في الخامسة فجرًا إلا شخصًا واحدًا هو أمي، التي لم تنم ليلتها لوضع اللمسات الأخيرة على أمتعتي وتموين الطعام الخاص بي ومراجعة حقيبة ملابسي وتأكدها من أنني اصطحبت معي كل الملابس اللازمة وملابس الشتاء الثقيلة، مع أننا كنا في فصل الصيف.

حان وقت رحيل عبد العليم الفاتح لرحلته الجديدة، وانتهيت من ترتيب الحقيبة وإغلاقها جيدًا بعد أن تممت الجنرال اعتماد على جميع محتوياتها، نظرت إليَّ أمي نظرة حنين ولهفة وعيناها مليئتان بالكثير من الكلام غير المنطوق، ذلك النوع من الكلام الذي تسمعه بقلبك ولا تحتاج إلى أن تسمعه بأذنيك، فقائله ينطقه بعينيه لأنه لا يستطيع نطقه بلسانه.

احتضنتني أمي حضنًا عميقًا جدًّا، حضن الأرض للجذور التي تمتد فيها إلى ما شاء الله، لم أشعر في حياتي بدفء حضن أمي كتلك المرة، لعله دفء حضن الوداع المؤقت، وداع المضطر للمغادرة على رغبة من طرف دون رغبة الطرف الآخر، امتلأت عيناها بالدموع وامتلأ قلبي بالوجع لأني سأحرم طويلًا من هذا الدفء إلى أن أستطيع الارتماء فيه مرة أخرى بعد الحصول على أول إجازة من عملي.

نظرت إليَّ أمي وهي تمسح دموعها موصية إياي وصاياها المعتادة أن أنام جيدًا وأتغطى جيدًا ولا أحرم نفسي من الطعام ولا الشراب وألا أقصر في عباداتي وأذكاري اليومية؛ ليحفظني الله، والكثير من وصاياها التي أحفظها عن ظهر قلب، ولكنها زادت عليها هذه المرة وصية عجيبة:

– اعتن بأبيك جيدًا ولا تركن إلى أنه أبوك؛ فهو أهوج من الطفل الذي يتعلم أولى خطواته في المشي.

ضحكتُ كثيرًا من جملتها الأخيرة، ووعدتها أن أحقق لها هذا الطلب.

كان مشهد الوداع على باب البيت مؤثرًا مهيبًا؛ فقد كان أبي راكبًا بجوار سائق التاكسي بعد أن أشرف على ربط حقائب السفر بنفسه على ظهر التاكسي، بينما وقفت أودع أختى عائشة وابنتها حنين وقفت أمي وعيناها مملوءتان بالرجاء والشوق لي، وركبت التاكسي بعد السلام الأخير، ووقف حسين أخى خارج التاكسي يوصيني ويعطيني عنوانًا مكتوبًا في ورقة لبعض المحلات بشارع الأزهر لكي اسأل له على بعض الأصناف من الأقمشة التي يحتاجها في وكالته في طنطا.

تحرك التاكسي أخيرًا نحو محطة القطار، وتحرك معه قلبي من مكانه خوفًا من القادم المجهول.

كنت دومًا من صغري أتطلع لأن أزور كل بلاد العالم وأكتب عما رأيته من بشر وعادات وأفعال وأحداث عاصرتها وأحداث سمعت عنها، ولكنني لم أكن أتخيل أن بداية الرحلة ستكون بهذه الصعوبة النفسية، فالمنتظَر دائمًا سهل في خيال صاحبه، ولكن عندما يصبح هذا المنتظَر واقعًا ينخلع القلب من مكانه ويتحرك قليلًا شوقًا ورهبةً وأملًا، شوقًا لما سيحدث ورهبة مما سيحدث وأملًا في أن أجد الخير فيما سيحدث. وصلنا محطة القطار ولم يصل عقلي خاليًا من الأفكار المتناطحة في رأسي والأسئلة التي انهمرت على عقلي من عقلي: هل سأنجح؟ هل سأفشل؟ ألم يكن من الأفضل ألا أغادر إلى العاصمة؟ هل أعود إلى بيتي وأمي وإخوتي ؟ هل أكمل الطريق وأرى ما هو كائن؟ هل أتنازل عن حلمي؟ أم هل أبدأ مشواري حول العالم من هذه المدينة المخيفة لمن لا يعرفها الحبيبة إلى قلب من يألفها (القاهرة)؟

لتكن إرادة الله، فها أنا أركب القطار بالفعل في عربة من عربات الدرجة الأولى التي حجز لنا فيها والدي الأستاذ عمر خطاب، إنها إذًا بداية موفقة... الدرجة الأولى.

كان والدي متأنقًا كعادته يرتدي البدلة البيج الغامقة المكوية بعناية شديدة وتحتها القميص الزهري الفاتح الذي يعشق لونه وعليه رابطة عنق يدخل فيها درجات اللون الأحمر الهادئة مع اللون اللبني والحذاء البني الإنجليزي اللميع ومنديل في جيب جاكيت البدلة من نفس قماشة رابطة العنق، واضعًا عطرًا تفوح منه رائحته الجميلة، حتى إن الراكب في آخر عربة في القطار يستطيع أن يستنشق رائحة عطر أبي سي عمر العايق. جلس أبي بجوار شباك القطار حيث كان الشباك على يمينه وجلست أنا أمامه بجوار الشباك أيضًا؛ فكلانا يحب أن يرى الطريق أثناء ركوب المواصلات. جاء بائع الجرائد فاشترى منه أبي جريدتي الأهرام والأخبار، وظل يقرأ فيهما كعادته دائمًا في المواصلات، أن يقرأ ما يقع في يده حتى لو كانت قصاصة صغيرة، فلم يكن أبي من هواة الثرثرة في المواصلاتِ ولا يحبذ إقامة علاقات شخصية أو تعارف مع أي شخص في الطريق، فهو يرى دائمًا أن العلاقات التي مصيرها الانتهاء من قبل أن تبدأ لا داعي لبدايتها أصلًا.

كانت فرصة طيبة لي لكي ألاحظ أبي ذلك الشيخ الستيني العايق كما تطلق عليه أمي دائمًا صاحب مظهر البكوات والفنانين والوجهاء كان يجمع بين مظاهر هؤلاء جميعًا بل وصفاتهم أيضًا.

شاربه دائمًا رقيق مفتول، ولحيته دائمًا حليقة، والعطر دائمًا يفوح منه، لا يشرب إلا السجائر اللف التي يشتري ورق البفرة الخاص بها دائمًا والدخان أيضًا من شارع الصناديقية بالحسين في القاهرة.

إنه أبي عمر ... عمر أفندي.

***

عندما سرحت في أبي المستغرق في قراءة الجرائد وجدت نفسي تلقائيًّا أرى جدي الشيخ خطاب الخولي – رحمه الله – فقد كان أبي نسخة مصغرة

منه في الشكل، وكان كلما تقدم العمر بأبي كأني أرى جدي – رحمه الله – متجسدًا أمامي بشحمه ولحمه.

ولد جدي الشيخ خطاب الخولي عام 1900م في إحدى القرى التابعة لمدينة طنطا، كان والده من أصحاب الأراضي الميسورين، وكان من الأعيان القلائل الحافظين لكتاب الله، وأصر أن يُلحق ابنه الأكبر خطاب بالأزهر الشريف، وعندما بلغ جدي سن التعليم ألحقه بمعهد القرية الأزهري بعد أن أتمَّ حفظ القرآن الكريم كاملًا دون الخامسة من عمره، وأكمل دراسته الثانوية الأزهرية، ثم التحق بعد ذلك بجامعة الأزهر في القاهرة ليكمل فيها دراسته الشرعية.

كان جدي – رحمه الله – بليغًا أيما بلاغة، وكان يَنْظِمُ الشعر على بحوره القديمة، وكان من أشد مؤيدي مدرسة الإحياء والبعث لمؤسسها محمود سامي البارودي ومن بعده أمير الشعراء أحمد شوقي، وكان يرى أنه لا بد للشعر أن يتم نظمه على قواعده الأولى.

أثناء دراسة جدي الجامعية اندلعت أحداث ثورة 1919م، وشارك فيها كمئات الآلاف من المصريين وقتها، وكان مبهورًا بالزعيم سعد زغلول، وتم اعتقاله لفترة هو وبعض زملائه من طلبة جامعة الأزهر الذين شاركوا في أحداث الثورة من داخل الجامع الأزهر نفسه، وبدأت الميول السياسية الوفدية لجدي تنمو يومًا بعد آخر، ولكنه لم ينضم أبدًا إلى الحزب لعدم رغبته أن تشغله السياسية عن تحصيل وتعليم العلوم الشرعية، وإن كان لم ير أبدًا تعارضًا بين هذا وذاك، ولكنه كان يفضل التركيز على العلوم الشرعية إلى أن بدأت العلاقة بينه وبين حزب الوفد في الفتور بعد حادثة 4 فبراير؛ حيث كان يرى أنه كان يجب على مصطفى النحاس باشا ألا يساهم في نجاح الإنجليز في تضييق الخناق على الملك فاروق، وكان يرى أنها انتهازية

سياسية من النحاس باشا، ومع ذلك احتفظ الشيخ خطاب بالود القديم لأعضاء الحزب من أصدقاء والده أعيان الغربية.

تزوج جدي من والدة أبي الحاجة فاطمة اليماني وهو في سن صغيرة، ولكن لم يكتب الله له الإنجاب إلا بعد سنين طويلة، وأجهضت جدتي كثيرًا من المرات حتى جاءه أبي عمر على سن الثلاثين من عمره، فكانت فرحته به لا تضاهيها فرحة في الدنيا بأسرها.

اعتبر جدي ولده عمر هو هدية الله له وأمانته التي أودعها الله عنده؛ فقرر أن يصون هذه الأمانة وأن يهب ابنه لله كما وهبت امرأة عمران ما في بطنها محررًا لله.

قرر الشيخ خطاب تسمية ولده عمر ليكون سميًّا للفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما يقال له عمر خطاب أو عمر بن الخطاب، وبالفعل كانت شهرة والدي بين أقرانه في الكتاب وأيام الدراسة وحتى في العمل بعمر بن الخطاب.

اجتهد الشيخ خطاب في تحديد مسار حياة ابنه على طريق الصلاح والصواب ظنًّا منه أنه سيستطيع أن يجعل ابنه عمر بن الخطاب يسير على نفس الطريق التي رسمها له، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، وكان للولد الشقي رأي آخر، ولكنه لم يغضب والده في كل شيء، فالتحق بالأزهر الشريف، وأتم حفظ القرآن، وعمل مدرسًا للغة العربية كما كان والده يأمل، ولكن كان لحياته الشخصية خط آخر، فهو كان يعتبر تحصيله العلمي والشرعي هو حد الكفاف لأي فرد مسلم عادي، ولم يتطلع أبدًا لأن يصل إلى حد الكفاية.

كان والدي يجمع بين العديد من الصفات المتناقضة في نفس ذات الشخص، فكان فقيهًا عالمًا وفي نفس الوقت شابًّا طائشًا (مهياصًا) على

رأي جدتي الحاجة فاطمة، وكان جادًّا وقورًا يفرض احترامه على من أمامه، وفي نفس الوقت كان ضحوكًا مسامرًا، فكان من يراه في دور الوقار يتصور أن هذا الشخص يستحيل أن يضحك ومن يراه ضاحكًا لاهيًا يجزم بأن هذا الشخص لا يستطيع أن يعيش جادًّا.

كما كان والدي جبارًا شقيًّا وفي نفس الوقت عطوفًا حنونًا، حتى إنه ليبكي من مشهد طفلة صغيرة تائهة عن أمها.

باختصار؛ كان والدي شخصية محيرة جدًّا لمن حوله، وبالأخص جدي خطاب رحمه الله الذي كان يضرب كفًّا على كف من أفعال ابنه الوحيد المتناقضة، وكان عندما يسأل والدي عن سر هذه الصفات المتناقضة فيه وكيف يمكن أن تجتمع الصفة ونقيضها في نفس الشخص دون أن تجور إحداهما على الأخرى كان والدي يجيبه ببلاغة شديدة:

– بينهما برزخ لا يبغيان.

بدأ جدي الشيخ خطاب في اصطحاب ابنه عمر صاحب السنوات العشر إلى القاهرة ليستأنس به، فمع كل هذا السفه الذي يراه في ابنه إلا أنه كان يراه رجلًا ويعتبره سنده، وكان دائمًا يدعو الله أن يحفظ له ابنه من الاستمرار في الزلل وليس (الوقوع في الزلل)؛ لأنه رأى بفراسة المؤمن أن هذا الصبي ما ولد إلا ليعيش حياة صاخبة، فكان كل ما يستطيع أن يدعو به لابنه أن يحفظه الله من الاستمرار في الزلل والصخب، وأن يختم له خاتمة خير.

ما ندم الشيخ خطاب على شيء فعله في حياته أبدًا مثل ندمه على اصطحاب ابنه عمر إلى القاهرة؛ فقد ندهته نداهة العاصمة كما كانت تقول أمي دائمًا؛ فارتبط بها أكثر من ارتباطه باسمه، ولم يكن يمر أسبوع واحد دون أن يزورها كالعطشان الذي يبحث عن الماء في فلاة واسعة وبلهفة.

منذ أن وطئت قدما والدي شوارع القاهرة في عام 1940م نشأت بينهما علاقة خفية أبعد ما تكون عن انبهار القروي الساذج بأضواء المدينة، فأبي لم يكن قرويًّا ولا ساذجًا، ولكنه كمسحور مسه الجن ... ظل مشدوهًا ومشدودًا وأسيرًا لهذه المدينة التي لا تنام أبدًا.

كان لجدي خطاب شقة صغيرة في شارع متفرع من شارع الأزهر، اشتراها له والده ليكون قريبًا من الجامع الأزهر في أيام دراسته، تعوَّد أن ينزل فيها عندما تطأ قدمه أرض المحروسة، وكانت الشقة مجهزة للمعيشة الدائمة، لدرجة أن جدي كان يستخدم فيها خادمًا ليرعاها وينظفها ويعد له الطعام عندما يكون هناك.

نزل والدي للمحروسة في أول مرة، وظل يشاهد ما يراه في صمت من أول باب الحديد، مرورًا بشارع كلوت بك وصولًا إلى ميدان العتبة، وانتهاء بالشارع الذي يسكن فيه جدي في منتصف شارع الأزهر تقريبًا.

كانت هذه المسافة في عام 1940م لا تستغرق أكثر من عشر دقائق بالسيارة الأجرة التي يستقلها جدي من باب الحديد حتى الشقة، وكان أبي يسير بجوار أبيه فارع الطول بالزي الأزهري المعروف يتكئ على عصا من الأبنوس تليق بعالم جليل, يرتدي بدلة صغيرة كاملة بطربوش أحمر له زر وحذاء أسود لميع له إبزيم جانبي، ظل الولد الصغير عمر يمشي بجوار أبيه ناظرًا ومتأملًا في الشوارع والدكاكين الأنيقة ومشربيات البيوت الخشبية والنسوة اللواتي يرتدين الملاية اللف وبعضهن ترتدي اليشمك الشبيكة وكأنها تتخفى عن الناس مع أن ذراعيها البيضاوين المنفوختين تعسكان نور الشمس فيظهران فاقع لونهما يسران الناظرين.

عالم جديد وغريب عن الإقليم الذي عاش فيه والدي عمر طوال العشر سنوات الماضية من عمره، وفي أول زيارة له في هذا العالم عرف وتيقَّن أنها

لن تكون الأخيرة.

استراح جدي من عناء السفر، وبدَّل ملابسه، وتناول مع والدي طعام الغداء الذي أعده لهما إسماعيل النوبي، ذلك الخادم الصالح المطيع الذي كان يحب جدي حبًّا جمًّا وظل على عهد حبه لجدي بعد انتقاله للرفيق الأعلى، واستمر حبه لنسل جدي حتى وافته المنية بعد أن حمل آخر أبناء عمر على يديه.

قرر جدي أن ينام القيلولة التي كان يحافظ عليها يوميًّا تبركًا واستنانًا بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكان يحث عمر أيضًا على الحفاظ على هذه السنة، ولكن عمر لم يطق صبرًا على رؤية القاهرة كما ينبغي مع أن زيارته الأولى هذه تستغرق أسبوعًا ولكنها العجلة؛ فطلب من جدي أن يسمح له بالنزول بصحبة عم إسماعيل النوبي؛ فسمح له جدي على مضض بعد أن أخذ العهود والمواثيق على إسماعيل أن يحافظ على عمر كما يحافظ على عينيه، ولما آتاه إسماعيل موثقه سمح لهما بالانصراف على ألا يتأخَّرا عن ساعتين بحيث يستيقظ من نومه فيجدهما أمامه.

خرج الطفل عمر مع الخادم إسماعيل النوبي كمن يرى البحر في أول مرة في حياته ويستعد لنزوله والسباحة فيه، فيخالطه شعور بالرهبة الممزوجة بالإقبال على التجربة، وكان أول سؤال يسمعه من إسماعيل بلكنته النوبية:

– أين تود الذهاب عمر أفندي؟

ضحك والدي عندما سمع لقبه الجديد عمر أفندي، أكمل إسماعيل حديثه:

– عمر أفندي محلات مشهورة هنا في مصر وأنت اسمك عمر، وقد مننت عليك بلقب أفندي كما يمن مولانا الملك على الأعيان بألقاب

الأفندية والبكوية والباشوية، وبما أنك لا زلت صغيرًا فسأمنحك لقب أفندي فقط.

صمت عمر قليلًا وهو يفكر، ثم قال لإسماعيل:

– حسنا، عمر أفندي يود أداء الصلاة في الجامع الأزهر.

– غالي والطلب رخيص عمر أفندي، هل تود الذهاب مترجلًا أم راكبًا؟

– هذا يتوقف على طول المسافة.

– المسافة متوسطة الطول بالنسبة لرجل كبير، طويلة بالنسبة لأفندي صغير مثلك عمر أفندي.

– إذن فلنركب.

– على الرحب والسعة، ولكنك ستركب وحدك، وأنا لن أركب.

استغرب عمر ونظر إلى إسماعيل الذي لم يترك له فرصة للكلام، وتحرك بحيث يكون أبي أمامه، ونزل إسماعيل ورفع والدي من بين رجليه على كتفيه، وفوجئ والدي بإسماعيل يرفعه على كتفيه، وشعر بسعادة بالغة، وتحدث له إسماعيل:

– ابن مولانا الشيخ خطاب مقامه من مقام والده، وهذا مقام مولانا عندنا.

تحرك إسماعيل وهو يحمل عمر فوق كتفيه، وأحس عمر إحساس الراكب فوق هودج، وشعر بالفخر، خاصة وأنه كان ينظر إلى الناس من مقام عالٍ، واستمر إسماعيل في السير حاملًا عمر فوق كتفيه من منتصف شارع الأزهر حتى وصل إلى الجامع الأزهر، ودخل الاثنان وصليا ثم خرجا من رحاب الجامع الأزهر، وسأل إسماعيل عمر:

– هل تحب شرب الخروب عمر أفندي؟

– نعم أحبه.

أمسك إسماعيل بيد عمر وعبر الشارع للجهة الأخرى حيث المشهد الحسيني، وطلب له كوبًا من الخروب من شربتلي (الأبتي) الموجود على يمين المشهد الحسيني، واستمتع عمر بالخروب أيما استمتاع، وقضى يومًا رائعًا مع إسماعيل الذي أراه أشهر المعالم القاهرية الموجودة بالمنطقة، ثم عادا إلى الشقة قبل استيقاظ الشيخ خطاب من نوم القيلولة.

***

عندما استيقظ الشيخ خطاب من نوم القيلولة ووجد عمر وإسماعيل في الشقة اطمأن قلبه وشكر الله عز وجل أن رد له ابنه سالمًا؛ ولذلك قرر أن يكافئ عمر على التزامه بالموعد المحدد له سلفًا للعودة، وأبلغه بأنه سيخرج معه في جولاته اليوم.

خرج الشيخ خطاب بصحبة عمر إلى الجامع الأزهر مرة أخرى، ولكن هذه المرة مشى عمر على رجليه مع والده وليس محمولًا على الأكتاف كما كان مع إسماعيل النوبي، وهو ما اعتبره عمر إشارة غير طيبة لما سيحدث باقي اليوم.

وصل الاثنان إلى صحن الجامع الأزهر قبيل صلاة المغرب، وقابل الشيخ خطاب مجموعة من تلامذته ومريديه بالترحاب وتقبيل يديه، وحمل أحدهم نعلي الشيخ بنفسه، وساروا من خلفه احترامًا له حتى وصل الشيخ ومعه عمر إلى أحد الأعمدة، وجلس الشيخ على كرسي صغير مسنود ظهره إلى العمود، بحيث يكون أعلى من المحيطين به، وعرفهم على ولده عمر؛ فانهالت الترحيبات والتبريكات من الجالسين بالأستاذ عمر ابن مولانا الشيخ خطاب

الخولي شيخ العمود وأحد علماء الجامع الأزهر الشريف، وهو ما اعتبره عمر – ذلك الصبي ذو العشرة أعوام – ترحيبًا بالشيخ خطاب وليس به هو شخصيًّا، وبعد أن أذن بصلاة المغرب صلى الشيخ خطاب وعمر خلف الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر، وبعد أداء ركعتي السنة تحلَّق الشيخ وتلاميذه في حلقة العلم وظل يخطب فيهم ويعلمهم أمور دينهم، واستمر الحال هكذا إلى ما بعد أداء صلاة العشاء بنحو الساعة، وتسرب الملل إلى عمر وقال في نفسه:

– إذا كانت هذه هي المكافأة فأين العقاب يا مولانا؟

وفجأة نظر الشيخ خطاب إلى عمر وكأنه سمع ما يدور بينه وبين نفسه، فتوقفت أنفاس عمر واحمرَّ وجهه خوفًا وتخيل أن والده فعلًا قد سمع الحوار الدائر بينه وبين نفسه؛ فالتزم الصمت الداخلي ولم يتحدث (عمر) إلى (عمر) حتى نهاية الجلسة.

خرج الشيخ خطاب ومعه عمر من الجامع الأزهر في حدود الساعة التاسعة من مساء هذا اليوم، وأخذ الشيخ خطاب عمر تحت يده، حيث وضع يده على كتفه وكأنه يتوكأ عليه، وقال له:

– أعلم أنك كنت تشعر بالملل من الجلسة وأنك كنت تمني نفسك بفسحة وخروجة عال كما وعدتك.

هنا تأكد لعمر بما لا يدع مجالًا للشك أن والده قد سمع حديثه الداخلي مع نفسه، ولم ينطق، ولكن الشيخ خطاب رفع عنه الحرج قائلًا:

– عندما كنت في مثل عمرك كنت أشعر بما تشعر به أحيانًا، خصوصا أنك في إجازة الصيف وتريد الانطلاق؛ لذلك فسوف آخذك لزيارة بعض أقاربنا هنا في منطقة أم الغلام.

تهللت أسارير عمر بشدة، خصوصا أنه يسمع كثيرًا من والدته عندما تأتي سيرة أقاربهم في أم الغلام أن هؤلاء الأقارب أهل مهيصة، وأنها لا تحبهم ولا تحب زيارتهم، وكانت توافق الشيخ خطاب على زيارتهم على مضضٍ لتأخذ أجر صلة الرحم فقط لا أكثر، ولكن الشيخ خطاب كان يزورهم باستمرار ويطمئن عليهم ويلبي لهم احتياجاتهم شعورًا منه بالمسئولية تجاههم؛ فهو كبير العائلة ويعتبر نفسه مسئولًا عنهم.

بما أن الأمر متعلق بالمهيصة فهذا هو بيت القصيد للطفل عمر أفندي، الذي أحس أن قلبه يرقص من الفرح طوال الطريق القصير من الجامع الأزهر إلى منطقة أم الغلام خلف المشهد الحسيني.

وصل الشيخ خطاب وعمر إلى بيت قاهري بسيط في مظهره الخارجي؛ حيث يغلب عليه الطابع المنتشر في هذه المنطقة من المشربيات الأرابيسك والتفاصيل المعمارية البسيطة والدقيقة في نفس الوقت، ودخلا إلى البيت وصفق الشيخ خطاب وتنحنح بصوته الجهوري:

– يا رب يا ساتر.

كانت هذه هي كلمة السر التي عندما سمعها أهل البيت هرعوا نازلين من الطابق العلوي إلى مدخل المنزل مهللين ومرحبين بالشيخ خطاب، حيث قابله أولًا عم عبد الباسط وهو رجل خمسيني تبدو عليه ملامح الشقاء والعناء، صافح الشيخ خطاب وقبل يده التي حاول الشيخ خطاب أن ينزعها منه لكنه قبلها قبل أن ينزعها:

– أهلًا وسهلًا مولانا فضيلة الشيخ خطاب.

ونزلت بعده الست لواحظ زوجة عم عبد الباسط وهي ترتدي ملابس البيت البسيطة متلفحة بطرحة بيضاء تخفي بها ملامح وجهها احترامًا للشيخ

خطاب الذي غض بصره عنها احترامًا لحرمة البيت، ونظر في الأرض أثناء ترحيبها به:

- نورت البيت يا شيخ خطاب.

رد الشيخ خطاب التحية على أهل البيت:

- هذا نوركم ونور الحسين والأزهر.

أشار الشيخ خطاب إلى عمر قائلًا:

- هذا عمر ابني.

انهال أصحاب البيت على عمر بالترحيب الحار وقبله عم عبد الباسط واحتضنه:

- أهلًا بالغالي ابن الغالي على قلوبنا.

بينما أخذته الست لواحظ في حضنها الذي شعر فيه عمر بالغرق داخل بحر من الإسفنج الناعم، حيث كان وزنها كبيرًا، وانهالت عليه بالقبلات والأحضان.

في هذه اللحظة ظهر هاشم ابن عبد الباسط ولواحظ، وهو صبي يكبر عمر بحوالي خمس سنوات، ونزل على السلم مسرعًا يرحب بالشيخ خطاب ويقبل يده:

- أهلًا وسهلًا عم الشيخ خطاب، افتقدناك كثيرًا والله.

ربت الشيخ خطاب على رأس هاشم وقبله في رأسه:

- بارك الله فيك يا هاشم وحفظك، هذا ابني عمر.

في هذه اللحظة شعر عمر أن الفرج قد أتاه وأنه سينجو من بحيرة

الإسفنج التي وقع فيها؛ فقد أخذه هاشم من حضن أمه وصافحه واحتضنه ورحب به في حبور وسرور:

– أنا هاشم وإن شاء الله تكون بيننا صداقه ومحبة.

– وأنا عمر بن الخطاب.

دعا عبد الباسط الشيخ خطاب للصعود، وصعدت لواحظ أولًا، وانتظر الشيخ خطاب حتى تصعد لكي يستطيع الصعود بعدها، وأصر عبد الباسط أن يسبقه الشيخ خطاب بالصعود للأعلى.

داخل صالة الشقة جلس عمر يتصفح بعينه هذه التفاصيل الموجودة من أثاث بسيط مرتب ونظافة مكان لا تخفى على أحد، ومشربية أرابيسك تحتها كنبه إستانبولي، وصور فوتوغرافية بالأبيض والأسود لأشخاص كبار في السن معلقة على الحوائط، ولفت نظره وجود مذياع قديم على إحدى الطقاطيق الخشبية الموجودة بالصالة، وتعجب في نفسه قائلًا:

– البيت بسيط وأصحابه بسطاء، فأين هي المهيصة التي تتحدث عنها أمي الحاجة فاطمة؟ يا لها من مبالغة أحيانًا في الحكم على الناس، يبدو أنني سأندم على هذه الزيارة.

انهمك الشيخ خطاب في الحديث مع عبد الباسط ولواحظ، بينما أخذ عمر جانبًا هو وهاشم يتحدثان، وفوجئ عمر بهاشم يسأله:

– هل دخلت السينما من قبل يا عمر؟

تعجب عمر من السؤال؛ فهو لم يسمع عن السينما من قبل ولا يعرف معنى الكلمة: – سينما؟ ما هي السينما؟

ضحك هاشم من جهل عمر بالسينما، ولكنه لم يتماد في الضحك

احترامًا لضيفه، فشرح له ببساطة: – السينما هي عبارة عن مكان كبير مظلم به كراسي يجلس عليها الناس، هذا المكان به حائط كبير أمام الناس تعرض عليه الأفلام ونرى المشخصاتية أمامنا.

– المشخصاتية يكونون أمام الناس كالمسرح؟

– هل تسمع عن المسرح؟

– نعم، وهل تظنني جاهلًا؟ ولكني لا أعرف ما هي هذه السينما.

– السينما شيء قريب من المسرح، لكنك ترى المشخصاتية أمامك في فيلم ولا تراهم واقفين أمامك على المسرح.

سرح عمر بخياله محاولًا تخيل هذه السينما التي يتحدث عنها هاشم، لكنه عجز عن تخيلها، فعرض عليه هاشم عرضًا رائعًا:

– هل تحب أن أصحبك إلى السينما غدًا؟

ذهل عمر من العرض المفاجئ، ولم يستطع أن يجيب من فرط اندهاشه وفرحته، فأكمل هاشم الحديث:

– إنهم يعرضون فيلمًا كوميديًّا اسمه (زليخة تحب عاشور).

– سأستأذن أبي أولًا فإن أذن لي جئت معك وإن لم يأذن فلن أفعل.

هنا تقمص هاشم دور الناصح الأمين، وبدا كمن يوسوس لعمر ويحرضه:

– إذا طلبت من والدك فسيرفض، ولكن إذا ذهبت وعرف هو بعدها فلن يحدث شيء.

نظر عمر إلى هاشم نظرة استفهام، فاستأنف هاشم حديثه:

– صدقني، الموضوع أبسط مما تتخيل، ولكن لأنك أول مرة تنزل إلى

مصر فسيكون خائفًا عليك.

بدا على عمر التفكير، بينما استأذن هاشم الشيخ خطاب قائلًا:

– لو أذن لي الشيخ خطاب أن أصطحب عمر غدًا في فسحة!

بدا التردد على الشيخ خطاب الذي تفاجأ بالطلب وكان على وشك الرفض لولا شعوره بالحرج بعد أن تدخل عبد الباسط والد هاشم في الحديث:

– هذه فرصة طيبة لكي نرد لك جزءًا من جميلك وأفضالك علينا يا شيخ خطاب.

شعر الشيخ خطاب بالحرج:

– لا جميل ولا أفضال، أعزكم الله، ولكن عمر أول مرة يزور مصر، وأخاف عليه أن "يتوه".

تدخلت لواحظ في الحديث:

– لا تخش عليه مع هاشم؛ فهو سيحافظ عليه بإذن الله، ولن يمسه أي ضرر، وهاشم يحفظ القاهرة عن ظهر قلب.

هنا استسلم الشيخ خطاب للضغوط، ووافق على مضض أن يخرج عمر مع هاشم في فسحة صباحية، ولكن بشرط أن يعود إلى البيت قبل أذان العصر، فوافق عمر وقطع هاشم على نفسه وعدًا أن يأتي إليه ليصطحبه في العاشرة صباحًا من المنزل وأن يعود به عند أذان العصر مباشرة.

***

في تمام العاشرة صباحًا كان هاشم يقف أمام باب شقة الشيخ خطاب، وفتح له إسماعيل مرحبًا ودعاه للدخول.

دخل هاشم إلى شقة الشيخ خطاب لأول مرة في حياته، وظل يتجول فيها ببصره مقارنًا بينها وبين شقتهم المتواضعة، وجاء إليه إسماعيل بكوب من العرقسوس المثلج وقدمه له.

خرج عمر من غرفته متأنقًا كعادته مرتديًا بدلة كاملة غير التي كان يرتديها بالأمس، وعندما رآه هاشم على هذه الهيئة ضحك وكاد أن يصاب بشرقة أثناء شربه للعرقسوس، وظل يسعل إلى أن هدأ سعاله وسط استغراب من عمر الذي لم يفهم لماذا يضحك هاشم.

بعدما عاد هاشم لطبيعته قال لعمر:

– لماذا كل هذه الرسميات يا شيخ عمر؟ هل أنت على موعد في ديوان جلالة الملك؟

استغرب عمر من سخرية هاشم من هيئته التي اعتاد على الظهور بها، وسأله في استغراب:

– هل هناك ما يمنعني من الخروج بهذه الهيئة؟ لقد رأيت الكثير من الصبيان في مثل عمري هنا في المحروسة يرتدون مثلما أرتدي.

حاول هاشم العدول عن سخريته وتطييب خاطر عمر قائلًا:

– لا يوجد طبعًا ما يمنع، ولكننا في إجازة الصيف، وهذا الزي هنا في المحروسة يكون زي طلبة المدارس غالبًا، وهو ما نحاول التخفف منه في الإجازة ونرتدي مثلما أرتدي أنا.

نظر عمر إلى هاشم فوجده يرتدي "شورت" وقميصًا صيفيًّا خفيفًا بحمالات وجوربًا يغطي نصف ساقه وحذاءً أسود ولا يرتدي طربوشًا ولا رابطة عنق، وشعره مقصوص بتدريج، وهو ما عرف عمر أنه كان الموضة السائدة وقتها في مصر، ويميل شعره إلى الطول من أعلى الرأس مسرَّحًا

إلى الخلف مدهونًا بزيت يجعل مظهره ناعمًا كالحرير، وساعتها اقتنع عمر بكلام هاشم، ولكنه استدرك قائلًا:

– لنجعل هذا في الزيارة القادمة للمحروسة، فلم آت إلا بهذه الملابس

– حسنا، هل نتحرك الآن؟

قبل أن يتحرك عمر اشترط على هاشم شرطًا:

– والدي أعطاني نقودًا كافية لفسحتي وفسحتك، وأمرني ألا أجعلك تدفع أي شيء، وجعل هذا شرطًا لإتمام الفسحة، ولو رفضت فلن أخرج معك.

تظاهر هاشم بالرفض في أول الأمر، ظهرت عليه أمارات عزة نفس كاذبة، وأظهر لعمر أنه جرحه في كبريائه بهذه الكلمات التي قالها لتوه، ونظر في الأرض في حزن، ثم نظر إلى عمر قائلًا في عتاب:

– هذه إهانة من الشيخ خطاب صاحب الأفضال الوفيرة علينا، أليس لمثلي من الفقراء الحق في أن يوفوا جزءًا من جميل أصحاب الفضل عليهم؟

لا يدري عمر لماذا شعر أن هذا الفتى هاشم ما هو إلا مشخصاتي ماهر كالذين سيذهبون بعد قليل ليشاهدوهم، فما كان منه بعد هذه الوصلة المسرحية إلا أن قال له في برود:

– وأنا لا أستطيع إهانتك يا صديقي .... أما والدي فأستطيع أن أقنعه بوجهة نظرك، وبخصوص النقود التي أعطانيها فصندوق نذور مسجد الحسين أولى بها.

أُسقِط في يد هاشم الذي شعر أنه تورط في مصاريف هذه الفسحة، وكان يظن أن عمر مثل والده الشيخ خطاب الذي لو كان فعل هذا المشهد أمامه

لقبل رأسه وزاده من النقود التي كان ينوي إعطاءه إياها، ولما أحس عمر أن هاشم قد استوعب الدرس وأنه لن يعود لمثل أفعاله هذه ثانية وإنقاذًا منه لفرش أرضية الصالة من الغرق في كمية العرق الذي سيتصبب من هاشم بسبب هذه الورطة استدرك كلامه قائلًا:

– هذا بالنسبة لنقود والدي، أما نقودي أنا التي استقطعتها من مصروفي فهي تكفي لفسحة اليوم وتفيض لعشر فسحات أخرى، واسمح لي أن أدعوك أنا كعربون صداقة ومحبة بيننا.

رُدَّت الروح مرة أخرى في هاشم بعد أن انسحبت منه للحظات معدودة مرت عليه كأنها الدهر كله منذ خلق الله آدم حتى لحظتها، وعاد ضخ الدم لوجهه مرة أخرى بعد أن شحب شحوب الموتى، وتنفَّس الصعداء، وتنهد في ارتياح محدثًا نفسه:

– يا لك من صبي لعين! ويا لي من ممثل أحمق!

بعد أن مر الموقف بسلام بدقائق معدودة كان عمر وهاشم يقطعان شارع الأزهر وصولًا إلى ميدان العتبة سيرًا على الأقدام عملًا بنصيحة هاشم أن الفسحة يجب أن تكون سيرًا على الأقدام وأن تكون الركوبة فيها للضرورة القصوى.

كان والدي دائمًا ما يتندَّر معي أنه رأى العتبة الخضرا قبل أن يشتريها إسماعيل ياسين، هذا الميدان الجميل بعمائره الإنجليزية الطراز وما فيه من مصالح مهمة كالبريد والمطافئ وشارع محمد علي معقل الآلاتية والفنانين، والباعة الجائلين وبائعي العرقسوس بزيهم التقليدي والقربة الزجاجية ذات البوز المعدني التي يصب منها في الأكواب للزبائن.

قطع هاشم وعمر ميدان العتبة في اتجاه المسرح القومي وحديقة الأزبكية

وصولًا إلى بيت القصيد ... شارع عماد الدين.

بوليفار مصر، هكذا كان شارع عماد الدين في بدايات القرن العشرين، حيث كان هو مركز الفن والفنانين في وسط العاصمة، ومن المفارقات أن الشارع استمدَّ اسمه من ضريح لشيخ اسمه عماد الدين موجود في تقاطع الشارع مع شارع نجيب الريحاني إلا أن هذا الشارع اكتسب شهرته أكثر من الفن وصناع الحظ والفرفشة الذين استوطنوا هذا الشارع، وكان من أشهرهم بديعة مصابني ونجيب الريحاني وغيرهما الكثير.

عندما دخل عمر هذا الشارع شعر بالانتماء إليه حرفيًّا في وسط عشرات المسارح والسينمات التي تتزين واجهاتها بالصور المرسومة والمطبوعة بالألوان لنجوم هذا الزمن وبرامج فقراتهم في مسارحهم ومواعيد حفلاتهم وحفلات الأفلام المعروضة، شعر عمر أنه تحول من عالم حقيقي إلى عالم خيالي وكأنه دخل إلى بعد جديد مختلف عن البعد الذي يعيش فيه، وكأنه تحول إلى أليس التي دخلت في بلاد العجائب، وتذكر هذه القصة التي سمع عنها للكاتب لويس كارول عن تلك الفتاة الصغيرة التي دخلت عالمًا عجيبًا غريبًا، وتساءل: لماذا يعتبر الناس أن هذه القصة والحدوتة خيالية وليست حقيقية مع أنه هو الآن يعيش عالمًا خياليًّا حقيقيًّا في شارع عماد الدين.

في هذه المرة شعر عمر فعليًّا بشعور القروي الساذج الذي بهرته أضواء المدينة، وسرح في ملكوت هذه الأضواء كالدرويش عندما يترنح على الأنغام الصوفية ويتوحد معها فلا يشعر بالعالم من حوله الذي ليس له به حاجة، فعالمه الافتراضي يكفيه.

ظل عمر سائرًا في صمت مذهولًا مما يراه، واحترم هاشم رغبته في التأمل ولم يشأ أن يقطع صلاته الأولى في حرم شارع عماد الدين.

استمر هذا الوضع لقرابة ساعة كاملة إلى أن اضطر هاشم إلى قطع هذه الحالة الوجدانية قائلًا لعمر:

– ليس لدينا الكثير من الوقت فنحن مرتبطان بموعد مع الشيخ خطاب.

أفاق عمر على صوت هاشم، فأشار له بإيماءة من رأسه بالموافقة على كلامه، فأكمل هاشم حديثه:

– هناك حفلة للفيلم ستبدأ بعد نصف ساعة من الآن لنذهب ونحجز مقعدين في السينما ونقضي الوقت المتبقي على مقهى الكورسال (بعرة حاليًّا).

قام هاشم بحجز مقعدين في سينما متروبول إحدى أشهر سينمات شارع عماد الدين في وقتها، وبعد أن أتم الحجز اصطحب عمر إلى قهوة بعرة التي أنشئت عام 1936م، أي قبل تاريخ هذه الزيارة بأربعة أعوام فقط، ومع ذلك في خلال هذه السنوات القليلة أصبحت من أشهر مراكز انطلاق النجوم للنجومية، وجلس عليها العديد من الكومبارس الذين أصبحوا فيما بعد نجوم الصف الأول.

ظل عمر يتجول ببصره صامتًا لا يتحدث وهو يرى وجوه بعض المشخصاتية الكومبارس الحالمين بالشهرة، والذين أصبحوا بالفعل فيما بعد نجومًا، وكان والدي دائمًا يحكي لي أنه شاهد فريد شوقي في بداياته على هذا المقهى قبل أن يصبح وحش الشاشة، وكذلك رشدي أباظة الذي يكبر والدي بثلاثة أعوام فقط، رآه كثيرًا في مقهى الكورسال ينتظر العاملين بمهنة الريجيسير أن يسندوا إليه أي دور قبل أن يصبح من فتيان الشاشة. وكم رأى نجيب الريحاني أثناء مروره من أمام الكورسال وهو يتوجه لكازينو بديعة أحيانًا ولمسرحه أحيانًا أخرى وغيرهم وغيرهم، كان هذا المقهى ووالدي شاهدين على مشوار نجوميتهم.

حان وقت حفلة السينما، وقام هاشم وعمر الصامت المشدوه الذي ينتفض قلبه طربًا وخوفًا من هذه التجربة الجديدة التي سيخوضها للمرة الأولى وليست الأخيرة.

بدأ الفيلم وسط دهشة وانبهار كبير من عمر الذي يرى المشخصاتية ولكنه لا يستطيع أن يلمسهم إذا أراد ذلك، فهذه الشاشة هي البرزخ الذي يحجب بين العالمين، وظل لنصف ساعة كاملة من بداية الفيلم صامتًا غير مدرك لما يحدث حوله ولما يراه أمامه حتى بدأ في الانفجار في الضحك من الأحداث التي يراها، ومع كل حركة من فؤاد شفيق بطل الفيلم أو آمال زايد، وكذلك الأداء المرعب لزكي رستم الذي كان من أكثر المشخصاتية المفضلين لدى عمر.

انتهى الفيلم وخرج الاثنان من دار العرض، ولكن لم يخرج عمر من الفيلم الذي ظل يتذكر أحداثه كلها وراء بعضها وكأنه يحفظها ليدخل بها امتحانًا، وظل يمشي مع هاشم في شارع عماد الدين حيث بدأت الحركة تكثر والحياة تدب بشكل أوضح في الشارع الذي يستعد لاستقبال الليل وملوك الليل أبطال ورواد شارع عماد الدين.

لفت هذا نظر عمر الذي سأل هاشم:

– لماذا أشعر أن الحركة زادت في الشارع عما كانت عليه منذ ساعتين؟

– الشارع هنا يستيقظ ليلًا وينام نهارًا، والفسحة فيه ليلًا تختلف عن الفسحة فيه نهارًا، ولكننا مضطرون.

– اشرح لي أكثر.

– عندما يهل ظلام الليل تضيء كل هذه الواجهات التي تراها مظلمة الآن، وتدب الروح في هذه الرسومات الكبيرة للنجوم والنجمات فتراها

كأنها حقيقية، كما أن كبار المشخصاتية يبدءون في التوافد لإحياء الليالي على المسارح، باختصار الليل هنا كالنار التي تخرج من تحت رماد النهار.

– هل جئت هنا ليلًا قبل ذلك؟

أنا آتي أسبوعيًّا هنا، ولنا في البيت أنا وأبي وأمي زيارة نصف شهرية للشارع نحضر فيها حفلة سينما أو رواية مسرحية جديدة.

نظر عمر إلى هاشم في اندهاش وكأنه يتساءل كيف أنهم مع بساطة حالهم لا يتركون فرصة للتمتع بالحياة، ويبدو أن هاشم قد فهم ما يريد عمر قوله، فأجابه دون أن يسأل:

– الحياة أقصر من ألا نستمتع بها، والاستمتاع بالحياة وملذاتها ليس مقصورًا على الأغنياء فقط، فكم من غني ضاع عمره كله دون أن يتذوق فيه لحظة متعة! وكم من فقير يتفنن في الهروب من بؤس حاله بالتمتع بدنياه البائسة!

هز عمر رأسه إعجابًا بحكمة هاشم الذي وضع له دون أن يشعر قاعدة جديدة في حياته، وهي أن الحياة أقصر من ألا نستمتع بها.

للمرة الثانية يلتزم عمر بموعده مع والده الشيخ خطاب، وكان في البيت عند أذان العصر بالضبط، ووجد أباه الشيخ خطاب ينزل درج السلم للحاق بصلاة العصر في مسجد قريب من المنزل، فاصطحب معه عمر وهاشم لأداء الصلاة، وطلب من هاشم ألا يغادر قبل تناول الغداء معهما.

انتهى الثلاثة من أداء صلاة العصر في المسجد، وعادوا إلى البيت ليجدوا إسماعيل قد انتهى من إعداد الغداء، وجلس الأربعة على المائدة لتناول الطعام؛ فقد كان من عادة الشيخ خطاب مجالسة خدمه على طعامه مثلما كان يفعل والده.

كان هاشم يشعر بشيء من الحرج لمهابة الشيخ خطاب في نفسه، لم يُذهِبْ هذه الحالة إلا تبسط الشيخ خطاب معه وطمأنته لكي يستطيع الأكل بدون حرج.

فتح الشيخ خطاب الحديث شاكرًا هاشم على مصاحبته لعمر في هذه الفسحة، وتوجه إلى عمر بالسؤال:

– أين ذهب ابن الخطاب مع الفتى الهاشمي القاهري؟

توقف عمر عن الطعام، ونظر إلى هاشم ثم نظر إلى أبيه، وأجابه في قلق:

– ذهبنا إلى ... إلى ... شارع عماد الدين.

نزل الخبر على الشيخ خطاب كالصاعقة؛ لعلمه المسبق أن شارع عماد الدين هو شارع الفسق والفجور في وسط المحروسة، ونظر إلى عمر نظرة لها مغزى فهمها عمر، ولكن الشيخ خطاب نظر في طبقه وأكمل طعامه دون أن يتحدث إلى ابنه احترامًا لوجود ضيف على الطعام، فلم يكن من أخلاقه أن يعنف أهل بيته أو يرفع صوته في حضرة ضيف.

بعد الانتهاء من الغداء وتناول الشاي استأذن هاشم في الانصراف متوقعًا الذي سوف يحدث لعمر من والده؛ لذلك فضَّل الانسحاب قبل وقوع العاصفة التي وإن تأخرت فهي آتية لا محالة.

كان الشيخ خطاب في غرفته عندما نادى على إسماعيل وطلب منه أن يستدعي له عمر من غرفته، فذهب إسماعيل إلى عمر ناظرًا إليه نظرة شفقة، مخبرًا إياه أن أباه الشيخ خطاب في انتظاره.

وقع خبر الاستدعاء على عمر كالمطرقة التي تنزل على رأس أحدهم فتهشمها، مع أنه كان ينتظره بين لفتة عين وانتباهتها، وذهب إلى أبيه في غرفته يجر قدميه كالمحكوم عليه بالإعدام أثناء ذهابه لتنفيذ الحكم.

طرق عمر باب غرفة والده الذي سمح له بالدخول، وتوقع عمر أن يجد كل أنواع آلات التعذيب في انتظاره مع أنه يعلم جيدًا حلم وأخلاق والده ومكانته في نفسه، لكنه كان يعلم مدى الجرم الذي ارتكبه في نظر والده؛ لذلك هيأ نفسه لما هو أسوأ حتى إذا ما لقيه كان مستعدًّا وإذا لم يحدث فبها ونعمت. دخل عمر على والده الذي كان خالعًا قفطانه وعمامته مكتفيًا بالجبة فضية اللون وطاقية بيضاء شبيكة فوق رأسه جالسًا على كنبة إستانبولي رافعًا إحدى ركبتيه ساندًا عليها يده الممسكة بالمسبحة يذكر الله.

وقف عمر أمام والده الذي كان ينظر إليه في صمت مريب وهو يسبح ويذكر متأرجحًا بنصف جسده العلوي للأمام والخلف، حالة من الصمت جعلت عمر لا يشعر أنه واقف أمام والده لمدة تزيد عن الربع ساعة دون أن يتغير الوضع عما هو عليه؛ مما جعله يتمنى أي رد فعل من والده بدلًا من هذا الصمت المريب، عملًا بمبدأ وقوع البلاء خير من انتظاره.

أخيرًا تكلم الشيخ خطاب مشيرًا إلى عمر بيده التي يمسك بها المسبحة رافعًا إصبعه السبابة في وجه عمر:

– هل تعلم أنني لست راضيًا عما حدث منك اليوم؟

– نعم أعلم.

– ولماذا فعلت شيئًا تعرف أنني سأرفضه دون أن تخبرني به؟

– لأني كنت أعلم أنك سترفضه.

تنهَّد الشيخ خطاب وصمت قليلًا ثم أكمل حديثه:

– أرأيت إن نهانا الله عن أمر ونحن نعلم ذلك ثم أتيناه هل يغضب الله منا؟

– بالتأكيد.

– ولله المثل الأعلى؛ فقد فعلت مثل هذا معي اليوم.

صمت عمر قليلًا ووضع رأسه في الأرض، ثم نظر إلى أبيه قائلًا في خجل:

– أعتذر.

– اعتذار أم توبة؟

– بل اعتذار.

– إذن تنوي التكرار.

يصمت عمر ولا يجيب، فيتحدث إليه الشيخ خطاب معاتبًا:

– أذلك جزائي لأني أعتبرك رجلًا وصديقًا لي؟ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

– أنا لم أسئ إليك؟

– بل أسأتَ.

– كيف؟

– خيبتَ ظني فيك.

– كل ذلك من أجل مشاهدة فيلم؟

– هل تعلم أن من شاهدتهم في الفيلم لا تقبل شهادتهم في المحاكم؟

– وما علمي بما كانوا يفعلون؟

– لأنهم يكذبون ويتقمَّصون شخصيات ويصنعون أحداثًا غير حقيقية؛

لذلك لا يقبل لهم القاضي شهادة.

– إنهم يبدعون.

– بل يبتدعون، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

– على أنفسهم.

– وعلى من يشجعهم على التمادي والاستمرار، فلولا نقودك ونقود غيرك من السفهاء ما استمروا.

يصمت عمر قليلًا، فيشير إليه الشيخ خطاب بتجهيز نفسه للعودة إلى طنطا قائلًا:

– انتهت رحلتك قبل أن تبدأ، وستعود إلى طنطا باكرًا، اذهب واحزم أمتعتك.

ينظر عمر إلى والده نظرة احترام وتبجيل ممزوجة بالحسرة على هذه الإجازة النظرية، ويستأذن في الانصراف:

– فليأذن لي أبي.

يشير إليه الشيخ خطاب بيده دون أن يتكلم، ويخرج عمر ويغلق من ورائه باب غرفة والده، ويراه إسماعيل على هذه الحالة فيتوقع ما حدث بينه وبين والده، ويحاول أن يتحدث إلى عمر ولكنه يتراجع لما يراه عليه من هذه الحالة.

يتوجه إسماعيل إلى باب غرفة الشيخ خطاب ويطرقها ويستأذن في الدخول، فيأذن له :

– ادخل يا إسماعيل.

يدخل إسماعيل ويغلق الباب من ورائه، ويقف أمام الشيخ خطاب في احترام وتبجيل، فينظر إليه الشيخ خطاب فيقرأ في عينيه ما دخل من أجله، فيبادره مشيرًا بيده إشارة قاطعة:

– قُضِي الأمر ورفعت الأقلام.

– لم ترفع بعد.

يدهش الشيخ خطاب من رد خادمه عليه، فيكمل إسماعيل:

– لم يجف المداد لترفع الأقلام.

لحظة صمت من الشيخ خطاب تُخْفِي من ورائها إعجابًا ببلاغة خادمه وجرأته، ثم يبدأ الشيخ خطاب في اللين مخاطبًا إسماعيل:

– هل يرضيك ما حدث؟

– إنه لم يكفر.

– معظم النار من مستصغر الشرر.

– إنها لَمَمٌ وليست شررًا.

– الصغيرة لو استمرت تحولت إلى كبيرة.

– إنه صبي.

– إنه طائش.

– ومن منا لم ينل حظه يومًا من الطيش؟

يصمت الشيخ خطاب ويكمل إسماعيل:

– حرَّكه فضوله.

– الفضول مهلكة.

– الفضول منجاة، فلولا الفضول ما تعلم البشر شيئًا جديدًا.

– الفضول أخرج آدم من الجنة.

– كان مكتوبًا عليه النزول من قبل أن يخلق.

– لكنه غوى بفضوله.

– ولكنه تلقَّى الكلمات فتاب عليه ربه.

– ولكني لست بربه.

– وهو ليس بآدم وليس عندك بمكانة آدم عند ربه ومع ذلك تاب عليه، أفأنت تكون عليه أقسى من ربك بآدم؟

يصمت الشيخ خطاب قليلًا:

– ولكنني أريده أن يصير عالمًا بدلًا من أن يكون مهياصًا.

– وهل جعل نوح ابنه مؤمنًا بدلا من أن يصير كافرًا.

– نوح نبي ولم يتب الله على ابنه لحكمة يعلمها.

– ومع ذلك ابنك لم يكفر كما كفر ابن نوح، إنه صغير وحامل لكتاب الله، لكن من حقه أن يعيش.

– وهل كنا نحن أمواتًا؟

– لكل وقت أذان، أذان الفجر يختلف عن أذان الظهر.

– ولكني أخشى عليه.

– ادع الله له أن يعصمه.

– انتهى زمن المعصومين.

– إذن فقد رددت على نفسك.

يصمت الشيخ خطاب، ومع كل جملة يقولها إسماعيل يزداد فرحه به وببلاغته، بل إنه تعمَّد إطالة الحوار حتى يستمتع ببلاغة هذا النوبي النقي مع أنه في قرارة نفسه لم يكن غضبانًا على عمر ولا غاضبًا منه، ولكنه تعمد إظهار التعنت حتى يستزيد من كلام وحكمة خادمه، وأشار إليه قائلًا:

– هو في عهدتك، هو أمانتك.

– وحملها الإنسان، إنه كان ظلومًا جهولًا.

– إذن فقد ضاع الولد مني.

ضحك إسماعيل وضحك الشيخ خطاب طويلًا وعلا صوتهما بالضحك حتى وصل إلى مسامع عمر في غرفته، فتوقف عن ترتيب حقيبته، وانتظر ليعرف ماذا يحدث.

سمع عمر صوت طرق على باب غرفته، فانتظر أن يدخل عليه والده، واستعد أيضًا لما هو أسوأ؛ فقد يكون الضحك الذي سمعه لا ينضوي إلا على شر منتظر، ولكنه فوجئ أن الطارق هو إسماعيل؛ فأذن له بالدخول، ودخل إسماعيل وهو يرسم على وجهه ملامح الجدية والحزن، وجلس على سرير عمر صامتًا لفترة وعمر يقف مترقبًا ما سوف يحدث، حتى قطع إسماعيل الصمت وفضول عمر قائلًا:

– ترى هل إذا توسط لك شخص عند عزيز وقبل العزيز الوساطة فهل كنت رافعًا رأس وسيطك أم أنك منزلها في التراب؟

صمت عمر قليلًا وفهم من ثنايا كلامه أن الأزمة قد انفرجت، ولكنه أراد

أن يخرج من الموضوع بمكاسب أكثر، فأجابه:

– هذا يتوقف على شروط الوساطة وهل يتحملها الإنسان أم تكون فوق طاقته.

تبسم إسماعيل، وأدرك انه يقف أمام طفل واسع الحيلة يختلف عن غيره ممن هم في مثل سنه؛ مما أعطاه الطمأنينة إلى أن هذا الولد من النوع الأوّاب الذي دائمًا ما يرجع إلى نقطة بدايته، وما طمأنه أكثر أن نقطة بداية عمر هي نقطة صالحة، فأجابه:

– يقولون إن الإنسان طبيب نفسه وهو أيضا قاتلها، فأي الاثنين تحب أن تكون؟

– قاتل نفسه أحمق وأنا لست بأحمق، وأما طبيب نفسه فهو يأخذ فقط بأسباب العلاج أما النتيجة فعلى خالقه.

– ولكنه مطلوب منه أن يستمر في الأخذ بالأسباب.

– أما الأخذ بالأسباب فما خلقنا إلا له.

– إذن فهل اتفقنا؟

– علام؟

– على الوساطة.

– وهل عرفت شروطها كي أقبلها؟

– أن تأخذ بالأسباب ولا تطيع شيطان نفسك، وأن تكون لك دائمًا أوبة.

– اللهم اجعلنا من الأوابين.

– إذن اتفقنا.

– اتفقنا.

– هل ستبيِّض وجهي؟

ضحك عمر ضحكًا شديدًا فهم مغزاه إسماعيل الذي ضحك معه، فأكمل عمر:

– أما أنا فلن أستطيع أن أبيِّض وجهك الذي خلقك الله عليه، ولكني سأدعو الله لك أن يبيِّض وجهك يوم تبيضُّ وجوه وتسود وجوه، وكيف لمثلك ألا يبيض الله وجهه وقد خلقه بقلب ناصع لو خرج من جوفه في الليل لأضاء الدنيا بأسرها؟

امتلأت عينا إسماعيل بالدموع من كلام عمر ومديحه فيه، واحتضنه حضن المحروم من الولد الذي رزقه الله به بعد طول انتظار.

كل ما أستطيع قوله أن والدي عمر أفندي قد اكتسب في هذه الليلة صديقه الحميم وكاتم أسراره المخلص ورجل المهام الصعبة في حياته، كان عم إسماعيل النوبي – رحمه الله – يحب والدي حبًّا جمًّا ، وسر ذلك الحب يعود لعدة أسباب: أولها أنه ابن الشيخ خطاب الخولي العالم الجليل وصاحب الأفضال عليه، وثانيهما أن الله حرمه من نعمة الإنجاب، فاعتبر أن الله كافأه بعد كل هذه الأعوام بعوضه حتى وإن لم يكن من صلبه، وثالثهما أن عمر أفندي كان شخصًا استثنائيًّا بالفعل من النوع الفريد الذي يجمع بين الموهبة والبلاغة والذكاء الفطري وحفظ التوازن في حياته.

بدأت صداقتهما وانطلقت مغامرات عمر أفندي خطاب في القاهرة ... بل في القاهرتين ... قاهرة المعز وقاهرة الخديوي.

***

مرت القاهرة بمراحل عديدة في بنائها كان من أشهرها المرحلة الفاطمية،

عندما بناها جوهر الصقلي، وتشمل هذه المنطقة كل ما هو داخل بوابات القاهرة القديمة بما تحتويه من معالم أثرية أشهرها طبعًا في هذه المنطقة الجامع الأزهر ومسجد الحاكم بأمر الله وجامع الأقمر ومنطقة الجمالية وغيرها، ولكن مرت القاهرة بمرحلة جديدة من بنائها على يد الخديوي إسماعيل، وهي المنطقة التي تقع من ميدان العتبة وصولًا إلى ميدان التحرير مرورًا بشارع فؤاد وشارع سليمان باشا وغيرها من المعالم المعروفة بمنطقة وسط البلد، وكان أبي حتى لا يبخس أيًّا من الفاطميين أو الخديوي إسماعيل حقهما، وبما أنه كان يتحرك ما بين القاهرة الفاطمية والقاهرة الخديوية، فقد تفتَّق ذهنه عن تسمية جديدة، واعتبر نفسه موحد القاهرتين، فأطلق على هذه المناطق التي يتنقل فيها اسم قاهرة الخديوي المعز.

في اليوم الثاني من موقعة شارع عماد الدين وسينما متروبول وفيلم زليخة تحب عاشور مرورًا بمقهى الكورسال، فتح هاشم باب شقتهم للطارق الذي فوجئ أنه والدي يقف أمامه بطاقم ملابس جديد كالذي كان يرتديه هاشم بالأمس، ولكنه يبدو أكثر أناقة وأغلى سعرًا بالإضافة لقصة الشعر المدرجة التي كانت سائدة في هذه الفترة.

اندهش هاشم من المنظر الذي يراه لسببين:

الأول أنه كان يتوقع أن والدي الآن معلق على الفلكة في بيت والده الشيخ خطاب في طنطا.

والثاني أنه لم يتوقع أن يحدث هذا التغيير الذي يراه أمامه في يوم وليلة.

قطع هذا الصمت والتأمل صوت والدي قائلًا لهاشم:

– على حد علمي أن المصراوية أهل كرم ولا يتركون ضيوفهم على الباب كثيرًا.

أفاق هاشم وابتسم لوالدي وداعاه للدخول:

– تفضل يا عمر أفندي.

دخل عمر أفندي وجلس على كنبة في الصالة بينما ذهب هاشم وعاد آتيًا له بكوب الشاي ومعه كوب من الماء على الصينية، وتناول عمر كوب الماء وشرب منه أولًا، وأخرج منديلًا من جيبه ومسح به فمه في تصرف أرستقراطي، ثم بدأ في رشف الشاي في شعور بالعظمة كأنه يريد أن يوصل هذا الإحساس لهاشم الذي كان جالسًا أمامه مشدوهًا مبتسمًا في تعجب صامتًا يتأمل حجم التغيير الذي حدث لهذا الوافد الطنطاوي بين عشية وضحاها، استمر هذا الوضع لدقائق قبل أن يقطعه عمر الذي كان يلاحظ هاشم بطرف عينيه ويتمادى فيما يفعله: – جئت لأشكرك وأبلغك شكر والدي الشيخ خطاب على مصاحبتك لي في فسحة الأمس.

– الشيخ خطاب؟!

– نعم الشيخ خطاب، علام التعجب؟

– ظننت أنه سيعيدك إلى طنطا وأنه سيقطع علاقته بأسرتي نهائيًّا؟

– لماذا؟

– لأننا ذهبنا إلى شارع عماد الدين الذي يعتبره أهل الله مثل والدك من أماكن الموبقات.

– والدي ليس منغلقًا لهذا الحد كما تظن، كل ما هنالك أنه تفاجأ فقط من جرأة ابنه على التغول في القاهرة دون أن يكون معه شخص كبير.

لم يقتنع هاشم بكلام عمر، ولكنه تظاهر بعكس ذلك، وكان متأكدًا أن هذا الصبي الفلاح اللئيم يُخفي وراءه سرًّا لا يريد البوح به، ويدعي عكس

ما يبطن، ولكن هذا كله لم يكن ليفرق مع هاشم الذي استنتج بحاسته السادسة أن دوره مع عمر لم ينته بعد، بل إنه بدأ لتوه، فما معنى أن يزوره عمر ثانية إلا إذا كان يعتبره دليلًا له في زياراته وفسحاته في عالم شارع عماد الدين، وبالطبع فإن الدليل لا بد له من أجر على عمله، وهل هناك أجر أفضل من ثمن تذكرة سينما أو دفع حساب المشاريب على مقهى الكورسال، ولا مانع من معايشة ما تسمعه من أصدقائك الميسورين من قطعة مكرونة فرن على الغداء يتبعها جيلاتي (تروا بيتيه كوشو) من محل آلامريكين أو حتى كأس كونياك صغير في بار روي في شارع سليمان باشا ... يبدو أن أحلامك أخيرًا ستتحقق دفعة واحدة أيها الوغد القاهري وستنال ما كان يمنعك منه ضيق ذات اليد بعد أن كان أقصى ترفيه تحصل عليه من والدتك في فسحة السينما هو ساندويتشات المكرونة المصنوعة في البيت وأقصى واجب يخرج من والدك هو الحصول على زجاجة اسباتس مشبرة من أي كشك سجائر في شارع عماد الدين أو شارع نجيب الريحاني.

استغرق هاشم في أحلام يقظته التي تمنى ألا يفيق منها إلا على تحقيقها، ويبدو أن عمر كان مختبئًا له في حلمه يشاهد كل تفاصيله، ففجأة قال له:

– استعد اليوم لخروجة ماتينيه لنشاهد فيلمًا آخر.

أفاق هاشم من أحلامه مندهشًا من لفظ (ماتينيه) الذي نطقه عمر منذ لحظات، فنظر له مندهشًا سائلًا:

– ماتينيه؟ هل سمعت جيدًا؟

– نعم، ماتينيه ... ولم العجب؟

ضحك هاشم ثم نظر إلى عمر:

– يبدو أنك أصبحت أفندي قراري، لقد أصبحت مصروايًّا أصيلًا بين

عشية وضحاها.

أشار له عمر بيده: دعك من التفاصيل ولتستعدَّ للانطلاق.

***

انطلق عمر أفندي صائلًا وجائلًا في قاهرة الخديوي المعز كأحد أبنائها القدامى الذين نشئوا وتربوا فيها وليس كزائر طنطاوي يأتيها فقط في الإجازات، أصبح عمر ملكيًّا أكثر من الملك وقاهريًّا أكثر من القاهرة نفسها، وانقسمت حياته وعيشته بين طنطا والقاهرة، يعود إلى طنطا زائرًا خفيفًا يراجع فيها ما يحفظه من القرآن مع مشايخه ساردًا لأصدقائه المساكين الذين يسمعون فقط عن القاهرة ما يراه فيها باستمرار من سحر يخطف القلوب قبل أن يخطف الأبصار.

استمر عمر في الحفاظ على العهد الذي قطعه على نفسه أمام إسماعيل النوبي وهو أن يُرضي والده بالتفوق في دراسته الأزهرية ويصير مدرسًا للغة العربية في مقابل أن يتركه أبوه الشيخ خطاب الخولي يفعل ما يحلو له دونما التأثير على مستقبله، فاستطاع أن يجمع بين المفروض والمرغوب.

في خلال سنوات قليلة كان قد انتهى من دراسته المؤهلة للمرحلة الجامعية، وفي أثناء هذه السنوات كان دائم التواجد في القاهرة يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع كجزء أصيل من روتين حياته لا يستطيع التخلي عنه أبدًا.

أخيرًا سيأتي القاهرة مقيمًا وليس زائرًا طائرًا من كل أسبوع؛ فقد التحق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بجوار الجامع الأزهر مباشرة وأمام المشيخة.

لم تنقطع صلته بهاشم الذي اكتفى بشهادة التوجيهية (الثانوية) التي

حصل عليها قبل عمر بخمس سنوات هي فارق العمر بينهما، ولأن ظروف أسرته المادية ليست على ما يرام فلم يستطع الالتحاق بالجامعة التي كانت شبه مقصورة على أبناء الأغنياء أو المتفوقين الحاصلين على منح دراسية من الحكومة، ولأن هاشم لم يكن من هؤلاء ولا من أولئك فقد اكتفى بالشهادة التوجيهية التي اعتبر حصوله عليه هو قمة الإعجاز، واستطاع بمساعدة جدي ووساطته الحصول على وظيفة بالدرجة السادسة في وزارة المعارف يكتسب منها قوته لينفقه على سهراته في عماد الدين ومسارحه وسينماته خلال خمسة أيام من استلامه لراتبه ثم يكمل باقي الشهر تسولًا على والدته التي لا تبخل عليه مع فقرهم هذا، فهو الحيلة الذي لم ترزق بغيره.

كان لهاشم مصادر دخل أخرى؛ فقد كان نزيلًا دائمًا على مقهى الكورسال (بعرة)، وكان ملاصقا للريجيسيرات المشهورين وقتها لكي يأخذوه كأحد المجموعات الصامتة التي تظهر في الأفلام في مقابل مادي زهيد كان يتحصل عليه الزناتي بعرور صاحب مقهى الكورسال من الريجيسير مباشرة كمقابل للمشاريب التي يتحصل عليها هاشم دون أن يدفع ثمنها، وكان هذا الوضع بالنسبة لهاشم جيدًا إلى حد ما، فمن ناحية يستطيع تدبير ثمن هذه المشاريب ومن ناحية أخرى يتفاخر بين أقرانه وزملائه أنه ظهر في الفيلم الفلاني مع النجم العلاني حتى لو كان للحظات قليلة لا يدركها أحد من المشاهدين، وكان يستغل شغف وفضول زملائه في أسئلتهم عن النجمة الفلانية أو النجم الفلاني، وكان ينسج لهم قصصًا من خياله عن فلانة التي تحب علانًا وعلان الذي يخون زوجته النجمة فلانة، وهكذا.

بل إن هاشم التحق ببعض الفرق التمثيلية كممثل هاوٍ مثل فرقة نجيب الريحاني، ولكنه فشل في إثبات جدارته كممثل، فكان دائمًا مصيره الطرد من هذه الفرق.

دائمًا كانت لقاءات عمر مع هاشم لا بد وأن تتخللها الرذيلة، وخصوصا بعدما دخل عمر الجامعة واعتبره هاشم قد بلغ السن القانونية للانحراف على حد قوله، فبدأ شرب الدخان على فترات متقطعة، وبدأت بعض الزيارات لدروب الهوى في شارع كلوت بك وحواريه، ولكن لم يكن عمر يقرب الخمر أبدًا لعلمه بأنها أم الخبائث؛ مما كان يثير استغراب هاشم الذي سأله ذات مرة قائلًا:

– إنك تشرب الدخان وتقضي وطرك من الساقطات ومع ذلك ترفض شرب الخمر رفضًا قاطعًا، فلم هذا التناقض العجيب؟

كان عمر يجيبه بحكمة الفقيه المنحل قائلًا:

– أما الدخان فنشربه وننفثه فلا يستقر داخل جوفنا، وأما ماؤنا الذي نروي به أرحام الساقطات فهو خارج منا وليس بداخل؛ فالوزر الأكبر على صاحبة المستقر، وأما الخمر فإذا دخلت لا تخرج فتحرق الأحشاء وتذهب بالعقل وتضيّع الهيبة وتجعل الحر أسيرًا لموبقاته التي من غيرها قد يأتي يوم ويطلقها ثلاثًا فلا يعود لها أما إذا استمر في شربها فيصير لموبقاته كالجارية في فراش عتل محروم.

استمرت حياة عمر في شبابه بشكل صاخب، ولكنه كان يستطيع التحكم فيه ربما لأن الله استجاب دعوة والده عندما دعا الله له أن يعصمه من الاستمرار في الزلل، وكان للشيخ خطاب بعض التدخلات غير المباشرة في حياة عمر ابنه، فعندما أحس أن ابنه قد يسير في سكة الحرام ولا يعود، سارع بأن فاتحه في موضوع زواجه رغم أنه ما زال في السنة الثانية الجامعية ولم يتخرج بعد، وعندما تحجج عمر بأن ظروفه لا تسمح بأن يتحمل مسئولية بيت وأسرة حتى يهرب من الزواج سارع إسماعيل النوبي بإقناعه بالزواج إرضاءً لوالده وأملًا في العفة والبعد عما يغضب الله.

وافق عمر على الزواج من اعتماد التي تصغره بعامين، وهي ابنة أحد أصدقاء والده الشيخ خطاب في طنطا، وتم الزواج، واقترح عمر أن تمكث اعتماد في طنطا على أن يزورها كل خميس يقضي معها عطلة نهاية الأسبوع، ولكن الشيخ خطاب رفض لأنه فهم ما يدور برأس ابنه من أنه "ينوي الدوران على حل شعره" بعيدًا عن زوجته.

وافق عمر على مضض أن تنتقل معه اعتماد إلى القاهرة على أن يوازن بين بيته وحياته الصاخبة.

منذ دخول اعتماد حياة عمر تغير حاله إلى الأفضل، فكانت بالنسبة له نعم الزوجة والمعين، ورغم أنها تربية أقاليم وليس لها في ألاعيب بنات البندر وخصوصًا بنات مصر، إلا أن والدتها علَّمتها جيدًا وربتها كيف تكون لزوجها زوجة وحبيبة وعشيقة، وأن تكون لديها دائمًا القابلية لأن تسامحه إن أخطأ أو وقع في الزلل لكي تكون له المرفأ الذي يحتضن السفينة المنهكة من فعل الرياح بها بدلًا من أن تكون العاصفة التي تدمر هذه السفينة وتكمل خرابها.

امتازت اعتماد رغم صغر سنها بالحكمة في احتواء طيش زوجها الشاب، وكانت تتجدد له دائمًا حتى لا تشعره بالملل؛ فقد ربتها والدتها كما كانت نساء العرب قديمًا تربين بناتهن على طريقة بناء البيوت وإعمارها بشتى السبل؛ حتى لا تترك الفرصة لمن يتحيَّن خراب هذا البيت.

شعر عمر بالامتنان والفضل الكبير لوالده إن رشح له هذه الزوجة بنت الأصول، وفي مقابل ذلك قرر أن يصون اعتماد وألا يجرحها في كبريائها كامرأة أبدًا؛ أي إنه تنازل عن ركن الرذيلة من حياته الطائشة وحفظ جسده لزوجته فقط، لكن هذا لا يمنع أن يترك مساحة في قلبه لها ولغيرها.

(قلب الرجل ينقسم إلى غرف عديدة يستطيع إسكان امرأة واحدة معززة

مكرمة في كل غرفة من هذه الغرف ويغلق عليها بابها، بحيث تستقل كل امرأة بمكانتها ولا تطغى على مكانة امرأة أخرى تسكن غرفة مجاورة لها).

كان هذا مبدأ أبي في حياته؛ فهو لا يمانع أن يحب أكثر من امرأة في نفس الوقت طالما أنها لا تؤثر على حبه لامرأة أخرى، وطالما أن الجسد لواحدة فقط، وهي الزوجة، فلماذا لا تشاركها غيرها في القلب الذي يسع من الأحبة آلافًا؟

بهذا التوازن استطاع أبي أن يحافظ على بيته وامرأته وأسرته مانحًا لنفسه العنان أن يحب غيرها طالما لم يظلمها، وانطلق مستمرًّا في حياته الصاخبة، وتخرج في الجامعة، وتوظف مدرسًا للغة العربية في أحد المعاهد الأزهرية بمدينة طنطا، وسرعان ما استطاع أن ينقل نفسه إلى القاهرة على غير رغبة والده الشيخ خطاب.

كان أبي دائمًا يحمل أخى حسين الذنب في أنه لم يصبح مشخصاتيًّا مشهورًا؛ ففي أحد الأيام بعد زواجه وأثناء دراسته الجامعية جاءه هاشم بخبر كاد أن يغير مسار حياته؛ فقد علم هاشم أن المخرج هنري بركات يطلب وجوهًا جديدة للعمل معه ممثلين مساعدين في فيلمه الجديد (أمير الانتقام)، فذهب هاشم وعمر إلى مكتب الأستاذ هنري بركات وسجلا اسميهما وتحدد لهما موعد للاختبار، وفي يوم الاختبار الموعود استعد والدي للذهاب فإذا بآلام الولادة تصيب أمي قبل موعد الولادة المنتظر بأسبوع على الأقل، وأسقط في يده ولم يدر ماذا يفعل: هل يذهب لاختبار الممثلين ويترك هذه المسكينة وحيدة بعيدة عن أمها وأهلها الذين لم يأتوا من طنطا لعلمهم أن موعد الولادة لم يحن بعد؟ أم يضحي بحلم عمره ويمكث بجوار زوجته في هذا الموقف العصيب؟

نظر ساعتها محتارًا إلى إسماعيل النوبي لعله ينصحه، فوجد إسماعيل

لأول مرة صامتًا لا يستطيع تقديم النصيحة له، ومع سماعه طرق باب الشقة كان صوت صراخ زوجته يتزايد من شدة الأم، وفتح باب الشقة ليجد هاشم آتيًا إليه ليصحبه إلى الاختبار، فأخذ هاشم من يده ونزل وغاب فترة ليأتي بعدها مرة أخرى مع أم بخاتي الداية لتوليد أمي.

اختار عمر الإحساس بالمسئولية وضحى بما كان يريده لنفسه، فلم يكن لديه أي خيار خصوصًا لو كان ترك اعتماد وحدث لها أي مكروه ما كان سيسامح نفسه أبدًا، ومن ساعتها تشعر اعتماد بالامتنان لعمر الذي قدم حبه لها على نفسه، ويشعر أبي تجاه حسين ابنه الأكبر أنه السبب في ضياع حلم التمثيل، فلو كان أتى في موعده دونما استعجال لكان أفضل لكليهما، وكان يتندر دائمًا على حسين أنه كان متعجلًا على اللحاق بالدنيا حتى لا تفوته مصائبها؛ لذلك كان عقاب حسين أن أبي دائمًا عندما يتشاجر معه يخرج فيه طاقة التمثيل المكبوتة لديه، والتي ضاع حلمها بسبب حسين الذي كان دائمًا يقول لوالدي:

– البشرية مدينة لي لأني رحمتها من تمثيلك.

أما هاشم فقد لحق بموعد الاختبار واختاره الأستاذ هنري بركات للقيام بدور أحد حراس معتقل المغول في الفيلم، ومن يومها استمر هاشم في التمثيل ككومبارس صامت وأحيانًا كمتكلم إلى أن ترقى وأصبح أحيانًا يؤدي أدوار السنيد الذي تحفظ شكله ولكنك لا تعرف اسمه.

***

فتح درج الكومود الذي يقع بجوار سريره، وأخرج منه صورة ليليان التي اعتاد أن تكون صورتها هي أول ما يراه فور استيقاظه من نومه المفترض، كما أنها آخر شيء لا بد أن يختم به يوم عينيه فلا يرى شيئًا بعدها.

تأمل زي الكهنوت المعلق على الشماعة عله يستطيع أن يرى نفسه فيه ولو مرة واحدة، ولكنه لم يجد نفسه، تنهَّد في ضيق مكتوم ونظر مرة أخرى في صورة ليليان لكي يحييها تحية الصباح:

– صباح الخير يا ليليان، هل تعلمين كم أشتاق إليكِ؟

لم تردَّ ليليان كعادتها عندما يحدث صورتها دومًا، وهو لا ينتظر الرد لكنه ينتظر معجزة لكي يستغني الرب عن خدمته له فيعود إلى ليليان التي حرمه منها أبوه، ما أصعب أن تكون خدمة الرب إجبارًا من أشخاص لا يعرفون عن الرب سوى اسمه، ولكنها إرادة الرب نفسه، هكذا يحاول إقناع نفسه، ولكنه يعلم يقينًا أنه لو كان حاور الرب لأشفق عليه ورفضه؛ فهو أرحم به ممن يتمسحون فيه كذبًا.

يقوم من سريره ويتجه إلى الحمام الملحق بغرفته، يلفت نظره في المرآة وجهه الأبيض المثلث ذو اللحية الشعثاء التي لا تملأ وجهه، كم كان هذا الوجه ضاحكًا وصبوحًا قبل أن تحدده رسامة الكهنوت التي تفرض على صاحبها وقارًا معينًا وهو الذي كان يملأ الدنيا صخبًا وسفهًا.

يخلع ملابسه ويدخل تحت قطرات الماء التي يحاول بها أن ينسلخ من روحه وليس من أدران جسده فقط.

أبوه من أكبر رجال الأعمال المسيحيين في مصر، وهو من النوع الذي يمكن أن يطلق عليه لقب (رجل لكل العصور)، حيث كان عضوًا في الاتحاد الاشتراكي، ثم التحق بحزب مصر أيام رئاسة السادات، وانتهى به المطاف كأكبر رجال الحزب الوطني، وازدهرت تجارته بشدة من الانفتاح الاقتصادي.

بعد تولي الأنبا شنودة مقاليد الكنيسة خلفًا للأنبا كيرلس، استطاع أن

يخلق من الكنيسة كيانًا موازيًا للدولة، ونصَّب نفسه رئيسًا للمسيحيين ومسئولًا واحدًا أو أوحد عن شئونهم، بحيث يلجئون إليه في كل أمورهم الحياتية قبل لجوئهم للدولة.

كان أبوه من الذكاء والانتهازية بحيث لمح بوادر التصادم بين الكنيسة والدولة، وأصبح مشتتًا ما بين إعلان الولاء للكنيسة أو الدخول في صف الدولة المواجه للكنيسة للحفاظ على مصالحه الاقتصادية المترامية والمرتبطة بوجوده داخل منظومة مؤيدي النظام، ولأن من عادة الكنيسة بعد وصول الأنبا شنودة للكرسي البابوي أن تظهر العين الحمراء لأي مسيحي تسوِّل له نفسه البعد عن سيطرتها؛ فقد تم استدعاء كبار رجال الأعمال المسحيين لوضع النقاط على الحروف معهم، وكان من ضمنهم والده إسكندر توفيق، التاجر المشهور ورجل الأعمال "العتويل" في مصر، وتم تهديده صراحة بالحرمان من الصلاة عليه إذا اختار جانب الدولة بالإضافة للمقاطعة الاقتصادية لمصالحه من عموم شعب الأقباط. لم يشغله التهديد الأول قدر ما شغله الثاني بالمقاطعة الاقتصادية؛ فهو لم يكن مؤمنًا بالمعنى التقليدي، ولم يذهب إلى الكنيسة طيلة حياته إلا مرات معدودة أغلبها كان حضورًا لمناسبات اجتماعية ما بين إكليل أو جنازة، ولم يكن الدين من الأساس يشغل أي حيز من تفكيره؛ فقد كان يعتبر نفسه وارثًا للدين من آبائه، ولم يتعب في سبيل الحصول عليه، ولم يكن يرى فرقًا ما بين ولادته مسيحيًّا أو حتى مسلمًا؛ ففي كل الأحوال كان سيرث شيئًا لن يفيده ولن يطبقه في حياته، فلم يكن يعرف له ربًّا إلا المال، ولم يكن يشغل باله أي تهديدات بالحرمان من الصلاة عليه بعد موته أو شيء من هذا القبيل، ولكن التهديد الحقيقي هو ضرب مصالحه الاقتصادية التي باتت مهددة، فمن هم مثله ملكوتهم الحقيقي في الدنيا ولا ينتظرون شيئًا بعد التنيح.

أصبح إسكندر محاصرًا بين مطرقة الكنيسة وسندان النظام، فاضطر أن يساير الكنيسة ظاهريًّا في صدامها مع الدولة، حتى إنه كان من الممولين الرئيسيين للكنيسة بعلم الدولة نفسها، التي يعلم جيدًا أنها تعد عليه هو وأمثاله أنفاسهم، وكان من المؤسسين لبيزنس الكنيسة المتمثل في مزارع ومصانع تخضع للكنيسة الأم مباشرة، واستطاع بدهائه أن يربح من الوضع الجديد للكنيسة داخل الدولة، وأمسك جميع الخيوط بيده من المنتصف حتى لا يميل ناحية طرف على حساب الآخر، بل وأصبح من المتحكمين في الكنيسة الأم عن طريق نفوذه بين الرهبان والمطارنة الذين يتابع معه الأنشطة الاقتصادية للأديرة التي كان يشتري منها إنتاجها ويوزعه في السوق.

شخصية إسكندر توفيق من الشخصيات التي لا تثق كثيرًا فيمن يتعامل معهم، وكان يحب جني أكبر قدر ممكن من الأرباح في مقابل أقل استفادة للطرف الآخر حتى لو كان الرب نفسه، لذلك كان يتأفف كثيرًا من العمولات التي يدفعها للرهبان والكهنة الفاسدين المتعاملين معه في إمبراطوريته المالية داخل استثمارات الكنيسة؛ لذلك فكر أن يكون له جذرًا داخل هذه المنظومة الكنسية، فلم يكن أمامه إلا التضحية بابنه الوحيد خريج إدارة الأعمال مكرم.

قرر أن يلحق ابنه مكرم بسلك الكهنوت داخل الدولة الموازية حتى يزيد من سيطرته وبسط نفوذه على هذه الإمبراطورية، وتعامل مع الموضوع بمنطق إنشاء أذرع خاصة به يثق فيها داخل هذه المنظومة المتشابكة المعقدة، وكان هذا القرار على غير رغبة من مكرم المسكين الذي كان يحلم بتكوين حياته الخاصة والزواج من ليليان حبيبته وتكوين أسرة.

اصطدمت رغبة إسكندر بزوجته في البداية، التي اعترضت اعتراضًا شديدًا وهددت باللجوء للكنيسة لكي تمنع ما يفكر فيه؛ حيث إنها كانت

تخطط لحياة مكرم الشخصية على حسب ما يهواه ابنها الوحيد المدلل، ولكن إرادة إسكندر كانت فوق الجميع، فكيف تشكو أحد رجال الكنيسة المقربين للكنيسة نفسها بل واحد المتحكمين فيها؟ فلم يكن أمامها إلا الرضوخ للأمر الواقع وقلبها يحترق على ابنها الذي خطط له أبوه الالتحاق بأحد الأديرة ليعيش حياته راهبًا منقطعًا عن الدنيا في الظاهر أمام الناس ولكنه من خلال نفوذ والده داخل الكنيسة كان يستطيع وضع ابنه في المكان الذي يريده هو حتى يراعي مصالح والده من الداخل، ولكن توسلات زوجته له أن يكتفي فقط أن يكون ابنها كاهنًا وليس راهبًا جعلته يغير خطته وترتيباته مظهرًا لزوجته أنه لم يشأ حرمانها من ابنها الذي كان سينقطع عن الدنيا وسيجعله كاهنًا فقط يبيت في فراشه حتى لا تحرم أمه من رؤيته.

وما بين إسكندر وزوجته تحدد مصير مكرم دون أي تدخل منه وهو صاحب الشأن، واضطر للرضوخ لرغبة والده، ولكن كان رجاؤه الوحيد منه أن يتركه يتزوج ليليان ثم يسلك حياة الكهنوت بعدها، حيث إن قواعد الكهنوت تسمح للمتزوج أن يصبح كاهنًا، ولكنها تمنع وتحرم على الكاهن الأب أن يتزوج بعد ترسيمه، ولكن أباه رفض هذا الطلب منه؛ حيث إن الوقت لم يكن في صالحه بعد أن رتب كل شيء، وكان مصير مكرم هو الحرمان الأبدي من محبوبته ليليان التي ستتحول فور ترسيمه إلى إحدى بناته في الكنيسة، حيث تعتبر كل بنات الكنيسة بناتٍ لكل الكهنة ولا يصح أن يتزوج الأب من ابنته.

يمر هذا الشريط باستمرار أمام عيني مكرم المسكين، ويستعرضه دومًا كلما خلا إلى نفسه، ويتذكر ما فعله به أبوه قاسي القلب، الذي لم يراع قلب ابنه المكسور بفعلته هذه، ويتحسر مكرم على حبيبته ليليان التي يتابع أخبارها من بعيد حتى يطمئن عليها وهي لا تعلم عنه شيئًا.

لا تستطيع أن تفرق بين زخات الماء المتساقطة على جسد مكرم الذي انسحب منه اللاهوت وتحطم فيه الناسوت، ودموع عينيه المنهمرة بعد أن يختلط الاثنان ببعضهما من شدة السيل المنحدر من عينيه تحسرًا على حاله الذي لم يرسم فيه أو يحدد أي شيء لنفسه، وإنما كان ضحية طمع أبيه الذي استغل نفوذه ضد ابنه وليس لصالحه كباقي الآباء.

يخرج مكرم أخيرًا من الحمام وهو يتمنى في كل مرة ألا يخرج ويكون اغتساله هو (غسله) لكي يستريح من الدنيا لعله يلتقي ليليان في عالم أفضل، وهل تستحق صاحبة هذا القلب إلا الملكوت؟

ينظر لملابس الكهنوت مرة أخرى ثم ينظر إلى السماء بقلب مكلوم وعيون تتحجر فيها الدموع، وكأنه يناجي الرب بما في قلبه، ولكنه يستحيي أن يطلبه حتى لا يكون معترضًا على خدمته، وهو الذي لا بد أن له رأيًا وحكمة في هذا الاختيار.

يرتدي ملابسه ويخرج بخطوات بطيئة ثقيلة وهو يعلم أنه اليوم مبعوث من الكنيسة لمقابلة ذلك الملعون الذي حرمته الكنيسة، ومع ذلك يصر على أفعاله محاولًا تقديم النصيحة التي كالنقش على الماء مع من هم مثل هذا اللعين، ولكنها إرادة الآباء والكهنة.

***

– هل تود أن أقرأ لك الفنجان؟

ضحك أبي عندما سألته هذا السؤال ونحن نجلس على قهوة محمد علي في درب الأتراك في مدخل منطقة بيت زينب خاتون على يسار الجامع الأزهر، حيث تجلس معطيًا ظهرك لجدار الجامع الأزهر بجوار نقطة الشرطة وأمامك مدخل قهوة محمد علي العتيقة الجميلة.

بعد وصولنا للقاهرة ذهبنا إلى شقة العائلة في شارع الأزهر، وبعد فترة نوم القيلولة كان لا بد لنا من جولة في قاهرة الخديوي المعز، حيث يستعيد عمر أفندي ذكرياته القديمة مع عشقه الأول.

تناولنا طعام الغداء تقريبًا في السابعة مساءً في مطعم العهد الجديد الذي يقع في بداية شارع جوهر القائد من ناحية المشهد الحسيني، وبعد أداء صلاة العشاء في الأزهر كان لا بد لنا من كوب شاي بعد هذا الغداء المتين، ولم يكن هناك مانع من فنجان قهوة صغير بعدها.

- إنك تذكرني بجدتك الحاجة فاطمة رحمها الله؛ ففنجانها "لم ينزل الأرض" أبدًا.

- وهل تراني ورثتُها في شيء؟

- بل ورثتَها في كل شيء، "حتى فنجانك دائمًا ما يتحقق مثلما كان يتحقق فنجانها".

عندما تأتي سيرة فنجان الحاجة فاطمة - رحمها الله - فمن المفترض أن تضرب له 21 طلقة في الهواء احترامًا له، فكم قدم من البشريات وكم كشف من المحبطات.

لم تكن ذكريات أبي مع فنجان والدته سعيدة دومًا؛ فقد كانت هناك بعض الذكريات السيئة التي كلما تذكرها تمتم لنفسه قائلًا:

- سامحكِ الله يا حاجة فاطمة.

وكأن الحاجة فاطمة هي المتسببة فيما حدث أو لم يحدث لوالدي.

في هذه الأثناء تنامى إلى مسامعنا من داخل القهوة صوت لأغنية جديدة للسيدة فيروز، حيث كانت إنتاج هذا العام (1991م)، ما إن استمع أبي إلى كلماتها حتى انتبه بكل حواسه وليس حاسة السمع فقط.

كانت كلمات الأغنية مميزة جدًّا وتحكي حكاية شعرت من رد فعل والدي وتعبيرات وجهه وتفاعله الحزين معها أنه هو بطل هذه الأغنية التي كانت كلماتها تقول:

تذكر آخر مرة شفتك سنتا

تذكر وقتها آخر كلمة قلتا

وما عدت شفتك وهلأ شفتك

كيفك إنت ملأ إنت

شعرتُ أن هذه الأغنية قد أعادت أبي لسنين طويلة مضت فهي من كلماتها يتضح جليًّا أنها تحكي عن لقاء عاشقين قديمين فرق بينهما الزمن، ورأت الحبيبة حبيبها بعد أن أخذ منه الدهر ما أخذ وأعطى له ما أعطى.

احترمتُ مشاعره في التوحد والانسجام مع هذه الأغنية التي لولا جلوسه مع ابنه الصغير لما تمالك دموعه أو سيطر عليها. كان أبي من هذا النوع من الرجال الذي لا يبخل بمشاعره أبدًا على أي امرأة يحبها، ولعل هذه الكلمات التي سمعها قد ذكرته بشيء مضى زمنه ولكن لم تمض آثاره في قلبه بعد، وكنت أعلم جيدًا أنه سيحكي لي سبب تأثره الشديد بهذه الكلمات التي سمعها لتوه. بعد أن انتهت الأغنية فوجئت بأبي ينادي على صبي القهوة ويسأله:

– ما اسم هذه الأغنية التي غنتها السيدة فيروز حالًا؟

كان يبدو على الصبي جهله بفيروز أصلًا، فما كان منه إلا أن أجاب والدي:

– هذا شريط جديد نسيه أحد زبائن القهوة من يومين بعد أن أعطاه لنا

كي نشغله أثناء جلوسه.

– هل يمكنك أن تأتيني بهذا الشريط لأرى اسمه؟

ذهب صبي القهوة وأحضر الشريط لوالدي الذي التقطه منه بشغف شديد وقرأ بياناته، وبدا من شكله أنه ينتوي شراءه من أقرب بائع كاسيت ليحتفظ به، أو بمعنى أدق أن يحتفظ بهذه الأغنية التي تحتفظ بداخل كلماتها على ذكريات مهمة جدًّا لوالدي.

بعد انصراف الصبي سرح أبي وفرد قدميه، ورجع برأسه إلى الخلفساندًا إياها على يديه اللذين شبكهما خلف رأسه، وصمت لدقائق وأنا أتابعه وأعلم أنه سيبدأ في الحكي فور انتهاء هذه الحالة الجميلة التي يعيشها.

– هل تعلم لماذا جئت بك إلى هذه القهوة تحديدًا رغم أن المنطقة تعج بالكثير من المقاهي الأنظف منها والأشيك؟

فاجأني أبي بهذا السؤال، فنظرت إليه صامتًا دون أن أجيب لكي لا أقطع عليه حبل أفكاره التي بدأت توًّا، فأكمل هو حديثه:

– هذه القهوة جلستُ فيها مع بطلة هذه الأغنية التي سمعناها توًّا.

– معقول؟ جلست هنا مع فيروز شخصيًّا؟

نظر إليَّ أبي للحظات ثم انفجرنا في الضحك معًا في نفس الوقت، وبعد أن هدأت نوبة الضحك استكمل أبي حديثه:

– هنا جلستُ مع حسناء، تلك الفتاة الشامية التي لو شبهناها بالقمر لأجحفناها حقها، قابلتُها للمرة الأولى وأنا في الثلاثين من عمري؛ أي بعد أن أنجبتُ أخاك حسين بعشر سنوات كاملة، وساعتها وددت لو لم أكن متزوجًا.

تنهَّد أبي تنهيدة عميقة سمعتُ فيها صوت قلبه وليس صوت الزفير الخارج منه، ونظرت إليه وكلي شغف لسماع قصة هذه الحسناء التي أسرت قلب أبي منذ أكثر من ثلاثين عامًا ولم يستطع تحريره منها حتى الآن، إنها مدة طويلة جدًّا.

– دائمًا ما كان شارع عماد الدين هو سر سعادتي وشقائي، ففيه قابلتها للمرة الأولى في إحدى حفلات السينما عن طريق أصدقاء مشتركين بيننا، لفتت نظري من اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، وخفق قلبي وانتفض حتى شعرت أنه غادر صدري وذهب ليجلس بين يديها يتسول عطفها، كانت في زيارتها الأولى للقاهرة في رحلة مع أصدقاء لها في ذكرى الوحدة بين مصر وسوريا، ولحظي أنني كنت أعرف أحد الأشخاص الذين كانوا معها، ولم تكن تلك زيارته الأولى في مصر، أحسست ساعتها أن هناك شيئًا مشابهًا لما حدث بداخلي قد حدث معها، إنه العشق من النظرة الأولى.

تعددت لقاءاتنا في هذه الزيارة، وكنت أفعل معها ما لم أفعله في مراهقتي من محاولة عرض خدماتي عليها بشتى السبل حتى أسترضيها، على قدر قصر المسافة الزمنية التي عرفنا بعضنا فيها على كان عمق وعنف الحب الذي جرفني نحوها، وكنت أظن أنها تبادلني نفس هذا الشعور، وعشت معها أجمل لحظات عمري التي لم أشعر مثلها في حياتي أبدًا.

لم أصدق نفسي عندما طلبت مني يومًا أن أرافقها لزيارة منطقة الحسين التي طالما سمعتْ عنها وكانت تتمنى زيارتها، أحسست ساعتها بشعور الفائز بملك الدنيا كلها الذي لم يكن يساوي لحظة في قربها.

نزلت بها إلى الحسين ودعوتها على شرب كوب تمر هندي من شربتلي الأبتي، كانت تشربه للمرة الأولى في حياتها، وأوشكت أن ترفض تكملة شربه لولا أنها تحرجت مني، مهما وصفت لك إحساسي عندما حضنت

يدي يدها وكادا أن يصبحا كيانًا واحدًا فلن أستطيع أن أوفيه الوصف، فقط أستطيع القول إني تمنيت أن يتوقف بي الزمن وأنا أمسك بيدها خائفًا عليها أثناء السير في الشارع، وفجأة عرضت عليها عرضًا ظننتها سترفضه؛ فقد سألتها إن كانت تحب الجلوس على مقهى بلدي فوجدتها رحبت بشدة على شرط ألا يكون مقهى نجيب محفوظ الذي يأتي إليه والدها باستمرار، خصوصًا أنه جاء إلى مصر بعد وصولها بيومين، وتخشى أن تقابله هناك أو أن تقابل أيًّا من أصدقائه فيحكي لأبيها أنه رآها.

جئت بها إلى هنا وجلست معها في هذا المكان بالضبط، وخشيت أن أطلب لها شيئًا مكشوفًا حتى لا تصاب بالضرر، فطلبت لها زجاجة مياه غازية بحيث تكون مغلقة جيِّدا منعًا لتسرب التلوث إليها، ومن شدة حرصي عليها قمت بغسل أعلى الزجاجة بالماء حتى لا تكون هناك أي أتربة عالقة، وفوجئت برد فعلها الطفولي من هذه الحركة وفرحت بها بشدة.

ولأن الأوقات الجميلة تنتهي بسرعة انتهت إجازتها فجأة دون حتى أن أستطيع توديعها؛ فقد ظهرت فجأة في حياتي كالحلم، واختفت فجأة أيضًا كالحلم عندما ينتهي باستيقاظك، وظللت لأيام أبحث عنها عَلِّي أجدها، ولكن دون جدوى، حتى إنني توهمت أنها من الحور العين جاءت إلى الدنيا زائرة لتقابلني وتعلقني بها، ثم عادت إلى مكانها الطبيعي مرة أخرى، وساعتها تمنيت لو كنت غير متزوج ولا مسئول حتى أسافر وراءها بلدها سوريا لكي أبحث عنها وأعيش بجوارها حتى لو كنت خادمًا لها أعد لها إفطارها وكوب الشاي باللبن في الصباح الذي حدثتني طويلًا في لقائنا القصير عن عشقها له، وتبدَّل حالي وتغيرت نفسيتي فعشت شاردًا حتى لاحظ الجميع عليَّ هذا الشرود غير المنطقي في نظرهم، ولكنه عندي هو عين المنطق.

لاحظت جدتك الحاجة فاطمة ما ألمَّ بي، وشعرت بفطرتها أن داء العشق

قد أصاب ابنها الوحيد، ولأول مرة أكره فنجان جدتك فاطمة التي رأت فيه ما لم يسرني.

- ماذا رأت؟

تنهَّد أبي وهو يتذكر هذه النبوءة الحزينة وقال:

- أخبرتني جدتك أن من تشغل بالي ليست من نصيبي، فلا ينبغي أن أكون كمن يحرث في ماء البحر، ولكني لم أقتنع وظللت سنين متعلقًا بالأمل أن أجد هذه الحورية في زيارة من زياراتها للأرض لأعاتبها على ظهورها المفاجئ في حياتي.

تأملتُ وجه والدي الحزين وهو يحكي، ولا أنكر أنني تأثرت له ورق قلبي مع أنه من المنطقي أن يحدث عكس ذلك عندما يحكي لي عن عشقه لامرأة غير أمي، ولكني وجدت نفسي متعاطفًا مع قضيته كمن يشاهد فيلمًا رومانسيًّا ويتفاعل مع أحداثه ويتمنى أن تتذلل كل العقبات أمام البطل والبطلة حتى يصيرا لبعضهما في النهاية.

- ولكن ما علاقة حسناء بكلمات الأغنية؟

سألت والدي الذي ابتسم وشرب بعضًا من كوب الماء الموجود أمامه حتى ارتوى عشقًا من ذكر حسناء، وأكمل حديثه:

- مرت سنوات كاملة من بحثي المستمر حتى إنني كنت أَمُرُّ بنفس الأماكن التي مررتُ بها معها عَلِّي أقابلها ولو صدفة حتى تسرب اليأس إلى قلبي وانشغلت وتهت في الحياة حتى أوهمت نفسي بنسيانها، وبعد حرب أكتوبر بحوالي شهر فوجئت بخطاب أتاني على عنوان القاهرة يعطيني إياه عم إسماعيل الذي استلمه، وعندما فتحت الخطاب كانت المفاجأة المزلزلة، لقد كان من حسناء.

تعجبتُ بشدة، ونظرت لوالدي فاتحًا فمي للسؤال، ولكنه عاجلني:

– نعم من حسناء، واستغربت عن كيفية وصول هذا الخطاب، فتذكرت أنني عندما قابلتها كنت قد كتبت لها عنوان بيت القاهرة ونسيت أني أعطيته إياها، كانت تهنئني بالانتصار في الحرب وتخبرني بأنها سوف تأتي إلى مصر في شهر ديسمبر وتودُّ رؤيتي، ووقتها انتابني شعور مختلط من الدهشة والفرحة والزهد والشوق، ولم أستطع التفكير والتركيز من هول المفاجأة، وعندما وجدني عم إسماعيل على هذه الحال بادرني قائلًا:

– يبدو أن الخطاب يحمل ما لا طاقة لبشر باستيعابه.

هززت رأسي مصدقًا على كلامه، فابتسم قائلًا في خبث وحكمة:

– لا ترفض رسالة القدر الموجودة في هذه الرسالة.

وكأني كنت أنتظر منه هذه النصيحة، فأمسكت ساعتها بالخطاب وبحثت عن عنوان المرسل وكتبتُ لها ردًّا على الخطاب في كلمتين فقط (قلبي ينتظرك)، وقمت بإرسال الخطاب، ومرت الأيام وكلما مر يوم زاد خفقان قلبي شوقًا للقاء الثاني معها.

***

دق باب الشقة في الثانية بعد منتصف الليل، فاستيقظ شيحة من نومه مندهشًا؛ فزوار الفجر – سمة هذا العصر – لا ينبغي أن يذهبوا لمن هم مثله.

فتح شيحة باب الشقة، ووجد بالفعل أن من ينتظره أحد زوار الفجر من زملائه في المباحث، الذي بادره قائلًا:

– لا تؤاخذني يا شيحة، فلم يرسلني إليك في هذا الوقت إلا الشديد

القوي.

نظر إليه شيحة بعين يملؤها النعاس والغضب على هذا الاستدعاء المفاجئ في هذا التوقيت وفي منتصف أيام إجازة زواجه، ولكنه فطن إلى أن أمرًا جللًا هو الذي جعل مأمور السجن يرسل إليه، فوصف الشديد القوي لم يكن إلا كناية عن مأمور سجن القلعة، وفطن شيحة إلى أن هناك مهمة محددة لا يثق المأمور بأحد للقيام بها إلا هو.

بعد أقل من نصف ساعة كان شيحة يلقي التحية العسكرية على المأمور داخل غرفته في السجن، وعندما علم شيحة أن المأمور في السجن حتى هذه الساعة المتأخرة تأكد أن الموضوع خطير.

انتبه المأمور إلى شيحة الذي يقف أمامه، فهز له رأسه مبتسمًا:

– حمدًا لله على السلامة يا عريس، لعل العروس غاضبة منا الآن.

ابتسم شيحة في فخر واعتزاز:

– خدمة الوطن أهم من العروس يا سيادة المأمور.

هز المأمور رأسه إعجابًا:

– حسك الوطني هذا هو ما شجعني على استدعائك من إجازتك.

شعر شيحة بالفخر الشديد لكلمات المأمور، الذي ما لبث أن أكمل حديثه بعد أن قام من أمام مكتبه وظل يدور في الغرفة ويحدث شيحة من خلف أذنه وكأنه الشيطان يوسوس له:

– تعلم يا شيحة أن السجن هنا يأتي إليه الأشقياء من أعداء الوطن.

أجابه شيحة دون أن يلتفت، وظل واقفًا في وضع الانتباه مثل الصنم:

– أعلم يا فندم.

أكمل المأمور دورانه حول شيحة، واستمر يبث سمومه في رأسه:

– وتعلم أيضًا أن هناك سجينًا إخوانجيًّا خطيرًا تم استجوابه في غرفة الشواية* وكاد أن ينصهر من درجة الحرارة ومع ذلك لم نخرج منه بمعلومة واحدة عن باقي زملائه من أعضاء التنظيم المسلح، فتم تعليقه في غرفة التعليق** وأيضًا لم يستجب.

كان شيحة يستمع إلى كلام المأمور دون أن يصدر أي رد فعل، حتى إن من يراه يظن أنه مات على وضعه هذا، ولكنه في الحقيقة لم يكن من الأشخاص الذين يعطون أي رد فعل لمن يتحدث إليه، ولكنه كان يخزن كل كلمة يسمعها من المأمور ويشحن نفسه بالغل والكره لأعداء الوطن الذين يتحدث عنهم مأمور السجن، مع أنه في الحقيقة لم يكن في حاجة لأي شحن نفسي أو عاطفي، فشيحة لم يكن إلا آلة قتل متحركة يهوى القتل كما يهوى السكير كأس الخمر، وعندما تشتاق نفسه للقتل كان يفعل كالمدمن الذي تتأخر عنه جرعته فيصاب بحالة هياج نفسي صامت لا يظهره لأحد، وينتظر الأوامر بالقتل بفارغِ الصبر؛ ولذلك تم اختياره من ضمن زمرة التعذيب التي تجولت على السجون الحربية كلها، وذاع صيته بين قادة السجون الحربية في فترة الخمسينيات والستينيات، حتى إن حمزة البسيوني *** كان يتحدث في جلساته الخاصة عن تعجبه من التكوين النفسي لشيحة الذي كان يعتبره أكثر إجرامًا منه هو شخصيًّا.

أكمل المأمور حديثه الخبيث الذي كان يظن أنه يوجه به شيحة توجيهًا غير مباشر مع أنه لو أمره بالقتل المباشر ما تردد، بل على العكس كان من الممكن أن يخر له ساجدًا وشاكرًا على هذا الجميل.

وضع المأمور كفه على كتف شيحة وهو واقف خلفه، ثم بأسلوب

سينمائي قال له:

– يبدو يا شيحة أن هذا السجين الخطير قد يئس من حياته وأن ساعته قد حانت.

هنا فقط استدار شيحة بعينين تلمعان ناحية المأمور، وابتسم في خبث واضح رآه المأمور في عينيه، فأشار له المأمور برأسه كأنه يعطيه إشارة التنفيذ.

قام شيحة بتحية المأمور وانصرف ممنيًا نفسه بليلة من أفضل لياليه في الحياة.

خرج من مكتب المأمور يتجول في طرقات سجن القلعة صامتًا في تركيز، تفوح منه رائحة الموت يشمها بسهولة كل ساكني الزنازين.

يحتوي سجن القلعة على اثنتين وأربعين زنزانة مقسمة على قطاعين أحدهما شرقي والآخر غربي، كما أنه يحتوي على ثماني غرف تعذيب يحفظها كلها شيحة عن ظهر قلب، وكيف لا وهو الأقدر داخل سجن القلعة على إدارة هذه الغرف على أكمل وجه؟

وصل الموت متمثلًا في شيحة أخيرًا إلى زنزانة العريس وفتحها ببطء ووقف على باب الزنزانة صامتًا غاضبًا تفوح منه رائحة الدم الذي لم يسل بعد.

نظر المعتقل الهزيل واهن الجسد من أثر التعذيب إلى وجه شيحة المتجهم فعلم أن لحظته قد حانت، فتمتم بالشهادتين وتحوقل وحسبن على قاتله موجهًا كلامه إلى شيحة:

– حسبي الله ونعم الوكيل.

ما إن سمع شيحة الحسبنة بأذنه حتى انقضَّ كالثور الهائج على السجين وقبل أن يدك عنقه قال له:

– لن ينفعك من تشتكيني إليه، ولو نزل إليك الآن ما أنقذك مني.

كان شيحة يتميز بأسلوب منفرد في القتل، فلم يكن يحب إسالة الدماء حتى لا تتنجَّس ملابسه بدماء أعداء الوطن، فكان يمسك ضحيته من رأسه ويضعها بين يديه اللتين كانتا تشبهان وابور الزلط في تأثيرهما على الدماغ المسحوقة بينهما، ويضغط عليها ضغطًا شديدًا حتى تخرج عينا الضحية من مآقيهما، وكان يضرب على أذني الضحية بشدة حتى يسيل الدم من أنفه ثم ينهي مهمته بأن يرفع الضحية من رأسه إلى أن تقترب رأسه من ملامسة السقف ثم يهوي بجسده فجأة إلى أن تكون رأس الضحية بمستوى نصفه الأسفل، وساعتها يقوم شيحة بليِّ رقبته حتى يسمع صوت عظامها تتحطم معلنة وفاته. يخرج شيحة بعد أداء مهمته منفضًا يديه كأنه فعل شيئًا بسيطًا يستطيع أي شخص أن يفعله، ذاهبًا إلى فناء السجن مخرجًا علبة سجائره من جيبه ليشعل سيجارة ينفث دخانها في هدوء غريب مستمتعًا بكل نفس يخرج منها إلى صدره كأنها أنفاس ضحاياه التي يسلبها منهم لتضيف إليه عمرًا جديدًا إلى عمره الذي كان يحسبه بعدد من قتلهم وليس بعدد أيامه.

كان شيحة يرى نفسه إلهًا ً يهب الحياة لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء، ولكنه كان يرى نفسه إلهًا صاحب اتجاه واحد فقط وهو سلب الأرواح وليس منحها.

***

– قبل موعد وصولها لمصر بأسبوع وصلني خطاب منها يحدد موعد الوصول واسم الفندق الذي ستكون نزيلة فيه، وحددت أيضًا الموعد الذي سأذهب إلى الفندق لأسأل عنها موظف الاستقبال.

منذ استلامي للخطاب انقطعت عن الدنيا بأكملها، وظللت كالتائه في الصحراء، الذي ينتظر موعد ظهور الماء، وكنت أذهب يوميًّا إلى الفندق المذكور أنتظر أمامه بالساعات مع أني أعلم جيدًا الموعد الذي أكدت عليه، ولكني كنت أمني نفسي بأنها قد تأتي مبكرًا، ولعلي أراها وهي تعبر الشارع أو تنزل من التاكسي أو أي شيء آخر.

عشت شعورًا غريبًا على رجل تسلل الشيب إلى رأسه وعبر جسر الأربعين من عمره، لكنه القلب الذي لا نملك عليه سلطانًا ويحركنا كالأحجار على رقعة شطرنج العشق، ولا يعرف للحب عمرًا أو شكلًا أو وطنًا، أنتظر حسناء، تتصارع الأفكار في رأسي وتدور الأسئلة فيها كرحى الحرب التي ما تلبث أن تهدأ حتى يشعلها الأغبياء، وهل بعد العشق غباء؟

كلما كانت دقات قلبي تتسارع كنت أعرف أن موعد وصولها قد اقترب، إلى أن حان الوقت الموعود في تلك الليلة المباركة من عمري، حيث كنت مستعدًّا من قبلها بأكثر من خمس ساعات؛ فقد تأنقتُ وذهبتُ إلى شارع طلعت حرب منتظرًا الموعد في قهوة ريش وعيني لا تفارق ساعة يدي، حتى إذا كان الوقت قبل الموعد بنصف الساعة انتفضت من مكاني وترجلت قاطعًا شارع طلعت حرب وميدان التحرير وصولًا إلى فندق شبرد الذي كانت تنزل فيه حسناء.

كنت أقف أمام موظف الاستقبال في الموعد بالضبط دون تأخير، وعندما هممت بسؤاله عن غرفة حسناء فوجئت بمن يضع يده على كتفي، ولحظتها لم تتحمل عيناي نور وجهها الساطع أمامي، وكاد قلبي يتوقف من فرط السعادة الغامرة التي لو ألقيت ساعتها من فوق كوبري قصر النيل لوسعت المصريين جميعًا وجعلتهم في سعادة أبدية فور شربهم لماء النيل.

لم يستطع لساني النطق؛ فقد توقفت عيناي على وجهها أعوض حرمان

السنوات الفائتة من طلتها، وظللت هكذا لأكثر من خمس دقائق وهي تبتسم من ردة فعلي، حتى إن منظرنا كان ملفتًا لولا أن تداركت حسناء الموقف وأنهت هذه الوقفة الصامتة قائلة:

- كيفك عمر؟

كأني أسمع اسمي لأول مرة في حياتي، وقفت لا أستطيع الرد كالصبي المراهق الذي تبتسم له بنت الجيران التي يتابعها في الغدوة والروحة ممنيًا نفسه بمجرد نظرة منها، فإذا بها تبتسم وتحقق له أضعاف ما كان يتمناه.

بعد ساعتين قضيناهما في كافيتريا الفندق كان أغلبهما صمتًا كنا نقف على كوبري قصر النيل ننظر نحن الاثنان للنيل في صمت حتى تحدثنا أخيرًا وبدأ العتاب:

- لماذا اختفيتِ كل هذا العمر؟

- لماذا اختفيتُ أم لماذا ظهرتُ ثانية؟

- عندما تغيب الشمس خلف الغيوم يفتقدها الناس وعندما تعود يفرحون بها ولا يلومونها على الظهور، ولكن عتابهم لها يكون على التأخير على من يحتاجونها ولا يستطيعون العيش بدونها.

شعرتُ بتأثير هذه الكلمات على حسناء، التي ابتسمت في فخر شديد، حتى إنها اقتربت مني أكثر واحتضنت يدها يدي، وساعتها تذكرت تلك اللحظة الأولى، إنها نفس اليد، ما زال ملمسها كما هو وما زالت تلك الحرارة الحانية تنبعث منها، لم تغيرها السنون مع أنها غيرت في شكل حسناء، حيث بدت أكبر سنًّا ولكن من منا بمنأى عن عبث الزمن في شكله؟

- أشتاق إلى كوب تمر هندي في الحسين.

سمعت هذه الكلمات التي وقعت في قلبي كالثلج البارد في حر الصيف، وفي خلال أقل من نصف ساعة كنا نحتسي كوبين من التمر هندي عند نفس الشربتلي (الأبتى) بجوار المشهد الحسيني، وبعدها بدقائق كنا هنا في نفس هذا المكان، ولعلها نفس الكراسي التي نجلس عليها الآن.

– بعد آخر مقابلة لنا عدت إلى الفندق الذي نزلنا فيه، وفوجئت بوالدي يواجهني بما وصله من أحد معارفه الذي رآنا مع بعضنا، ويبدو أننا كنا منسجمين أكثر من اللازم؛ مما أثار حفيظة والدي عند سماعه للوصف من صاحبه الذي وضع حبكته الدرامية الخاصة في الحديث؛ مما جعل والدي يستشيط مني غضبًا ويقرر سفري في اليوم التالي مباشرة؛ لذلك لم أستطع أن أودعك؟

سمعت هذا الكلام من حسناء وفي قلبي جرح وفي عيني تساؤل، ولأنها ذكية فقد لمحت التساؤل في عيني وأجابت عنه قبل أن أنطقه:

– خلال كل هذه السنوات لم أستطع التواصل معك مع أن عنوانك معي؛ لأن أبي أصر على زواجي فور عودتي إلى سوريا.

– هل تزوجتِ؟

وقع الخبر على رأسي كالصاعقة وإن كنت قد توقعته بل وجزمت بحتمية حدوثه من قبل من ضمن الأسباب التي كنت أسردها لنفسي لتأخرها واختفائها، ولكنني حزنت جدًّا وكأني لم أتوقعه.

– لقد كنت أنت أيضًا متزوجًا عندما عرفتك، ومع ذلك أحببتني، ولم أمنع قلبي من الذوبان فيك.

– وهل أنجبتِ؟

– أنجبتُ ولدًا سميته عمر لتعرف أنك لم تغب عن ذهني لحظة.

لم أصدق نفسي مما سمعته، ووددت لو شاركني العالم كله في فرحتي، ولكن قطع فرحتي تساؤل آخر لمحته أيضًا في عيني فسارعت بالإجابة:

– والده توفي لذلك ظهرت مرة أخرى في حياتك.

– أنا أيضًا أنجبت بعد حسين ...

قاطعتني قائلة:

– أنجبت عائشة وعبد العليم.

أصبح الذهول ملازمًا لي في جلستي معها، ولم تسمح لي بالتفكير في السؤال فبادرتني:

– لم تنقطع أخبارك عني؛ فقد كنت أتابعك دون أن تعلم.

لم أستطع الرد ولا حتى التفكير في أي تساؤل، فلم أشأ أن تضيع مني هذه اللحظات الفريدة فيما لا يفيد، خاصة أنني كنت الظمآن الذي يريد الارتواء من بحر عينين حنونتين هما عينا حسناء.

تواعدنا بعد هذه المرة كثيرًا، وفي كل مرة نتقابل كان الود يتجدد ويتدفق كينبوع الماء المتفجر الذي لا تستطيع أي قوة احتواءه أبدًا.

– لا أنكر أنني ما زلت أتمناك زوجًا لي؛ فقد كنت وما زلت الحبيب الأول والأساسي والأخير، ولم أحب قبلك ولن أحب بعدك.

– ثم؟

– لندع الله يحكم لنا في الوقت الذي يريده هو ولا تدري ماذا يكون غدًا.

كان ردها دبلوماسيًّا يمكنك أن تسميه قبولًا مغلفًا بالرفض أو رفضًا

مغلفًا بالقبول، في كل الأحوال كان ردها غامضًا مثل كلام الدبلوماسيين والمفاوضين الذين لا يحبون إعطاء الآخرين وعودًا هم أدرى الناس أنها لن تتحقق.

افترقنا بعد هذه الليلة ربما للمرة الأخيرة، فأنا لا أعلم إن كنا سنلتقي ثانية أم أنها كانت اللقيا على أرض السراب، افترقنا وأنا أعلم أو متأكد أنها تتابع أخباري وأنا لا أعلم عنها شيئًا.

تأثرت جدًّا بكلام والدي، وحبست دموعي بالكاد من فرط تأثري بهذا الرجل صاحب المشاعر الفياضة الذي ما زال قلبه ببكارته التي خلق بها لم يحدث له أي تغيير، يحب وكأنه يحب للمرة الأولى بل ويخلص في حب امرأة قاسية وإن كانت تحبه وإن كانت تعشقه.

– هل ما زلت تتمنى لقاءها؟

– لا أستطيع النفي ولا أستطيع الإثبات.

– لكنها كانت قاسية جدًّا عليك.

– ستتعجب لو قلت لك إني ألتمس لها الأعذار وإن كانت غير معذورة.

– يا لك من مسامح!

– يا لي من مغفل!

ضحكتُ وضحك أبي، وصمتنا للحظات قطعها والدي بحكمة من حكمه قائلًا:

– رغم قصر معرفتي بها ورغم كل ما فعلته معي من قسوة، ولكن شيئًا ما في القلب يبقى.

– هل تنطبق عليها قاعدة قلبك الذي يحتوي غرفة لكل امرأة تحبها؟

نظر لي أبي وابتسم ابتسامة صافية وأجابني قائلًا:

- بل لها قصر كامل منفصل في قلبي وليس مجرد غرفة.

صمت والدي بعدها ونظرت إليه معجبًا به أيما إعجاب، واستمر صمتنا لدقائق كأنه كان يسترجع فيها لحظات خاصة به مع حسناء في هذا المكان، وتذكرت جملته الجميلة:

- ولكن شيئًا ما في القلب يبقى.

***

لم يكن هناك ما يضايق الصول شيحة الذي أحيل للتقاعد لبلوغه السن القانونية أكثر من سماع صوت الأذان يرفعه إمام ومؤذن زاوية الحارة الشيخ مستور النوري، كان عندما يسمعه كأنه يسمع صوت الموت ينادي عليه، وكيف لا وهو من ظل أعوامًا عديدة يعادي كل من يتَّسِمُ بسمت الدين؟

ففي كل أذان يحاول شيحة أن يصم أذنيه، ويسد أذنيه بيديه ويصيح في غضب:

- أخرسوا هذا الكلب.

كان الشيخ مستور النوري من نزلاء سجن القلعة المؤقتين في فترة خدمة شيحة هناك، حيث كان سجن القلعة سجن تحقيقات يمر عليه المعتقلون مرور ترانزيت لانتزاع الاعترافات منهم قبل تحويلهم للسجون الدائمة، وكان الشيخ مستور مرافقًا للشيخ عبد الحميد كشك الذي كان هو أيضًا أحد نزلاء سجن القلعة، وكان لهما نصيب كبير ممن التعذيب على يد شيحة الذي كان يتمنى أن يفتك بهما ويقتلهما؛ فقد كان يكره الاثنين كره أعداء الرسالات لأنبيائهم وكره أهل الباطل لدعاة الإصلاح، ولكن لم يتحقق له ما أراده من قتلهما، وكان دائمًا ما ينعت الشيخ مستور تحديدًا بالكلب؛ فيدعو

الشيخ مستور عليه أن يميته الله ميتة الكلاب وأن يجعله يعوي كالكلاب قبل موته.

من الحظ السيئ لشيحة أن يأتي أكثر من يكرههم في حياته ليصير إمامًا ومؤذنًا لزاوية صغيرة على ناصية حارة نجوى التي يقطن بها شيحة ويعتبر نفسه إلهًا لهذه الحارة ويجب على الجميع أن يأتمر بأمره هو فقط.

حاول كثيرًا إيذاء الشيخ مستور وإبعاده عن الزاوية وعن الحارة بأكملها ولكنه لم يستطع، كان في داخله يخشى الشيخ مستور ويهابه لسبب مجهول، وكلما فكر في إيذائه أو الاقتراب منه يبعد الفكرة عن رأسه بسرعة، وكأن هناك حجابًا يحول بينه وبين هذا الرجل الصالح.

لم يكن هناك بد من التخلص من هذا الرجل، ولكن الفرصة لم تأت بعد، ولعلها تأتي قريبًا.

بعد انتهاء صلاة العصر وخروج الشيخ مستور من الزاوية فوجئ بامرأة خمسينية تنحني على يده مقبلة لها وهي تبكي بكاءً مريرًا؛ فأبعد الشيخ مستور يده عنها واستغفر الله لفعل هذه المرأة التي اعتدلت وعيناها لا تكادان تظهران من انهار الدموع التي تنحدر منها؛ فاستطاع الشيخ مستور تهدئتها:

– اهدئي يا ست وتعشمي خيرًا في رحمة الله.

هدأت المرأة بعد سماعها هذه الجملة، وتوقف بكاؤها ونشيجها وهي تحاول أن تحكي للشيخ مستور أمرها:

– ابني سيضيع مني يا شيخ مستور ... أنجدني.

أشار لها الشيخ مستور بأن تكمل كلامها فأكملت:

– ابني شاب في الثلاثين من عمره، عشقته امرأة تسكن في هذه الحارة، وسحرته حتى صار لها كالخادم المطيع وطلق زوجته وترك أولاده، وامتصت صحته كرمل الصحراء الذي ينكر المطر.

بدا الغضب والامتعاض على وجه الشيخ مستور الذي تعوَّذ بالله من الشيطان وتحوقل:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أكملت المرأة توسلها وحاولت للمرة الثانية تقبيل يد الشيخ مستور:

– لقد وقعت في طولك وعرضك، لن يرد إليَّ ابني إلا أنت يا شيخ.

سحب الشيخ مستور يده للمرة الثانية واعدًا المرأة بزيارتها بعد صلاة المغرب بعد أن عرف منها عنوانها.

لم يكن الشيخ مستور من سكان حارة نجوى، ولم يكن سكان حارة نجوى من رواد زاوية الشيخ مستور، ولم يعرف عن أي منهم أنه يصلي لله ركعة، ولكم حاول الشيخ مستور أن يبصَّرهم ليهديهم الله عن ضلالهم، ولكن هيهات. يعلم جيدًا ما يدور في هذه الحارة من الأخبار التي تأتيه والشكاوى التي يشكوها له المصلون، ويسمع عن عنايات النجسة (هكذا يسمونها) في الحارة لسمعتها السيئة واستخدامها جوارجي الساحر في تنفيذ رغباتها الشيطانية، ولكنه أول مرة يوضع في هذا الموضع أن تأتي إليه شكوى من إحداهن لكي تنجد ابنها من براثن هذه المرأة الفاجرة.

ذهب الشيخ مستور إلى بيت المرأة بعد أن سأل عنها جيدًا قبل ذهابه إليها حتى لا يضع نفسه في موطن شبهة، فعلم أنها امرأة طيبة في حالها وابنها من خيرة شباب المنطقة كان يراعيها ويراعي بيته وزوجته وأولاده إلى أن اصطادته هذه الصيادة فقلبت حياته رأسًا على عقب، وسحبته من دنياه

إلى دنياها، وظلت تمتص منه صحته حتى صار أسيرًا لها لا يستطيع رد طلب لها أبدًا.

عند دخول الشيخ مستور إلى بيت المرأة شعر بالشر الكامن فيه، وأحس بأنفاس الشيطان الذي قيدته عنايات لكي يزينها في عين الشاب كلما احتاجته واشتاقت لمصارعته على الفراش، وأدرك الشيخ مستور أنه سحر شديد من الذي يفرق بين المرء وزوجه، وعلم أن (داسم) شيطان الطلاق قد مر من هنا وخرب هذا البيت لصالح امرأة لا تخشى الله.

أمر الشيخ مستور بطست صغير به ماء نظيف فأتت به المرأة إليه، فوضعه قرب فمه حتى صارت أنفاسه داخل الإناء والماء، وبدأ في قراءة مبطلات السحر من آيات القرآن الكريم وبعض الأوراد والأذكار التي يعرفها ويعالج بها من يحتاج إلى العلاج، وبعد انتهائه أمر المرأة أن تقدم هذا الماء لابنها على جرعات وليس جرعة واحدة، وأخبرها بأنه سيتقيأ ما في بطنه فلا تخف عليه مما ستراه؛ لأن ما يخرج هو ما شربه من الملعونة عنايات وصنعه لها جوارجي.

سمعت المرأة كلام الشيخ، الذي انصرف، وبالفعل استطاعت أن تسقي ابنها هذا الماء على جرعات كما أمرها الشيخ مستور، وكانت النتيجة مذهلة؛ فبدأ الشاب في استعادة وعيه شيئًا فشيئًا دون أن يدري السبب، وانصرف عنه سحر عنايات وجوارجي، ورد زوجته وابتعد عن عنايات بشكل نهائي.

لا تسمح عنايات لأحد أن يخرج من مملكتها دون إذنها أبدًا؛ لذلك جن جنونها بعد ابتعاد هذا الشاب عن تأثير سلطانها عليه، وعلمت أن الشيخ مستور أبطل سحرها، وعندما ذهبت لجوارجي ليجد حلًّا لهذا الموضوع تنصل من عمل السحر، وأخبرها بأن الشيخ مستور هذا محجوب ولا تصلح معه أفعال من تحت الأرض؛ فقررت عنايات أن هذا الرجل لن يردعه إلا كيد

النساء فوق الأرض.

اتفقت عنايات مع شيحة أكثر أهل الأرض كرهًا للشيخ مستور على الإيقاع به والتخلص منه، وهنا وجد شيحة فرصته التي قد لا تأتي مرة أخرى للتخلص من هذا الرجل.

استطاعت عنايات التسلل إلى داخل غرفة الإمام بالزاوية ليلًا، واختبأت بداخلها إلى أن انتهى الشيخ مستور من صلاة الفجر التي لم يحضرها خلفه إلا خمسة أفراد فقط، وعند دخوله إلى غرفة الإمام فوجئ بعنايات واقفة أمامه بملابس النوم.

صدم الشيخ مستور، وقبل أن يحاول تدارك ما يحدث حوله فوجئ بشيحة واقفًا داخل الزاوية على باب غرفة الإمام وخلفه نفر من أهل الحارة، وبدأ شيحة في الصياح والتشهير:

– انظروا لشيخكم الكذاب، انظروا لمن يدعي العفة والشرف، ها هو يختلي بعنايات داخل بيت الله ليفجر بها، هل هذا هو الدين الذي تحمله يا شيخ مستور؟

قبل أن يجيب الشيخ مستور علت أصوات أهل الحارة الذين حضروا الواقعة ما بين شاتم ولاعن، وزاد الصياح حتى اجتمع أهل الحارة والحارات المجاورة على هذا المشهد الذي وجد الشيخ مستور فيه نفسه، وكلما حاول النطق والدفاع عن نفسه زادت الضوضاء حتى لا ينطق.

بدأ السحل وجروه من لحيته حتى طرحوه أرضًا وحملوه وألقوا به خارج الزاوية، وضرب كل منهم الشيخ مستور بما طالته يده، وتزعم هذا المشهد شيحة الذي يحقد على الشيخ مستور حقدًا رهيبًا، وعند بزوغ أول ضوء للنهار كان المشهد مهيبًا في الحارة والشيخ مستور تتلقاه الأيدي وتضربه

الأرجل حتى ربطوه بحبل وسحبوه على وجهه في الحارة حتى دمي وجه الرجل وتمزقت ملابسه، كل هذا وشيحة واقف يشاهد ما يحدث، حتى أدرك أن الشيخ مستور أصبح لا حول له ولا قوة، فكان لا بد من التدخل.

صرف شيحة الناس من حول الشيخ مستور، ووقفوا حوله في حلقة يتوسطها شيحة واقفًا ينظر للشيخ مستور الملقى على الأرض في شماتة واضحة والشيخ مستور ينظر إليه في إعياء شديد لا يستطيع النطق، ولكنه يرفع يده إلى السماء، ولاحظ شيحة ما يفعله الشيخ مستور، فرفع بصره إلى السماء هو الآخر ثم نظر إلى الشيخ مستور متهكمًا:

– لن ينفعك من تشتكيني إليه ولو نزل إليك الآن ما أنقذك مني.

وانقض شيحة على رأس الشيخ مستور يعصرها بين يديه حتى جحظت عينا الشيخ مستور وخرجت من مآقيها وفارق الحياة.

تحققت لشيحة أمنيته القديمة، وعاد إلى هوايته المفضلة في إزهاق الأرواح، وانتقمت عنايات من الذي حرمها من فجورها ... وحلت اللعنة على حارة نجوى.

* الشواية إحدى غرف التعذيب المشهورة في سجن القلعة قديمًا، وكانت أشبه بغرفة الساونا ولكن بدرجة حرارة كبيرة جدًّا تكاد تصهر الجلد.

** غرفة التعليق كان المعتقل يعلق فيها بشكل يؤذي مفاصله ويفسد أعصابها.

***من أكثر الشخصيات دموية في السجون الحربية في فترة الخمسينيات والستينيات، وكان يقتل المساجين بيده، وانتهى به الأمر معتقلًا في قضية انحراف المخابرات الشهيرة بعد هزيمة يونيو 1967م قبل أن يلقى حتفه في حادث سيارة بشع، وقد ألمحت لشخصيته العديد من أفلام السينما في مصر مثل الكرنك وإحنا بتوع الأتوبيس.

الفصل الثالث

حارة نجوى

هذه الحارة لاتستحق أن يأتيها نبى.

– تعددت الأصنام في هذه الحارة ولكن لن يأتيها نبي.

قالها حمدي أبزيمة محدثًا بها نفسه وهو يجلس أمام ماكينة خياطة الأحذية الخاصة به التي يفترش بها الشارع بجوار كرامش البقال أمام حارة نجوى وهو منهمك في تصليح حذاء في يده ويرمق بطرف عينه تلك السيدة التي يبدو من ملابسها الثراء وهي تمر من أمامه تحمل رائحة جوارجي الذي انتهى لتوه من التفحش مواعدًا إياها بلقاء آخر بعد شهر لعمل سحر أسود يقتل ضرتها.

– النافع والضار هو الله.

تحدث بها حمدي بصوت مسموع سمعته المرأة وهي تمر من أمامه، فنظرت إليه وشعرت لوهلة أنه يعرف سرها، وكأن رائحة جوارجي التي تفوح منها تحتاج إلى منجم لكي يعرف ما كانت تفعله.

نظر إليه كرامش البقال الذي يجلس بجوار الدكان الخاص به قائلًا له:

– دع الخلق للخالق يا أبزيمة.

نظر إليه حمدي أبزيمة وضحك بسخرية قائلًا: – يا ليت الخلق يتركون بعضهم للخالق يا عم كرامش.

حمدي ليس مجرد صرماتي، ولكنه فيلسوف، له نظرة خاصة في الحياة وفي البشر، ينظر دائمًا إلى الأمور من زاوية معقدة يرى منها ما لا يراه الآخرون.

يمتهن جراحة الأحذية ... هكذا يسميها ... وليس تصليحها فقط، يتحدث إليها أكثر مما يتحدث إلى البشر، مع أنه في الأصل ثرثار، ولكنه يجد نفسه في هذا العالم مع الجماد أكثر من عالم البشر.

يسكن حمدي أبزيمة بجوار مسجد قايتباي قريبًا من مقابر المجاورين، ولكن يفرش بماكينته هذه أمام حارة نجوى، وذلك لحظه البائس – على حد قوله – ... كان من أصحاب المحلات وله ورشة خاصة به يصنع فيها ما يعرضه في المعرض، ولكن دارت عليه رحى الزمن فطحنته وضاعت منه أمواله، وحرمته زوجته من ابنته الوحيدة فاطمة وهربت بها بعد أن طلقها لاستيلائها على أمواله.

يعيش على أمل رؤية فاطمة ابنته مرة أخرى، ولكنه يعلم أن الله عادل وحرمه من ابنته جزاء عقوقه لوالديه في شبابه وطيشه، ومع ذلك كان يطمع في رحمة الله.

ارتفع صوت النداء لصلاة العصر، وعندها نظر حمدي إلى زاوية الشيخ مستور التي تحولت لمقهى بلدي بعد أن قتله أهل حارة نجوى، تنهد حمدي بحرقة عندما تذكر الشيخ مستور، وترحم عليه:

– رحمك الله يا شيخ مستور وانتقم من قاتليك.

– دع الخلق للخالق يا حمدي وخليك في حالك يا بني.

قالها كرامش وهو يقوم من مكانه يستعد لصلاة العصر، ونظر إليه حمدي أبزيمة ساخرًا من ردة فعله، وعاد لنفسه يتناقش معها.

– يخاف من دعوتي لله على أناس ظالمين، هو يخاف أن يعرف الظالمون أنه كان جليسي وقتما دعوت عليهم مع أن الظالمين لا يأبهون أصلًا بدعوات المظلومين عليهم، فلم يخاف هذا العجوز الذي رأى بأم عينه من شرفة منزله

ما حدث للشيخ مستور النوري بعد صلاة الفجر الذي كان يصليها بنفسه خلف الشيخ مستور؟

بعد قتل الشيخ مستور كان لا بد من تبرير لما حدث، فكانت الحرب الإعلامية من آلهة الحارة الثلاثة (جوارجي وعنايات وشيحة)؛ فقد فتحوا ما يشبه الحوار المجتمعي لإقناع البسطاء بأن الشيخ مستور فجر مع عنايات في بيت الله، والعجيب أن عنايات وهي الطرف الثاني في الموضوع استطاعت أن تقنعهم أن الشيخ مستور كان رجل عيب، والأعجب أنهم صدقوها مع أنهم رأوها في غرفته بالزاوية شبه عارية بإرادتها، ولم تكن عليها أي آثار لمحاولة اغتصاب الشيخ مستور لها، فلماذا لم يحاسبوا عنايات كما حاسبوا مستور على فعلة لم يروه وهو يفعلها أصلًا؟ إن قومنا يرون بآذانهم ولا يستخدمون عيونهم، رحمك الله يا شيخ مستور وانتقم من قاتليك. يؤمن حمدي أن هذه الحارة بها ثلاثة أصنام يعبدهم الناس من دون الله هم جوارجي صنم السحر، وشيحة صنم البطش، وعنايات صنم الفتنة والغواية، ولا بد أن الشيخ مستور كان النبي الذي بعث إلى هذه الحارة ليطهرها من أصنامها، فكان لا بد لهؤلاء الأصنام وسدنتهم أن يتخلصوا من هذا النبي بأي طريقة، إنهم قوم قتلوا نبيهم كما قتل اليهود يحيى وزكريا، ولا بد أن الله سيرسل عليهم العذاب حتمًا ... هكذا تحدِّثنا قصص الأنبياء.

انتهى كرامش من صلاة العصر، وعاد لجلسته أمام الدكان يسرح في ملكوت الله ينتظر الزبائن.

– تقبل الله يا عم كرامش.

قالها حمدي وهو ينظر إلى كرامش.

– منا ومنكم يا بني.

– صحيح يا عم كرامش، لماذا سميت هذه الحارة الملعونة باسم حارة نجوى، ومن هي نجوى؟

سرح كرامش وتنفَّس نفسًا عميقًا استعدادًا للحديث، ففهم حمدي أنه سيبدأ الكذب المعتاد منه والذي يحب حمدي سماعه؛ فحمدي كان دائمًا ما يثير حب كرامش، ذلك الرجل العجوز للحكي، فيسمع منه حواديت وأساطير، فأحب أن يغتنم الفرصة ليسليه أثناء جراحته لهذا الحذاء المريض الذي بيده.

– نجوى هذه كانت من محظيات الملك فاروق الذي اشترى لها البيت القديم الذي يسكن فيه جوارجي النتن لكي تعيش فيه، وكان الملك يأتيها متخفيًا حتى لا يراه أحد وتكريمًا لها سمى هذه الحارة باسمها، هل تعلم يا حمدي أني تعرفت على الملك فاروق ذات مرة عندما أتى متخفيًا؟

تظاهر حمدي بالتصديق والتعجب من حديث كرامش فسايره لكي يكمل:

– يااااااه؟ معقول يا عم كرامش؟

– طبعًا؟ وهل أكذب عليك وأنا في هذه السن يا ولدي؟

– حاشا لله يا عم كرامش، وهل سلمت عليه؟

قالها حمدي ساخرًا، ولكن كرامش لم ينتبه لسخريته، وأكمل عليها نسيج حكايته:

– طبعًا، اقتربتُ منه وقلت له:

– كيف حالك يا جلالة الملك؟

رفع حمدي حاجبيه في دهشة مصطنعة مستمتعًا بوصلة الفشر والنخع هذه:

– لا بد أنه أمر بالقبض عليك.

– بالعكس، لقد كان رجلًا طيبًا وكنت طفلًا وقتها فأعطاني ثلاث جنيهات ذهبية من جيب البالطو الخاص به وأمرني ألا أخبر أحدًا بأمره.

كاد حمدي أن ينفجر من الضحك، ولكنه تمالك نفسه بالكاد؛ حتى لا يحرج كرامش الذي رحب به وبفرشته أمام المحل، وحتى لا يفقد مصدر متعته من ناحية أخرى، فحكاوي كرامش هي التي تهون على حمدي أوقات العمل التي تمر كئيبة كما تهون عليه جلوسه أمام الحارة الملعونة ... حارة نجوى.

***

أعترف أني افتقدت أبي كثيرًا منذ تركني في القاهرة وعاد إلى طنطا، أعلم جيدًا أن هذا الكهل الشاب والشيخ الطائش لا يستطيع البعد عن القاهرة كثيرًا، وأعلم أيضًا أنه ما تركني هذه المدة الطويلة إلا ليجعلني أجرب الاعتماد على نفسي؛ فقد وفقت أوضاعي أن والدي سيكون فوق رأسي كل أسبوع ليقضي معي يومين على الأقل، ولكنه الآن يدخل في أسبوعه السادس في طنطا، وهذه أقصى مدة قضاها هناك منذ وطئت قدماه أرض المحروسة، ولكني أفهمه جيدًا وأعلم أن اختياره هذا على هوى نفسه، فإن كان اشتياقه لابنه ليس كافيًا للهرولة إلى هنا فعشقه للقاهرة يكفي.

كانت أصعب أيامي في الغربة القاهرية هي الأولى؛ حيث إني لم أعتد المعيشة في وسط هذا الزحام الشديد، وكان الروتين اليومي لا يخرج عن استيقاظي مع أذان الفجر والمشي للصلاة في الجامع الأزهر ثم العودة والإفطار ثم الانطلاق إلى عملي مبكرًا، حيث أقطع المسافة من شقة جدي إلى ميدان العتبة ثم شارع الجيش وباب الشعرية، وصولًا إلى ميدان العباسية، ومن هناك أكمل حتى أصل لعملي في المستشفى ثم العودة بعد يومي

الطويل من نفس الطريق فيما عدا أيام النبطشية، وينتهي يومي عند صلاة المغرب ثم أعتكف في بيتي مستذكرًا الدروس أو قارئًا في كتاب جديد من كتب علم النفس والطب النفسي.

باختصار كنت موظفًا لا جديد في حياتي؛ مما كان يثير سخرية زملائي القاهريين في المستشفى الذين كانوا يحاولون معي مرارًا أن يخرجوني من هذه الرتابة ويدعونني للانطلاق معهم في صخب العاصمة، فكنت أخبرهم أن والدي هو مبتغاهم، وهو الذي كان سيدعوهم معه للهو والانطلاق في قاهرته. في شقة جدي الشيخ خطاب كنت أراه باستمرار رأي العين وليس مجرد خيالات؛ فقد ارتبطت به جدًّا منذ طفولتي، وهو الذي اكتشف فيَّ قدرات وهبني إياها الله عز وجل؛ فذات مرة كنت نائمًا في حضنه في سن الرابعة، وفجأة استيقظتُ وأيقظتُه وقلت له إن (الشيء) جاءني وأمرني أن نقوم فورًا من على السرير، ولم يفهم جدي ساعتها ما أقصده لكنه أمام إصراري قام وجذبني في حضنه من على السرير، وما هي إلا لحظات إلا وكان سقف الغرفة راقدًا مكاننا فوق مرتبة السرير الذي انهار من وقوع السقف فوقه. وقف جدي وهو يحتضنني مذهولًا مما رآه لتوه، وظل لسانه يلهج بذكر الله وتسبيحه وشكره وحمده لهذه المعجزة التي حدثت توًّا، وعندما رأى انفعالي أجلسني وهدهدني حتى هدأت، ثم طلب مني أن أحكي له ما رأيت ومن الذي أخبرني؟

حكيتُ له عن هذا النور الذي دومًا يأتيني وفي داخله شخص طيب الملامح خفت عندما رأيته أول مرة، ولكنني اطمأننت من ناحيته بعدما رأيت ابتسامته الهادئة المحببة إلى قلبي، ولأنه كان دائمًا يلاعبني ويظهر لي في القمر أحيانًا، وحكيت لجدي أنني أخبرت والدتي بما أرى فلم أجد منها اهتمامًا.

كبّر جدي واحتضنني بشدة بعدما سمع ما رويته له، وحدثني بكلمات لم أفهم أغلبها في هذا الوقت، ولكنه كان دائمًا بعدها ينصحني ألا أستخدم هذا الهبة التي وهبها لي الله إلا في الخير وألا أوذي بها إنسانًا ولا حتى حيوانًا، وألا أجعلها مصدر رزق لي أبدًا حتى لا تضيع، وكان من فرحته بي دومًا يقول:

– لقد وهبك الله من اسمك حظًّا يا عبد العليم، وأفاض عليك بنور العلم الذي لا يوهب إلا للصالحين والأنبياء.

كان جدي لا يتركني أبدًا من بعد هذه الحادثة، وكان يتبارك بوجودي معه، حتى إنه عندما كانت تستعصي عليه مسألة فقهية ويحب أن يبحث عنها في أمهات الكتب كان يجلسني بجواره ويفتح الكتب على وجهي مستبشرًا بي فيأتيه الفتح من عند الله، وعندما كان يحضِّر خطبة الجمعة كان أيضًا يجلسني بجواره ويقرأ عليَّ الخطبة بعد إعدادها، وعندما كان يراني غير متحمس لكلام الخطبة الذي لم أكن أفهم أغلبه كان يغيرها بأكملها، وكم كانت له من خطب رائعة أثرت في المصلين، كان جدي يُرجع الفضل فيها لله ثم لجلوسي بجواره.

يوم وفاة جدي كان أصعب الأيام التي مرت عليَّ في حياتي حتى الآن، ولا زلت أتذكر نحيبي عليه وهو يرقد رقدته الأخيرة وأنا في سن العاشرة، وعندما أفاق من إحدى غيباته ووقع بصره علي وأنا أبكي ناداني حتى دنوت منه، وأخبرني بصوت خفيض لم يسمعه غيري قائلًا:

– سأكون معك دائمًا ولن أتركك، لا تحزن على جدك فقد رأيت مقامي عند الله.

نزلت كلماته على قلبي كالثلج، ومات جدي ولم ينقطع عني أبدًا من يومها؛ فأنا أراه دائمًا يتحدث إليَّ ويرشدني ويجلس بجواري أثناء مذاكرتي

كما كنت أجلس بجواره طفلًا وهو يحضِّر الخطب، وأخبرني ذات مرة قائلًا:

– هذه بتلك.

كنت في سعادة ونعمة لو عرفها عني الآخرون لزاحموني عليها، وهي الاستئناس بهذا الرجل الصالح الذي عندما أدخل بيته عائدًا من عملي أسمع صوته يشدو بقراءة القرآن وترتيل الدعاء خارجًا من غرفته، فلم أشعر بوحدة أبدًا، وكيف أشعر بها وحبيبي معي!!

على قدر استئناسي بهذا الجو إلا أن العجيب أن هناك شيئًا ما في هذا المكان يدفعني للخروج منه.

شيء طيب وليس شيئًا خبيثا يريد التخلص مني وحرماني من هذه النعمة، لا أدري سر هذه الإرادة الخفية التي تدفعني دفعًا للخروج من هنا، والتي كأنها تجهزني لأمر جلل، أمر ليس هذا مكانه بالتأكيد، والأعجب هو أني لم أسمع رأيًا من جدي في هذا الشأن وكأنه لا يعرف به مع أني أعتقد أنه على دراية كاملة بكل تفاصيله.

بعد انتهاء الشهر الثاني من وجودي في هذه الشقة لم أعد أسمع صوت جدي خارجًا من غرفته كالعادة فور رجوعي من عملي، ولكني عندما كنت أدخل عليه غرفته أراه واقفًا أمام نافذة غرفته شاردًا ببصره في السماء ولا ينظر إليَّ، حتى خيل إلى أني فعلت ما أغضبه.

في المرة الأولى سمعته يقول وهو يتنهَّد:

– ما يكون في نجوى؟

وقعت هذه الجملة على مسامعي بشكل غريب، وظننت أنها الآية من سورة المجادلة (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم)، ولكنَّ جدي

نطقها: (ما يكون في نجوى؟) فهل أخطأ جدي في تلاوتها أم أن هناك شيئًا آخر؟

خرجت من غرفته وأغلقت الباب بعدما يئست من أن ينظر إليَّ ويحدثني، وشغلتني هذه العبارة كثيرًا طوال اليوم حتى إنني ذهبت إلى عملي في اليوم التالي شاردًا أفكر فيما وراءها، وعدت إلى البيت مسرعًا لأفتح غرفة جدي لأجده على نفس الحالة لا ينظر إليَّ، ويردد نفس الجملة (ما يكون في نجوى؟)، وهذه المرة لعب الشك برأسي وفتحت المصحف على سورة المجادلة وراجعت الآية فوجدتها كما أعرفها وأحفظها (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم)، إذن لم يخطئ جدي ولم أنس أنا ما أحفظه من القرآن، فلماذا هذه الجملة؟ وما السر وراءها؟

في اليوم الثالث لم أذهب إلى العمل، وفتحت باب الغرفة فلم أجد جدي واقفًا؛ فتيقنت أنه لن يكون موجودًا إلا في موعد عودتي من العمل ككل الأيام السابقة، فانتظرت على أحرٍّ من الجمر حتى موعد رجوعي من العمل، وفتحت باب الغرفة فتكرر ما حدث في اليومين السابقين؛ فأغلقت باب الغرفة وأنا أكاد أجن من هذه الرسالة التي تحمل في طياتها شيئًا ما ومن المؤكد أنه شيء هام لتكراره في ثلاثة أيام متتالية.

انتفضت عند سماعي صوت جرس باب الشقة الذي قطع خلوتي وتفكيري فيما يحدث، وفتحت الباب لأجد أبي واقفًا أمامي، واستغربت لماذا لم يفتح الباب وهو يقتني مفتاحًا؟

دخل أبي ورحبت به، وعندما رآني على هذه الحال فوجئت به يسألني:

- هل أخبرك جدك بشيء؟

وقع السؤال على رأسي كالصدمة، فلا أحد يعلم بسر رؤيتي لجدي أبدًا

ولا حتى أبي، وعندما وجدني أبي أنظر إليه في استغراب لا أجيب عليه استطرد قائلًا:

– جدك يأتيني في المنام منذ ثلاثة أيام يأمرني أن ترحل من هذه الشقة إلى مكان آخر.

وقتها تأكدت أنها رسالة وأمر بالرحيل؛ فنظرت لأبي فوجدت القلق واضحًا على وجهه، وفهمت ساعتها أن القادم ليس سهلًا أبدًا، وبادرت والدي بالسؤال الذي يؤرقني:

من هي نجوى؟

***

دق الباب وعلم جوارجي من الطارق من قبل أن يفتح ليرى بنفسه، هؤلاء الحمقى لا يملون من المحاولة حتى بعد أن أغلق جوارجي الباب في وجوههم.

يقوم متأففًا من مكانه ويترك ما يفعله للزبون الجديد الذي جاءه يطلب منه سحرًا لوقف حال منافسه في السوق، وما أسهل هذا الطلب وما أكثر انتشاره!

يفتح الباب ليرى مكرم المسكين واقفًا أمامه يبتلع ريقه في صعوبة واضحة ممسكًا الصليب في يده يضمه على صدره وكأنه يستجديه ألا يتركه وحيدًا في مواجهة هذا المسخ.

ليس من الصعوبة على شخص مثل جوارجي أن يدرك أن الذي يقف أمامه هو شاب عديم الخبرة ساقه قدره لهذا الطريق رغمًا عنه، أرسلوه في الكنيسة لإدارة حلقة جديدة من التفاوض معه.

– أنا الأب مكرم زخاري.

قالها مكرم وعيناه تدوران في محجريهما بسرعة عداد الكهرباء التالف من الخوف؛ لوقوفه أمام جوارجي الذي نظر إليه بعينه الوحيدة نظرة فاحصة شملت جسمه كله من أعلاه لأدناه، ثم دخل جوارجي وجلس ليكمل ما كان يفعله محدثًا مكرم دون أن ينظر إليه:

– ادخل وأغلق الباب من خلفك، وحاول أن تجد لك مكانًا لتجلس فيه.

تسمَّر مكرم للحظات خوفًا من أن يغلق الباب ويصبح وحيدًا مع هذا الشيطان الذي يتمثل في صور آدمي، والذي ذكره بمن يسمى في الكتاب المقدس **Anti Christ** أو المسيح الدجال كما يعرفه المسلمون، وعندما تأخر مكرم في رد فعله التفت جوارجي مشيرًا إليه بالتقدم، فما كان من مكرم إلا أن استجمع قواه وخطا ببطء شديد خطوات معدودة ليشير جوارجي مرة أخرى للباب فيغلق في الحال، ويفزع مكرم ويزداد تشبثه بالصليب، ويضحك عليه جوارجي ساخرًا من خوفه.

– إنهم لا يحسنون اختيار مبعوثيهم أبدًا.

يتقدم مكرم ببطء ويقع بصره على كرسيٍّ بالقرب من جلسة جوارجي، ويخرج منديلًا من أحد جيوب زيه الكهنوتي ليمسح به الكرسي قبل أن يجلس في تصرف لا يخفي الطبقة التي جاء منها هذا الشاب، الذي يبدو أن هناك من ألقى به في جحيم جوارجي عن قصد، أو لعل الأقدار هي التي ساقته لشيء آخر.

حاول مكرم أن يبدأ الكلام موجهًا حديثه إلى جوارجي الذي قاطعه قبل أن يكمل جملته الأولى:

– الرب غير راضٍ عن ...

– الرب يحكم على من يؤمنون به، أما أنا فليس لي رب.

بهت مكرم من إجابة جوارجي غير المتوقعة، والذي ما زال يتحدث إليه دون حتى أن يشغل باله بالالتفات نحوه؛ مما أثار حفيظة مكرم، الذي حاول أن يتقمص دورًا غير دوره، حيث حاول أن يتحدث إلى جوارجي بشيء من الحكمة:

– أعتقد أنه ليس من اللائق أن يحدثك الأب وأنت غير ملتفت له.

التفت جوارجي بشكل ألقى الرعب في نفس مكرم الذي ندم على هذه المحاولة، ولكن جوارجي ابتسم له ابتسامة صفراء خبيثة لا تخرج إلا من ضبع عجوز يستهين بفريسته قبل الانقضاض عليها:

– يا بني إنك الآن في حرم الرب ... في حرمي.

لم يتوقع مكرم أن يكرر جوارجي استهانته بالرب بهذا الشكل المهين، ولا يدري لماذا تذكر ليليان في هذا الموقف الصعب الذي لم يكن يتمنى أن يوضع فيه، إنه يجلس أمام شخص يدعي أنه رب وإله ... لا بد أنه معتوه، ومن المؤكد أنهم في الكنيسة يعلمون هذا جيدًا، فلماذا يضيعون وقتهم في محاولة نصحه وإثنائه عما يفعل من سحر يؤذي به الناس.

نظر جوارجي إلى مكرم مبتسمًا بسخرية وكأنه قرأ ما يدور في رأسه، فباغته بالقول:

– إنهم لا يريدون نصحي وهدايتي، إنهم يتضررون مني ويعتبرونني منافسًا لهم.

بدا على مكرم الذهول من وقاحة هذا الذي يهين الكنيسة وآباءها، وقبل أن يغضب ويرد غيبة الكنيسة قام جوارجي من مكانه ووقف ناظرًا لمكرم الذي زاد رعبه وتشبثه بالصليب أكثر، وهز جوارجي رأسه ثم عقد يديه خلف

ظهره وتمشى في غرفته القذرة كمن يتمشى على مسبحه الخاص في قصره المنيف، وأكمل ثرثرته:

– اسمع يا بني، يبدو عليك أنك حديث عهد بالحياة العلمانية التي تركتها ودخلت إلى الكهنوت، ولا بد أن من أرسلوك يعلمون جهلك بحقيقة الأمر.

– وما هي حقيقة الأمر؟

توقف جوارجي عن المشي وصمت قليلًا ثم نظر إلى مكرم مكملًا حديثه:

– آباؤك في الكنيسة متضررون من عملي في السحر، وينظرون إليَّ على أنني أنافسهم في عملهم.

– كيف ذلك؟ هل تتهم الكنيسة بأفعال السحر؟

صمت جوارجي لوهلة متعجبًا من سذاجة مكرم، ثم انفجر ضاحكا وسط ذهول تام من مكرم الذي ينظر إليه وهو لا يفهم شيئًا، وبعد أن هدأ جوارجي من نوبة ضحكه عاد مرة أخرى إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه ومد رجليه أمامه؛ الأمر الذي لفت نظر مكرم، ولكنه صمت هذه المرة حتى لا يستمر هذا المسخ في سخافاته.

– يا بني أنا أعمل بالسحر منذ أربعين عامًا قبل أن تتكون أنت في ظهر أبيك بسنوات، ولأنني ولدت مسيحيًّا فكان من المنطقي أن تستخدمني الكنيسة لأساعدهم في السحر الذي يحترفه الآباء والكهنة ويعتبرونه من الأسرار، وعندما رفضتُ لعنوني وطردوني من رحمتهم التي لست بحاجة إليها من الأساس، ومع ذلك فهم لا يملون من محاولة نصحي ظاهريًّا ومساومتي في الباطن لكي أكف عن منافستهم في أرزاقهم التي تأتيهم من وراء السحر داخل الكنيسة.

انفعل مكرم وقام من مكانه ناظرًا إلى جوارجي في غضب شديد:

– لقد تجاوزت حدودك في إهانة الكنيسة وآبائها وأنا أحذرك من ...

انتفض جوارجي من مكانه في غضب، وأمسك معصم يد مكرم الذي كاد أن يموت من شدة الرعب، وصاح فيه قائلًا:

– اسمع ... لا أحد يهدد جوارجي في مملكته وملكوته، ولولا أنك شاب حديث السن لكان لي معك تصرف آخر.

خلع مكرم معصمه من يد جوارجي في صعوبة بالغة، ونظر في عين جوارجي فوجدها قد تحولت إلى كرتين من النار؛ مما أثار فزعه، وتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه ليخرج من هذا المكان، وأحس ببرودة عجيبة تسري في أوصاله من معصمه من أثر مسكة جوارجي له، وانتفض كأن بردًا شديدًا قد أصابه، وجرى من أمام جوارجي ناحية الباب متعثرًا في ثوبه حتى إنه سقط على الأرض، وقام مرة أخرى ناظرًا إلى جوارجي في رعب شديد، وشعر أن المسافة بينه وبين الباب، والتي لا تتعدى الأمتار الثلاثة كأنها أميال لا تريد أن تنقضي، إلى أن خرج أخيرًا من هذا المكان، خرج ولكن بوجه غير الذي دخل به ... وبعقل غير الذي دخل به.

***

– نجوى كانت إحدى الفتوات القديمات، والتي كانت تخضع لها المنطقة المحصورة بين منشية ناصر وشارع صلاح سالم حاليًّا، وكانت تسكن في هذه الحارة التي تسمت باسمها بعد ذلك.

كان هذا ما يعرفه أبي عن تاريخ هذه الحارة التي اشترى فيها شقة صغيرة في فترة شبابه من دون علم جدي لكي يلهو فيها مع أصدقائه دون قيود من والده، وحتى لا يسيء إلى بيت الشيخ خطاب العالم بالأزهر.

لاحظت على أبي عدم ارتياحه من فكرة انتقالي إلى حارة نجوى، ولكن أصبح الأمر أكبر من حتى مجرد التفكير في القبول أو الرفض.

بعد أقل من ساعة كنت أستقلُّ أنا ووالدي إحدى سيارات الأجرة لكي تنقلنا إلى الشقة الجديدة التي سأبدأ فيها مهمة لا أعلم ملامحها، وكان الصمت هو سيد الموقف في التاكسي الذي قطع شارع الأزهر مرورًا بميدان صالح الجعفري وموقف الدراسة وشارع صلاح سالم، وصولًا إلى مسجد العشيرة المحمدية، ثم إلى منطقة مقابر الشهداء، وقوفًا عند مسجد السلطان قلاوون، حيث إن وقت صلاة المغرب قد حان، ووجدت أبي يشير لسائق التاكسي بالتوقف ونزلنا، وقبل الدخول إلى المسجد استوقفني أبي في قلق وقال لي:

– اجتهد في الدعاء، فما أنت مقدم عليه ليس بسهل أبدًا.

يبدو أن هذه الحارة تحمل العديد من الأسرار التي لا بد أن عمر أفندي يعرف أغلبها ويعرف مدى خطورة وجودي بها، وبعد انتهائنا من صلاة المغرب ترجَّلنا قليلًا حتى وصلنا إلى المكان المنشود ... حارة نجوى.

فور دخولك إلى هذه الحارة ينتابك شعور غريب جدًّا، انقباض في القلب مع قشعريرة في الجسد، وكأنك تساق إلى الموت وأنت تنظر.

كان أول ما لفت نظري هو ذلك البقال العجوز الذي يجلس شبه ناعس أمام دكانه الواقع أمام الحارة، والذي أصر أبي أن يسلم عليه قبل الدخول إلى الحارة، وعندما رأى أبي يهل عليه قام وانتفض من مكانه وهلل لرؤية والدي:

– أهلاااااااا أستاذ عمر، عاش من شافك.

دقائق من العناق والأحضان الحارة بين الرجلين اللذين يبدو جليًّا أنهما

لم يتقابلا من سنين طويلة.

– كيف حالك يا عم كرامش، والله أفتقدك بشدة.

– إممم، لو كنت تفتقدنا ما كنت غبت عنا هذه السنين الطويلة.

– اعذرني يا عم كرامش، ولكنها الدنيا ومتاهاتها.

يبدو أن عم كرامش انتبه لوجودي بجوار أبي الذي انشغل عني بالترحاب الحار منه، فبادر قائلًا:

– لا بد أنه ابنك.

نظر والدي إلي بفخر شديد وربت على كتفي قائلًا:

– ابني الدكتور عبد العليم، طبيب نفسي بمستشفى العباسية.

ما إن سمع عم كرامش اسم مستشفى العباسية حتى باغتنا:

– كفانا الله الشر.

ضحكتُ وضحك أبي من رد الفعل السريع والمتوقع من شخص مثل عم كرامش تبدو عليه الطيبة الفطرية، كنت أتجول ببصري في المكان أبحث عن لا شيء، لعلي أجد أي شيء في اللحظة التي هل علينا فيها ذلك الشخص العجيب الذي لمحت في عينيه حكمة لا تتناسب مع شكله البسيط ولا هيئته الغريبة، شخص تشعر فور رؤيته أنك تعرفه أو أنه هو الذي يعرفك.

دخل علينا حمدي أبزيمة وتوجَّه نحوي مباشرة ولمحت في عينيه فرحة من وجد ضالة كان يبحث عنها، شعرت أنه كان ينتظر قدومي ويعرف موعده حتى قبل أن أعرفه أنا، شعور غريب ينتابك حين تقابل شخصًا كان ينتظرك في مكان لم تكن تنتظر أن تطأه في يوم من الأيام.

- حمدًا لله على السلامة.

قالها حمدي وهو يصافحني بحفاوة شديدة متجاهلًا والدي وعم كرامش البقال الذي قطعت حديثه هذه اللحظات الصامتة المتبادلة بيني وبين حمدي:

- هذا عمك الأستاذ عمر الخولي يا حمدي.

انتبه حمدي أنه تجاهل والدي ولم يرحب به أو يصافحه، فاستدرك الأمر وتوجه إلى والدي مرحبًا به بشدة، ولكني رأيت في حفاوة حمدي بوالدي كمن يجامل شخصًا لأنه قريب لشخص آخر عزيز عليه، وتعجبت لم هذه االحميمية في المقابلة الأولى لي بحمدي وهو لا يعرفني.

وأنا صغير علمت من جدي أنني ربما أرى موقفًا يحدث أمامي للمرة الأولى فأشعر أنني عاصرت هذا الموقف بكل تفاصيله من قبل، ولكني لا أتذكر متى وأين، فأخبرني جدي أن هذا الموقف الذي تراه وتعيشه وتظن أنك عشته من قبل هو بالفعل حدث من قبل في عالم الذر عندما خلقنا الله من ظهور آبائنا، كنا عبارة عن ذرات تقابلنا مع بعضنا البعض وعشنا مع بعضنا البعض، أحببنا أناسًا وكرهنا آخرين، منا من آمن بالله ومنا من كفر، كل ما نعيشه على الدنيا في حياتنا هو عبارة عن تكرار لحياة سابقة عشناها بكل تفاصيلها التي تتجلَّى واضحة أمامنا في حياتنا اليومية، ربما قابلت حمدي هناك وربما تعارفنا وتآلفنا لهذا قابلني كمن يعرفني من سنين طويلة، ولولا الملامة لكان أخذني بالحضن وسألني عن هذه الغيبة الطويلة.

تفاصيل كثيرة رأيتها في عيني حمدي أبزيمة التي حملت كثيرًا من العتاب الصامت الذي لم أفهم معناه.

رفع أذان العشاء في موعده فنظر والدي إلى ناصية حارة نجوى باستغراب:

– ألم تكن هنا في هذا المكان زاوية تقام فيها الصلوات يا عم كرامش؟

ظهر الأسى على وجه عم كرامش الذي لم يجب إلا بقوله:

– حسبي الله ونعم الوكيل.

– لم يفهم أبي مغزى حسبنة عم كرامش، ولكن حمدي أبزيمة أنقذ الموقف:

– هناك مسجد قريب من هنا يا أستاذ عمر لو أحببت أن تصلي فيه العشاء.

– أحبَّ طبعًا، ولكن بعد أن نضع الحقائب في الشقة ننزل لنصلي العشاء ونشتري ما ينقصنا.

لم يترك حمدي أي فرصة لأي منا أنا وأبي أن يحمل أحدنا حقيبة من الحقائب، فأسرع كأبرع الشيالين في محطة مصر، وفي ثوانٍ معدودة كانت الحقائب موزعة ما بين يديه الاثنتين وكتفه، وسار أمامنا حتى دون أن يسأل عن مكان الشقة المقصودة.

في هذه اللحظة تغير الجو بشكل عجيب، فدوى صوت الرعد في السماء بشكل مفزع وأضاء البرق سماء الحارة، ثم هطلت الأمطار بعدها بشكل غزير وكثيف على مربع صغير جدًّا يكاد يكون الحارة فقط دون غيرها من الأماكن؛ فأسرع أبي الخطى تحت هذه الأمطار يسبق حمدي الذي يحمل الحقائب ليدله على الطريق، بينما تأخرت أنا عن كليهما متوجهًا بالشكر إلى عم كرامش على حفاوة استقباله لنا ولأنه عرفنا على حمدي ذلك الحواري المخلص.

ما إن اقتربت من باب المنزل القديم الذي دلفه أبي أمامي تحت الأمطار حتى حدثني هاتفي أن هناك من ينظر إليك الآن، وذلك في تزامن لحظي

مع شعوري بأن هناك بالفعل عينًا تتطلع إليَّ بفضول، وقبل دخولي إلى باب البيت التفتُّ خلفي بشكل مفاجئ لأجد جسدًا يتوارى خلف باب لأحد البيوت القديمة وكأنه كان يراقبني وتفاجأ بالتفاتتي إليه فحاول الاختفاء، اختفى بالفعل ولم ألمح منه إلا بقايا جسد وعين بيضاء ممسوحة كأنها عين الشيطان، بل بمعنى أدق كأنها مسكن الشيطان.

***

يتوجه شيحة بخطوات ثقيلة متباطئة نحو باب الزنزانة في ليل مظلم لا ترى فيها أثرًا لأي نجم أو كوكب في السماء يعطي الأرض ولو قليلًا من نور، يقوم شيحة بفتح باب الزنزانة الذي يحدث صريرًا مخيفًا مفزعًا يؤدي إلى ارتعاشه هو شخصيًّا من رهبة الموقف مع أنه المرعب الذي يخشى منه الخلق.

بعد فتح باب الزنزانة يدخل شيحة إلى ممر طويل أشبه بممرات سجن القلعة ولكن على جانبيه شواهد قبور وليس زنازين ضيقة صغيرة كما اعتادها؛ مما يثير اندهاشه من هذا المكان الذي يبدو أنه لا يعرفه مع أنه عاش فيه أغلب عمره.

على كل شاهد قبر اسم مكتوب لا يعرف شيحة صاحبه، يتجوَّل بين شواهد القبور ويقرأ الأسماء المكتوبة عليها لعله يجد اسمًا يعرفه يكشف عنه هذه الحيرة من تغير هذا المكان الذي لم يكن كذلك أبدًا من قبل.

يتوقف عند شاهد أحد القبور ويقرأ الاسم المكتوب عليه والذي يعرفه جيدًا، إنه اسم أخيه الأصغر الذي قتله في سجن القلعة لمعارضته لنظام عبد الناصر، عندها يفطن إلى أن هذه القبور هي لمن قتلهم في هذا السجن والاسم المكتوب على كل قبر يخص صاحبه وساكنه، فجأة يُفتَح القبر ويخرج له أخوه مبتسمًا في صفاء السماء مرحبًا به:

– أهلًا يا شيحة.

ينتفض شيحة ويعود للوراء في حركة مباغتة يصطدم فيها بجسد أحد الأشخاص الذي تبدو ملامحه غير ظاهرة أبدًا له في اللحظة التي يسيطر عليه الرعب من الموقف، ثم يلتفت مرة أخرى لأخيه الذي يحدثه في حنان بالغ:

– لماذا قتلتني يا شيحة وأنا أخوك الوحيد وحرمت مني أبانا؟

– يجيبه شيحة وهو يرتعد ويتصبب عرقًا غزيرًا:

– لقد كانت الأوامر بقتل كل أعداء الوطن؛ لذلك قتلتك.

– هل أنت مقتنع بما تقول يا شيحة؟ إذن فلتجهز إجابة ليوم اللقاء.

– لكني لو لم أقتلك لقتلك غيري.

– لو قتلني غيرك لكان أهون على نفسي وعليك يا شيحة، عمومًا أنا سامحتك ولكنه لم يسامحك.

يشير أخو شيحة إلى الشخص الواقف خلفه والذي اصطدم به منذ لحظات، فتظهر ملامحه جلية، فيتعرف شيحة على أبيه الذي يصرخ في وجهه:

– حسبي الله ونعم الوكيل فيك، وقطع نسلك من الأرض كما قطعت نسلي بقتلك لأخيك.

يتخبَّط شيحة من الفزع بين شواهد القبور، وكلما اصطدم بشاهد قبر خرج منه صاحبه يصرخ فيه؛ مما يزيد من رعب شيحة الذي أصبح محاصرًا في نهاية الممر يسند ظهره إلى باب ضخم مغلق يحاول فتحه حتى يهرب من أصحاب القبور الذين يتقدمهم أخوه وأبوه والشيخ مستور، الذي ما إن

رآه شيحة حتى اشتد فزعه عندما صرخ الشيخ مستور في وجهه:

– ستموت كالكلب ... ستموت كالكلب ... ستموت كالكلب.

يوقف أخو شيحة زحف أصحاب القبور نحو أخيه المحاصر ويحاول فتح الباب ويعطيه الأمان:

– لا تخف يا شيحة، سنتركك تفتح هذا الباب وتخرج منه ولن نؤذيك، فمصيرك بيد صاحب هذا الباب.

يبدو على شيحه شيء من الهدوء الممزوج بالتعجب من هدوء أخيه وباقي أصحاب القبور، ويستطيع بالفعل فتح الباب الذي يفتح على أخدود ضخم مشتعل بالنيران التي تلفح وجهه فيعود خائفًا إلى الخلف، ليفاجأ بتحرك أخيه وأبيه والشيخ مستور وأصحاب القبور مرة أخرى ليحاصروه، فيصبح مجبرًا على القفز في هذا الأخدود الذي فتح عليه الباب حتى يصل إلى الحافة مباشرة معطيًا ظهره للأخدود ووجهه لأصحاب القبور المحاصرين له حتى تنزلق قدماه أخيرًا فيسقط في الأخدود صارخًا صرخة مدوية.

يستيقظ شيحة مفزوعًا من نومه دائمًا فور سقوطه في الأخدود المشتعل، يا له من كابوس لعين يأتيه على فترات بنفس الوجوه ونفس الأشخاص ولكن زاد عليهم هذه المرة الشيخ مستور، ألن يتركه هذا الشيخ اللعين في حاله؟ ماذا يريد منه؟

حالة من الهلع والعرق المتزايد واللهث المستمر تنتابه كلما رأى هذا الكابوس في منامه، والذي لا يجد له تفسيرًا أبدًا، ترى ما هو هذا الباب الضخم ومن هو صاحبه الذي يخبره أخوه دائمًا أن مصيره بيده؟ ولماذا يدعو عليه أبوه دائمًا بانقطاع نسله مع أنه بالفعل مقطوع النسل منذ زمن؟

إذن ما الحكمة من تكرار هذه الدعوة، أسئلة لا يجد لها شيحة تفسيرًا،

ولكن ما لفت نظره أكثر هو دعوة الشيخ مستور عندما قاله له: ستموت كالكلب، هي نفس الدعوة التي سمعها منه وهو يقتله، فلماذا يكررها هو أيضًا؟ أولم تكفهم دعواتهم عليه وهم أحياء حتى يكملوا الدعاء عليه مرة أخرى بشكل مستمر وهم أموات؟

بالرغم من أن شيحة لا يبالي أصلًا بالله ولا يخاف من الدعاء أو الحسبنة عليه إلا أن هذا الكابوس كان دائمًا ما يفزعه، وعلى الرغم من ذلك لم يحاول ولو مرة واحدة أن يصلح من نفسه أو يتقرب إلى الله توبة إليه من كل أفعاله التي يرى أنه لم يخطئ أبدًا فيها، وأن الذين قتلهم هم بالفعل يستحقون القتل ودمهم حلال حتى لو كان أخاه أقرب الناس إليه، هكذا أخبره مشايخ عبد الناصر في المحاضرات التي كانوا يلقونها عليهم في السجن بشكل دوري؛ حتى لا يفكر أي منهم في مراجعة ضميره والكف عن القتل، هكذا المصريون على مر تاريخهم ينتظرون الفتوى من عالم ضالٍّ يُحِلُّ لهم الموبقات التي يفعلونها، ثم يستمرون في غيهم وضلالهم عملًا بالقول المصري المأثور: "ضعها في رقبة عالم واخرج سالم"، وكأن هذا العالم سيحمل عنهم وزرهم يوم القيامة ولن يكون أول المتبرئين منهم ومن فتواه.

ينهض شيحة بعد هذا الكابوس وينظر إلى زوجته مفيدة المتكومة بجواره على الفراش لا تدري بالدنيا من حولها، فيستشيط غضبًا عندما يراها تغط في النوم، فيلكزها بكوعه في جانبها بشكل مؤلم ويوقظها كما كان يوقظ المساجين لحفلة التعذيب:

– تنامين قريرة العين وأنا لا أرى للنوم سبيلًا، انهضي يا بنت الكلاب جهزي لي الفحم وزجاجات البيرة.

تقوم مفيدة، تلك السيدة المغلوبة على أمرها من زوجها الجبار المتسلط،

دون أن تنطق بكلمة واحدة، لتشعل له الفحم وتضعه له على المنقد وتغير ماء الجوزة بعد أن تغسلها جيدًا وترص له الحجارة بالمعسل وتقطع له جزءًا من فرش الحشيش الخاص به، وتخرج له زجاجات البيرة من الثلاجة، وتفرش له الحصيرة أمام باب بيته، ثم تدخل وتقف له على باب الحمام القديم تناديه أن القعدة جاهزة وتنتظره حتى يخرج، ثم يبصق في وجهها كعادته دائمًا ثم يتوجه إلى جلسته التي تبدأ قبل صلاة الفجر بقليل في السكر والتحشيش مع أذان الفجر، وكأنه يتعمد أن يقوم بكل هذه الموبقات تزامنًا مع الأذان الذي يسخر دائمًا منه عند سماعه قائلًا:

– ولماذا لا يذهبون للناس في بيوتهم ليوقظوهم بالمرة؟ يا لها من سخافة وضوضاء.

يظل شيحة على وضعه هذا حتى الساعة الثامنة صباحًا تقريبًا كل يوم حتى تأتيه مفيدة بالإفطار الذي يتناوله في قارعة الطريق ولا يجرؤ أي شخص يمر من أمامه أن ينظر إليه في طعامه وإلا نال من الشتائم ما يغنيه عن حاسة السمع بقية عمره.

على الرغم من هذه الفظاظة والجبروت اللتين كان يتسم بهما شيحة إلا أنه كان رقيقًا جدًّا مع القطط التي تأتي وتتمسح فيه وهو يفطر، بل كان يعد لها طعامًا مخصوصًا يقدمه لها، وكان دائمًا ما يحدث نفسه أو من يراه على هذه الوضعية ساخرًا:

– يقولون إن امرأة حبست قطة فدخلت النار وها أنا أطعم القطط وسأدخل أيضًا النار مع هذه المرأة!

لم يجرح شيحة في حياته أي شيء غير دعوة والده بانقطاع نسله، فهو كأي إنسان يشتاق إلى أن يكون أبًا لكي يشعر بجدوى وجوده في هذه الحياة، ولكن يبدو أن هناك جزاءً ما وقع عليه في هذه الدنيا حرمه من متعة

لطالما حرم منها الكثيرين بقتله لأبنائهم في السجن، وكان أبوه منهم عندما قتل أخاه الأصغر المعارض للنظام في الستينيات، ومع وجود هذه الغصة في نفس شيحة إلا أنه لم يفكر في طرق باب الخالق لعله يغفر له ويرحمه ... أي صنف من البشر هذا؟

***

رغم وصوله ليلًا إلا أنَّ عنايات سرعان ما عرفت أن هناك وافدًا جديدًا للحارة، فقد كانت حاستها تجاه الشباب الصغار أقوى من حاسة أعتى الكلاب البوليسية، كيف لا وهي كالنحلة التي تعيش على امتصاص رحيق هذه الزهور الصغيرة التي خرجت للدنيا لتوها.

الحقيقة أن هناك سببًا آخر يجعل حساسية عنايات للشباب الصغار عالية جدًّا بهذه الكيفية، ويجعلها الوصول إليهم بالنسبة إليها سهلًا، وهو أن عنايات كأي مريد للسحرة مع مرور الوقت يعطيه الساحر بعض العزائم التي يجدد بها السحر المعمول لشخص معين؛ حتى لا يفقد السحر قوته مع مرور الوقت، وبالخبرة وأقدمية الزبون عند الساحر يسخِّر له بعض الخدام من الجن يكونون تحت طوعه، ويعلمه الساحر بعض العزائم والتعاويذ التي تمكنه من استدعاء هذا الجن باستمرار والتعرف منه على أخبار الشخص المقصود بالسحر، وبهذه الطريقة كانت عنايات تتوصَّل إلى ضحاياها من الشباب وتحضرهم إلى مضجعها حتى وإن كانت لا تعرف عنهم أي تفاصيل، سواء اسمهم أو عناوينهم، يكفيها أن ترى الشاب وتمر من جواره ثم تأمر خدامها من الجن ليتعرفوا من خلال القرين الأرضي لهذا الشاب عن كل تفاصيل حياته، ولأنها كانت تسرح خدامها من الجن كالقوادين؛ فقد كانت مهمتهم الأساسية هي التقرب إلى القرين الأرضي ومحاولة إغوائه لكي يوقع الشاب ويسحره لكي يأتي في النهاية صاغرًا إلى فراشها.

ما إن عرفت عنايات من خدامها بقدوم الوافد الجديد حتى تحركت غريزتها نحوه حتى من قبل أن تراه، فيكفيها أنه شاب وهي مهووسة بمضاجعة الشباب بشكل هيستيري حتى وإن كانوا عديمي الخبرة في التعامل مع جسد المرأة، وكانت في هذا شأنها شأن الرجال الذين يهوون مضاجعة العذراوات وفض بكارتهن، مجرد انحراف في الرغبة ليس أكثر.

لكن ما صدم عنايات من هذا الوافد الذي بدا أنه سيكون عصيًّا عليها أنها علمت من خدامها أنه لا فائدة من المحاولة معه؛ فهو محاط بما يشبه الكتيبة العسكرية من كائنات لم يعرفها خدامها من الجن من قبل، يحمونه ويمنعون الاقتراب منه أبدًا، وكأنه ملك وهؤلاء حرسه الحديدي، الخلاصة التي نقلها الخدام أن الضحية هذه المرة من المستحيل أن يكون ضحية لأنه باختصار ... محجوب.

***

لو كان أخي حسين موجودًا معنا ما فعل ربع ما فعله حمدي أبزيمة في ليلتي الأولى في الشقة التي حولها بمفرده من وكر لعصابات العنكبوت وتلال من الأتربة المتراكمة إلى شقة يستطيع الآدميون أن يسكنوها، وذلك كله بمفرده دونما أي مساعدة مني أو والدي، حيث أصر وأقسم بأغلظ الأيمان ألا يمد أحدنا يده في أي شيء.

الشقة مغلقة منذ أكثر من عشرين عامًا منذ وطئها أبي للمرة الأخيرة في حياته وفي نيته أن يبيعها ليستفيد بثمنها، ولكن شيئًا ما أنساه هذه الفكرة طوال هذه السنين ربما لأن هناك شيئًا مكتوب لي أن أعيشه في هذه الشقة.

بعد انصراف حمدي قرب الثانية صباحًا بعد أن نزل أيضًا واشترى لنا طعام العشاء الذي لولا إصرار أبي على دفع ثمنه ما قبل حمدي أبدًا أن يأخذ منه مليمًا واحدًا بشهامة غير طبيعية من شخص عرفناه للتو، وكأننا

معرفة قرون طويلة لا مجرد سنين، انصرف حمدي واستسلم والدي للنوم كعادته فور وضع رأسه على الوسادة ولكني ظللت مستيقظًا يساورني القلق عن طبيعة المهمة الغامضة التي وضعت في هذا المكان من أجلها، لماذا أنا؟ وما هو المنتظر مني؟ وكيف سأعيش في هذا المكان الغريب؟ وهل سكان هذه الحارة أناس طيبون سهلو المعشر أم أنهم غير ذلك؟

لم ينقذني من هذه التساؤلات التي ظلت تعصف برأسي إلا هذا الملمس البارد من يد شعرت بها توضع على رأسي فسرت في جسدي قشعريرة باردة شعرت بعدها بسكينة غريبة وهدوء في الأعصاب جعلني أغط بعده في نوم عميق، لم أشعر بعده إلا بوالدي الذي أيقظني في السابعة صباحًا حتى لا أتأخر عن عملي، فقمت مستغربًا من هذا النوم العميق الذي نادرًا ما يصيبني في مكان جديد، وعاتبت والدي على عدم إيقاظي معه لصلاة الفجر التي لا يضيعها أبدًا:

– لماذا لم توقظني معك لصلاة الفجر؟

– وجدتك متعبًا فأشفقت عليك، هيا قم لتلحق بعملك.

بعد انتهائي من طعام الإفطار الذي جهزه لي والدي بنفسه وبعد الانتهاء من ارتداء ملابسي وجدت والدي هو أيضًا استعد للخروج معي:

– هل ستعود إلى طنطا اليوم؟

– لا طبعًا، سأريك الطريق إلى العباسية من السكن الجديد ثم أقضي بعض المشاوير وألقاك هنا على الغداء بإذن الله.

– ولماذا لن تعود إلى طنطا؟

– لن أتركك حتى أطمئن عليك.

قلت لوالدي في تخابث مع شدة فرحي في قرارة نفسي باهتمامه بي وخوفه عليَّ:

– ولكن ألا ترى أني صرت كبيرًا بما يكفي للاعتناء بنفسي؟

– لا.

قالها والدي بتلقاية شديدة جدًّا وهو يربط حذاءه، ثم استقام واقفًا ناظرًا إليَّ:

– أنت ممثل فاشل بالمناسبة.

– ذرية بعضها من بعض.

صدم أبي من إجابتي الخبيثة، ثم ما لبث أن انفجر ضاحكًا وطوقني بذراعه، وتوجهنا للخروج من الشقة.

***

خطوات قليلة خطوناها خارج باب المنزل القديم المتهالك حتى فوجئنا بمن ينادي على أبي بصوت أجش كأنه صوت إعصار:

– أستاذ عمر.

التفتنا في نفس الوقت لمصدر الصوت، فإذا بشخص ضخم الجثة شبه مغلق العينين تفوح منه رائحة المخدرات يقترب منا مبتسمًا فاغرًا فاه متوجهًا نحو أبي في شوق جم فاتحًا ذراعيه:

– لكم افتقدناك يا رجل!

– ياااااااااااه ... الصول شيحة؟ كيفك يا شيحة؟

احتضن أبي شيحة ودام تبادل العناق بينهما لحظات طويلة، وأنا أقف

أشاهد هذا المشهد الذي يبدو عليه أنه سيتكرر كثيرًا بين والدي ومن يعرفه في حارة نجوى، ولم يقطع مشاهدتي إلا صوت شيحة الذي يشبه صوت انفجار لغم أرضي وهو يشير نحوي:

– هل هذا ابنك؟

نظر أبي نحوي وأجابه بفخر:

– هذا ابني الأصغر الدكتور عبد العليم.

أقبل عليَّ شيحة يحتضنني بدون سابق معرفة بيني وبينه، وكما قابل حمدي أبزيمة والدي بحفاوة لأجل خاطري فعل شيحة نفس الشيء معي؛ فهو يبدو عليه أنه يحب والدي حبًّا جمًّا:

– أهلا يا دكتور، نورت حارة نجوى.

بعد أن تركني شيحة واستطعت الخلاص من ضمته التي ذكرتني بضمة القبر، تنفست بصعوبة وابتسمت له ورددت له التحية:

– الحارة منورة بأهلها يا عم شيحة.

بينما وقف أبي وشيحة يثرثران لدقائق وقفت أنا أتأمل شيحة، رأيت على كف الرجل الكثير من الدماء التي بدت لي وكأنها ما زالت تسيل على يديه كأنه فرغ لتوه من ذبيحة أغرقت دماؤها يديه، يبدو أن مهمتي في هذه الحارة ستكون صعبة جدًّا.

بعد انتهاء الحديث بينهما والذي تذكرا فيه معًا ليالي الأنس – ولم يراع شيحة أنه يتحدث إلى والدي أمام ابنه – وما كانا يفعلانه من فجور وشرب حشيش ومخدرات في شبابهما، استأذن أبي شيحة أخيرًا في الانصراف دن أن ينسى توصيته على ابنه الأصغر القابع معهم في نفس الحارة:

– لا تحتاج طبعًا أن أوصيك يا شيحة على الدكتور عبد العليم، هو الآن في جوارك.

غضب شيحة جدًّا من توصية والدي عليَّ، حتى إنني ظننت أنه لا يحب أن يكون وصيًّا على أحد، ولكنني تفاجأت برد فعل مختلف منه:

– كيف تقول هذا يا أستاذ عمر؟ الدكتور عبد العليم من الآن في حمايتي، ولن يجرؤ مخلوق أن ينظر إليه مجرد نظرة تؤذي نفسيته وأنا موجود.

هنا ابتسم والدي وودع شيحة وأنا معه على وعد بلقاء بينهما يستعيدان فيه ذكريات الشباب والطيش، انصرفت أنا ووالدي ولفت نظري مرة أخرى ذلك البيت الغامض الذي رأيت فيه العين البيضاء الممسوحة التي كانت تراقبني بالأمس، ووقر في قلبي تساؤل مريب عن صاحب هذه العين وماذا يريد مني وما الذي يخفيه لي القدر من جولات مع هذه العين، وشعرت مرة أخرى أن هذه العين تخترق الجدر في أثري.

***

بعد مغادرة مكرم المسكين لبيت جوارجي لم يعد لحاله السابق على هذه الزيارة، حيث بدأت تنتابه نوبات غريبة من الصرع والتشنج لم يعرف لها آباء الكنيسة أي حل، هم يدركون جيدًا أنه وقع ضحية لسحر أسود من الملعون طريد الكنيسة جوارجي، وليست هذه الحالة الأولى التي يقع فيها أحد الكهنة ضحية لهذا الملعون؛ فقد سبقه القس برسوم الذي سحره جوارجي وسخَّر عفريتًا يجعله بمجرد رؤيته لأي امرأة يخرج عن وقاره ويشعر بالهياج الجنسي ويتحرش بها؛ مما جعله يتحرش بالعديد من النساء المعترفات في الكنيسة؛ مما أثار حفيظة أزواجهن الذي قدموا شكاوى للكنيسة الأم في العباسية، وتم بحث هذه الشكاوى، وبعد التحقق منها صدر قرار الأنبا

شنودة بنفي هذا الكاهن في أحد أديرة الصعيد وعزله عن التعامل مع أبناء الكنيسة حتى يتم علاجه من هذا السحر الذي ألمَّ به.

كانت الصدمة للكنيسة تكمن في أن يتجرأ شخص ويسحر الكهنة والقساوسة وتعجز الكنيسة بكل ما تملكه من خبرة في مجال السحر عن أن تزيله عن هذا الكاهن؛ لذلك كانت الكنيسة تخشى من جوارجي، وبعدما فشلت مرارًا في التصدي له حاولت معه بشكل دبلوماسي مرات عديدة بالترهيب تارة الذي كان غالبًا ما يفشل مع شخص جوارجي العنيد وبالترغيب تارة أخرى، حيث تلقي عروضًا كثيرة مغرية من الكنيسة لكي تستفيد من قدرته العالية في السحر.

كان الآباء في الكنيسة التي تقع حارة نجوى في نطاقها يعلمون جيدًا مدى خطورة جوارجي؛ لذلك كانوا يتحاشون الذهاب إليه حتى لا يؤذيهم؛ فقاموا بإرسال مكرم المسكين مع علمهم أنه شاب عديم الخبرة في التعامل مع الإشكاليات الضخمة مثل إشكالية جوارجي، ويمكن الاعتبار أن هناك مؤامرة حدثت على مكرم للتخلص منه من داخل الكنيسة، خصوصًا من القس سمعان الذي كان يغار من مكرم، والذي كان يراه فتًى مدللًا دخل سلك الكهنوت بطريق الخطأ لكي يشغل وقت فراغه، وكان يحقد عليه لمستوى عائلته المادي والاجتماعي؛ حيث إن القس سمعان من عائلة بسيطة لم ينلها الحظ من الدنيا كما نال مكرم وعائلته الغنية المترفة.

انقطع مكرم عن الذهاب للكنيسة لفترة طويلة، وبدأت الكنيسة في مراقبة حالته التي فشلوا في إيجاد أي حل أو علاج لها من تأثير سحر جوارجي عليه، وانهارت والدة مكرم وتوسلت إلى والده أن يجد حلًّا لعلاج ابنهم الوحيد حتى لو كان الحل هو السفر للعلاج في الخارج.

وقع والد مكرم بين مطرقة زوجته التي تخاف على ابنها الوحيد وسندان

الكنيسة التي عجز تفكيره في إيجاد خطة بديلة للتعامل معها في حالة استحالة استمرار مكرم في سلك الكهنوت لكي يكون عونًا لوالده وعينًا له على مصالحه الاقتصادية المتداخلة مع الكنيسة.

نظرًا لمكانة إسكندر توفيق – والد مكرم – لدى رجال الكنيسة الأم استطاع أن يحصل أخيرًا على قرار من الكاتدرائية ممهورًا بتوقيع الأنبا شنودة نفسه بشلح مكرم بعد تقرير نهائي من الطبيب النفسي الخاص بالكنيسة الأم، وليس كنيسة مكرم التي يخدم بها، يقرر عدم أهليته العقلية للعمل في سلك الكهنوت، وعلى قدر ما كان هذا القرار أمنية لوالدة مكرم من زمن على قدر قهرها وحزنها على الحالة التي وصل إليها ابنها الوحيد، الذي كانت تتمنى له مستقبلًا غير الذي خططه له والده، وليته تم.

أما إسكندر توفيق فلم يتوقف كثيرًا أمام خسارته لمندوبه الذي كان يعده ليكون رجله في الكنيسة، فمن هم مثل إسكندر توفيق لا يعدمون البدائل أبدًا، خصوصا عندما يتعلق الأمر بمصالحهم، وبدا الأمر بالنسبة له كذبابة وقفت على أنفه فقام بهشها بيده فطارت وكأن شيئًا لم يكن، وبدأ في إكمال مشواره الاقتصادي مع الكنيسة مرة أخرى دون أن يلقي بالًا لولده المسكين الذي وقع ضحية لطمعه.

أما المسكين مكرم فبعد شلحه وعودته إلى اسمه العلماني وحياته العادية فقد خضع للعلاج النفسي المستمر بدون جدوى، كما وقع ضحية لتسلط أبيه الذي قرر علاجه في البيت بعيدًا عن الفضائح التي قد تلحق به وباسمه في السوق لو انتشر خبر أن ابنه ... مجنون!

***

كان شعور عبد العليم صحيحًا عندما وقر في قلبه أن العين البيضاء التي كانت تراقبه بالأمس ما زلت تراقبه حتى الآن؛ فقد كان جوارجي فعلًا يجلس

في غرفته القذرة مراقبًا خطوات عبد العليم من خلف الجدار شاغلًا تفكيره في مدى مطابقته لمواصفات غلام النبوءة أم لا.

لم يكن صعبًا على ساحر عتل في حجم جوارجي أن يكشف روحيًّا عن عبد العليم، فكانت صدمته مثل صدمة عنايات التي أخبرت أن هذا الشاب محجوب، بل كانت صدمته أكبر لأن علمه في السحر يفوق علم عنايات بمراحل؛ فعنايات مهما بلغت بها القدرة فهي في النهاية مجرد مستخدمة بسيطة تسيِّر أمورها وتخدم رغباتها ببعض عزائم تسخير الجن التي علمها إياها جوارجي نفسه، أما هو فالأمر بالنسبة له مختلف؛ فهو يعتبر نفسه من آلهة السحر لقدرته العالية جدًّا في صنعه والابتكار فيه، فكان كالباحث الذي إن استعصت عليه مسألة يظل لياليَ طويلة قد تمتد لشهور يبحث فيها حتى يصل لحلها، وحالة هذا الغلام ليست ككل الحالات التي قابلها في حياته، إنه في حماية جيش بأكمله من مخلوقات لم ير جوارجي لها مثيلًا من قبل على مدار حياته الممتدة في السحر، لقد تم إيفاد هذا الغلام إلى هذا المكان لمهمة كبيرة قد تقضي على نفوذ وسطوة الكثيرين في هذه الحارة وليس جوارجي بمفرده، وهو محمي محجوب من الصعب أو شبه المستحيل اختراق هذه الدائرة الكهرومغناطيسية المحيطة به لحمايته من أي عدوان، إنه هو بالفعل الغلام الذي أخبرت به النبوءة، ولكن مثل هذا الغلام قليلون جدًّا أو شبه معدومين، وللتعامل معهم لا بد من تكتيكات أعقد من التكتيكات الحربية. إن الشيخ مستورًا نفسه مع أنه كان صاحب حظ من الحماية السماوية إلا أنه لم يصل حتى لربع الحماية التي يتمتع بها هذا الغلام؛ لذلك كان التخلص منه سهلًا، أما هذا الغلام فمحاولة الاقتراب منه أو إيذاؤه ستفتح على جوارجي أبواب الجحيم؛ إذن الحل الوحيد هو التدرج في حرب هذا الغلام التي لا بد منها على قدر صعوبتها، وليس من الذكاء بمكان أن تكون حربًا مكشوفة يرى كل طرف منها الطرف الآخر

بشكل واضح، إنها الحرب التي تشبه الحرب الباردة بين الدول الكبرى، حرب غير مباشرة يعلم كل طرف مسئولية الطرف الآخر عنها وعن آثارها، ولكنه لا يستطيع مواجهته أو إلصاق أي تهمة إليه ... إنها الحرب الصامتة.

***

لا شيء يأتي من فراغ أبدًا، ولا وجود لمجرم بدون مجرم آخر يساهم في صنعه أو يصنعه على عينه يكون وجوده مبررًا لاستمراره في الإجرام ظنًّا منه أن ذنبه في رقبة من أوصله لطريق الإجرام ولا ذنب عليه.

عقلية المذنبين واحدة، دائمًا ما يبررون لأنفسهم أن هناك من يتحمل ذنبهم ولا تثريب عليهم، ناسين عن عمد أن هناك جزءًا ما في أجسادهم مسئول عن التفكير فيما هم ذاهبون إليه، ولكنهم دائما ما يحبون تعطيله حتى لا يعطلهم هو عن طريق المتعة التي لن تتحقق إلا بالسير في طريق الذنب.

كانت عنايات نموذجًا حيًّا للمذنب المتمتع بذنبه مع قليل من محطات الندم التي يتوقف عندها قطار الذنب ثم ما يلبث أن ينطلق مسرعًا مرة أخرى.

– أمي السبب.

الجملة التي تعاود بها عنايات تخدير ضميرها الذي يستفيق للحظات ليوجعها ثم يعود سكيرًا لا يُفيق.

لم تكن أم عنايات أقل منها شرًّا، تساويتا في المضمون واختلفتا في الشكل والتطبيق، فلم تكن أمها ناسكة في محراب الشهوة كابنتها، ولكنها كانت جارية في بلاط المال، لا تتورع عن فعل أي شيء للحصول عليه حتى لو باعت ابنتها للشيطان نفسه. عندما كانت عنايات صغيرة كانت

أمها تسعى لأن تجعلها دائمًا مرغوبة من كل الرجال، كانت ترى في ابنتها مفتاحًا لكنز تستطيع أن تنهل منه كيفما تشاء بجسدها الملفوف الذي بدأت ملامحه تظهر للعيان، فقررت عقد صفقة مع الشيطان تبيع فيها ابنتها مقابل المكسب الدائم. ذهبت لجوارجي بطفلتها التي بلغت المحيض لتوها في الثانية عشرة من عمرها لكي يمنحها إكسير الفتنة الدائمة في عيون الرجال، وتلقفها ذلك الشيطان الملعون الذي قص شريط بكارة البنت المسكينة التي كانت مرعوبة مما يحدث لها وهي ترى أمها تنظر إلى ما يحدث لابنتها بارتياح، بل وتساعد جوارجي في فعلته من أجل غايتها الدنيئة التي أقنعت ابنتها أنها في صالحها. كانت الصفقة تقضي بأن تكون عنايات حاضرة على فراش جوارجي وقتما شاء في مقابل أن يسحر أعين الناس بها ويجعلها في نظرهم تبدو وكأنها ربة الإغراء في الكون كله، عنايات تلك الفتاة قمحية اللون جعداء الشعر كثيفة شعر الجسم ذات القوام الملفوف تصبح مغناطيسًا يجذب الرجال، معادلة صعبة في الحالات العادية، لكن عندما تتم الصفقة مع شيطان مثل جوارجي يكون الموضوع سهلًا جدًّا عن طريق العزائم والتمائم التي ترددها دائمًا عنايات لكي تجعل نفسها محاطة بالجن النجس الذي يجذب الرجال إليها، مع تأكيد جوارجي عليها أن تهتم بجسدها وبشكلها حتى لا يبطل السحر، فلا تطول المدة قبل أن تتخلَّص من شعر جسدها الزائد، وتتخلَّص من رائحة ثنايا جلدها. كانت عنايات تحافظ على تنفيذ الوصايا مع حفاظها على عهدها مع جوارجي، حيث تذهب إليه وقتما شاء، إلى أن كبرت عنايات وتحولت من مجرد أداة في يد جوارجي إلى مخلب قد يطاله هو شخصيًّا، ولم يكن جوارجي يريد الصدام معها فلم يسحرها وهو القادر على ذلك، ولكنه كان يحتاجها دائمًا لتثبيت ملكه في الحارة وما حولها، فمهما وصل كيد الجن من قوة فلابد أن يدعمه كيد امرأة مثل عنايات يستخدمها جوارجي في نشر الرذيلة والنجاسة لكي

يستقر له ملكه. شيء ما كان في عنايات ينفِّر منها أصحاب البصيرة، رائحة نتنة تنبعث منها لا يستطيع شمها إلا من كشف الله عنه سحرها، لم يستطع جوارجي أن يخفي هذه الرائحة عنها، بل كانت أفعاله هي السبب في أن تصير لها رائحة معنوية نجسة لا يشمها عوام الناس إذا رأوها. كان الشيخ مستور من هؤلاء الناس الذين استطاعوا أن يشموا رائحة عنايات الخفية؛ فكانت رائحتها تهب على أنفه كلما ذُكرت سيرتها أمامه أو حتى لمحها من بعيد أو وصله أنها تفكر فيه وفي إيذائه. من ضمن من فتنوا بعنايات وانساقوا وراء جمالها المزيف ذلك الشاب الوجيه ابن العائلة المرموقة الذي استطاعت أن توقعه في حبائل شرك سحرها بمعاونة جوارجي، وتزوجها هذا الشاب على غير رغبة من أهله الذين اكتشفوا أن ابنهم مسحور من هذه الشيطانة؛ ففعلوا كل ما في وسعهم من أجل إنقاذه من براثنها، وبالفعل استطاعوا من خلال أحد المشايخ فك هذا السحر عنه، وبعد أن أفاق من سحرها له كان يشم رائحتها النتنة الخفية باستمرار، وعندما كان يلفت نظرها لهذه الرائحة التي يشمها، كانت تثور عليه وتقلب حياته جحيمًا لم يستمر طويلًا بسبب تهديد أهل زوجها لها أنهم سيلفقون لها ولأمها القضايا ويسجنونهما باستخدام نفوذهم في الدولة إن لم تذهب إلى حال سبيلها في هدوء وترضى بالطلاق وحرمانها من ابنها الذي أنجبته من هذا الزواج العجيب، فما كان من عنايات إلا أن رضخت بعد أن استمعت إلى نصيحة جوارجي، الذي كان يبدو أنه يدبر لها مكيدة ستتحقق بعد سنين طويلة؛ فقبلت بحرمانها من ابنها والعودة إلى حياة اللهو التي كانت عليها قبل الزواج واستمرت عليها بعده، ولم تنقطع عن رغباتها حتى بعد أن تزوجت من هذا الشاب الوجيه؛ فقد كانت دائمة الذهاب إلى جوارجي لتنفيذ بنود العقد غير المكتوب المبرم بينهما.

كانت عنايات كلما تذكرت تفاصيل حياتها السابقة تتنهَّد حسرة على حالها وما فعلته فيه أمها التي لم تكسب كثيرًا من وراء إفساد حياة ابنتها، التي بدورها أفسدت حياة الكثيرين عن طريق الغواية والسحر، بل والقتل مثلما حدث مع الشيخ مستور عندما وقف في طريق شيطانها وخلص منها الشاب الذي ترك زوجته وأولاده من أجلها.

ماتت أمها وبقيت هي تحيا حياة المومسات، ولكنها عاهرة بلا أجر؛ فهي التي تدفع أحيانًا لمتعتها، عاشت أسيرة ذليلة لرغبة زائلة لا تستطيع الفكاك منها، بل لا تريد الفكاك منها أبدًا.

***

على مدار سنوات عمري التي تخطت العشرين لم أكوِّن شبكة أصدقاء كبيرة للأسف، وذلك لأسباب عدة، منها طبيعة شخصيتي الحذرة جدًّا في انتقاء الأصدقاء، حيث يكفيني صديق أو اثنين بمواصفات محددة عن الكثير من الأصدقاء الذين لا يعدون كونهم مجرد أرقام في مفكرة تليفوناتي الصغيرة، ولعل أهم أسباب قلة أصدقائي هي طبيعة دراستي التي شغلتني عن العالم بأسره بل حتى عن نفسي، فمن اختار أن يدخل في دوامة دراسة الطب والعمل به فليتحمل نتيجة اختياره.

الوحيد الذي اقتحم عليَّ حياتي وفرض نفسه صديقًا مقربًا جدًّا مني رغم أنه لا تتوافر فيه أغلب الشروط التي فرضتها على نفسي لاختيار أصدقائي هو حمدي أبزيمة، ربما لم يكن حمدي على نفس مستوى الصديق المثالي بالنسبة لي، ولكنه كان يملك شيئًا مهمًّا جدًّا ربما لا يتوافر في التعامل بين الأشقاء وبعضهم، وهو الحب والعطاء بدون سبب مسبق، فهو لا يعرفني إلا منذ شهرين فقط هما كل عمري الذي قضيته في حارة نجوى منذ وصولي، ولكنه كأنه كان ينتظرني منذ سنين طويلة، بل ويعرف موعد وصولي، حمدي

شخص غير فضولي ولكن عينيه مليئتان بالأسئلة التي يستحيي أن يسألها خوفًا من إغضابي أو أن يجعلني أشعر بالتذمر والضيق، ولكن مع ذلك كنت أقرأ السؤال في عينيه ويفاجأ بي أتحدث إليه عما يريد سؤالي عنه، فكان يتعجب أشد العجب ويصارحني بأنه كان سيسأل نفس السؤال، فأرد عليه بابتسامة بسيطة لأنه لا يعلم ولا ينبغي أن يعلم القدرات التي منحني الله إياها، هكذا كان دائمًا جدي يوصيني في طفولتي بأن غلاوة الهدية من غلاوة من يهديها، وإذا أردت أن تحافظ على هدية ما فلا ينبغي أن تكشفها وتعرضها للناس، فما بالك إذا كانت هذا الهدية من واهب النعم؟ لذلك لا ينبغي لك أن تكشف للناس عنها حتى لا تضيع أو تحسد.

لم يكن حمدي من نوعية البشر الذين ينتظرون مقابلًا لعطائهم اللامحدود بشكل يثير التعجب، كانت أخلاقه وتعاملاته هي أخلاق ابن العز الذي دار عليه الزمن وجار، كان على قدر بساطة مظهره عظيمًا جدًّا في جوهره، بسيطًا في العنوان بليغًا في اللسان والبيان، كنت إذا تعاملت معه تذكرت الخل الوفي ثالث المستحيلات الذي جزم العرب أنه غير موجود، ولكن لو كان قدامى العرب رأوا حمدي أبزيمة كانوا وضعوا اسمه بدلًا من الخل الوفي لتصبح المستحيلات الثلاثة هي العنقاء والغول وحمدي أبزيمة.

ذات مرة سألته:

– لماذا تلازمني هكذا يا حمدي وكأنك كنت تنتظرني؟

أصاب السؤال حمدي أبزيمة بشيء من الارتباك والضيق الذي لمحته في عينيه؛ خوفًا من أن يكون ضيفًا ثقيلًا عليَّ؛ فأجابني وعينه في الأرض:

– لو كنت تعتبرني ضيفًا ثقيلًا يا دكتور فأنا ...

قاطعت حمدي دون أن يكمل إجابته:

– لو كنتَ ضيفًا ثقيلًا يا حمدي فيا ليت العالم كله في مثل ثقلك، إنك صديق وفي تحبني دون انتظار مقابل، وهو ما ألمحه فيك، ولكني أشعر كأنك كنت تنتظرني منذ زمن. فاجأني حمدي برد مباغت:

– أنت فعلًا المنتظَر.

تسمَّر لساني ولم أستطع الرد، وخيل إلي للحظات أن حمدي يعرف ما الذي جاء بي إلى هنا، وفي تلك اللحظة رأيت جدي واقفًا مبتسمًا، نظر إليَّ يهز رأسه بالنفي دلالة على أن حمدي لا يعرف التفاصيل، وأشار جدي إلى حمدي برأسه وأشار بيده نحو قلبه، ثم أمسك بردائه الأبيض الذي يرتديه؛ ففهمت أنه يريد القول بأن حمدي شخص ذو قلب أبيض ولا تخف منه، وعرفت أن جدي راضٍ عن علاقتي بحمدي وسعيد لوجوده بجواري. لاحظ حمدي أنني سارح ببصري في الفراغ، فتنحنح مستشعرًا الحرج مستأذنًا في الانصراف حتى لا يتسبَّب في إزعاجي:

– أستأذنك يا دكتور، فلعلك عائد من عملك متعبًا وأنا شخص قليل الذوق.

منعت حمدي من الانصراف ناهرًا إياه:

– حمدي، أنا لم أطلب منك الانصراف ولو شعرتَ أنك ثقيل أو قليل الذوق لصارحتك بنفسي.

بدا الارتياح على وجه حمدي، الذي لم يكن يرغب فعلًا في الانصراف، والذي لم أكن أنًا أيضًا أرغب فيه، فقد تعودت على وجود حمدي في حياتي، الذي اعتاد يوميًّا بعد وصولي إلى المنزل أن يتركني ثلاث ساعات للاستراحة ثم يأتيني بعد أن ينتهي من عمله على ناصية الحارة ويغطي ماكينته التي يفرشها أمام عم كرامش البقال، ثم يتوجه إلى قبلته في شقتي

المتواضعة لكي يفرغ في أذني خلاصة أحداث يومه وما يراه في الشارع من أناس وأحداث.

استطعت في فترة وجيزة من خلال حمدي رسم صورة تفصيلية لكل سكان حارة نجوى تقريبًا من خلال حكاويه المشوقة دائمًا؛ فقد كان يتمتع بأسلوب فريد في الحكي والسرد لا يكتفي فقط بسرد الأحداث، ولكن دائمًا تتخلل حديثه إسقاطات فلسفية وتحليلات للأحداث وللشخصيات، لم أبخل أبدًا على حمدي بفنجان القهوة من البن المحوج (المعتبر) كما يسميه والخاص بي، الذي أشتريه من ميدان الفلكي. ما أجمل شرب القهوة مع فيلسوف كحمدي أبزيمة الذي على قلة تعليمه يملك بصيرة لم يهبها الله لأغلب حملة الدكتوراه.

من خلال حديث حمدي عن سكان الحارة والأحداث التي عاصرها فيها، أو من خلال جلوسه على ناصيتها ومراقبتها، لم ألحظ أكثر من تأثره بما حدث للشيخ مستور النوري، الذي كان حمدي يحبه حبًّا شديدًا لأنه من أهل الله وخاصته، كان أكثر ما جرح حمدي في نهاية الشيخ مستور أن سكان الحارة الذين لم يروا منه إلا كل خير صدقوا الرواية الكاذبة التي رواها لهم شيحة بمعاونة عنايات النجسة كما يسميها حمدي.

– الشيخ مستور كان يغرق أهل الحارة بجوده وكرمه، كان يعطي المحتاج ويتسبب في علاج غير القادر، وكان الجميع يجله ويحترمه لدرجة أن هناك من عرض عليه الترشح للانتخابات لكي يخدمهم أكثر، فلما حدث ما حدث كان أكثر من استفادوا منه بالأمس هم أول من طعنوه وأعانوا عليه وسلموه للطواغيت ولم يمنعوا عنه الأذى، لدرجة أنهم في تحقيقات الشرطة بعد مقتله نفوا أن يكون شيحة هو من قتله، بل ادعوا أنهم وجدوه مقتولًا في الزاوية بعد طلوع النهار.

كان حمدي يحكي وهو يكاد يبكي من فرط التأثر لما حدث للرجل، واحترمتُ شعوره ولم أقاطعه لتأثري أنا أيضًا، ولعلمي بما حدث للشيخ مستور من جدي الذي أتاني وحكى لي ما حدث له، وبعد أن انتهى حمدي وزال عنه توتره وتأثره قلت له في خبث:

– لعل هذا الشيخ كان بينه وبين الله ذنب خفي فعاقبه الله على ذلك بأن سلط عليه الظلمة ليقتلوه، ومنع عنه الناس أن يحموه.

نظر إليَّ حمدي بشيء من الاستنكار أن أدعي على الشيخ مستور النوري مثل ما أقول، فأجابني من فوره:

– بل لعل هذا الرجل كان بينه وبين الله عمل صالح خفي فأراد الله أن يسلط عليه سفهاء الأرض لكي يعطيه حقه وقدره بين أهل السماء.

أعجبني رد حمدي وبلاغته بشدة، وتذكرت جدي عندما أعجبته بلاغة خادمه فأطال الحديث معه؛ فقررت أن أفعل هذا مع حمدي لكي أستزيد من بلاغة هذا الأبزيمة، فقلت له في تساؤل يبدو أنه أبله وساذج:

– أنت تعتبره وليًّا من أولياء الله، أفيفضح الله أولياءه بأن يسلط عليهم من يهينهم ويأفكهم؟

رد عليَّ حمدي بمنتهى التلقائية:

– أولم يأفك المنافقون أُمَّنا عائشة ويتهموها زورًا؟ إن هذا الرجل بريء، وكل أهل حارة نجوى يعرفون أنه بريء، ولكنهم دائمًا يبحثون عن الكذب ويسعون وراءه ليجدوه ويؤمنوا به مع أن الصدق يكون أمامهم، ولكنهم دائمًا ما يستمتعون بالكفر به، فآفة قومنا الزور والبهتان.

بعدما سمعت هذا الكلام المنطقي من حمدي أبزيمة صمتُّ ولم أرد على كلامه، فيبدو أن من هم مثلي ليسوا مؤهلين للرد على من هم مثله،

فاكتفيت بهذا الفاصل، وقمت لإعداد دور ثانٍ من فناجين القهوة التي ليست خسارة في هذا الفيلسوف العجيب.

انتهى حمدي من شرب فنجان القهوة الثاني ونظر في ساعته فوجد أن الساعة اقتربت من العاشرة؛ فانتفض وكأن عقربًا لدغه واستأذن في الانصراف حتى لا يؤخرني عن موعد نومي على وعد بلقاء في اليوم التالي.

انصرف حمدي وبعد أن أغلقت الباب وبدأت في لملمة فناجين القهوة لأغسلها لفت نظري فنجان حمدي الأخير، ودفعني الفضول لأن أقرأ فنجانه مع أنه لا يصح أن أقرأ فنجانه دون إذنه، إلا أن شيئًا ما دفعني لأن أستطلعه؛ فنظرت فيه ودققت ... ثم ابتسمت.

***

لم تكن ليلة عادية تمر كسابقاتها ولكنها كانت ليلة عصيبة جدًّا، فبعد انصراف حمدي وانتهائي من بعض أموري من مراجعة وردي القرآني والنظر في بعض المراجع الطبية تحضيرًا ليوم جديد من العمل كان لا بد لي من الاستسلام للنوم الذي أبى أن يأتيني إلا بعد الكثير من الأرق، وبعد منتصف الليل بشيء يسير بدأت أستسلم للنعاس الذي لم يمكث في جفوني كثيرًا حتى استيقظت على صوت طرق عنيف على زجاج الشباك الوحيد في غرفتي، وقمت غير مدرك لما يحدث، فرأيت شبح طائر يضرب بجناحيه بجنون على زجاج الشباك ويصرخ صرخات عنيفة، بعد أن أفقت قليلًا بدأت أميِّز أنه خفاش كبير الجناحين يبتعد عن الزجاج ثم يأتي مندفعًا إليه بكل قوته، ويخبط بجناحيه بعنف شديد ثم ينقر بفمه على الزجاج وكأنه يريد أن يكسره.

تسمرت مكاني من هول المفاجأة الغريبة، وتذكرت بعد وقت طويل من الخوف أن الخفاش كائن ليلي لا يظهر في الضوء وربما يخيفه الضوء

فيبتعد؛ فأسرعت إلى مفتاح الكهرباء وحاولت تشغيله فاكتشفت أن الكهرباء مقطوعة؛ فتذكرت أن معي كشافًا صغيرًا فبحثت عنه بصعوبة شديدة في الغرفة المظلمة حتى وجدته بجوار السرير على الأرض فقمت بتشغيله وتوجيه الضوء إلى الشباك والخفاش المجنون ما إن رأى الضوء حتى صرخ صرخة كبيرة وابتعد كأنه طُعِن بسكين.

بعد انصراف الخفاش تنفَّست الصعداء وجلست على طرف السرير بعد أن هرب النوم من جفوني، وبدأت في قراءة أوراد وآيات منجيات من هذا الخوف الذي حل بي، واستمر الوضع بي هكذا جالسًا على طرف السرير حتى فوجئت بنفسي أستيقظ على ضوء الشمس الضارب في وجهي ولا أدري كيف ومتى نمت، ولكنه حدث والحمد لله.

كان أول ما جال بخاطري بعد الاستيقاظ أن أطمئن على زجاج الشباك هل حدث به شيء أم لا، وعندما توجهت نحوه فوجئت بأن هناك دماءً موجودة على الزجاج يبدو كأنها كانت من فم الخفاش ولكنها لم تكن دماءً عشوائية فبدا وكأن هناك شيئًا ما مكتوبًا بها، وعندما فتحت "ضرفتي الشباك" لأرى المكتوب بالدماء وجدت المكتوب بالدماء عبارة عن ... اسمي، عبد العليم بن اعتماد.

***

استيقظ الفتى الصغير على صوت أبيه الخشن الأجش يوقظه من نومه ويسبه بأقذع الألفاظ:

– استيقظ يا بن الحرام، استيقظ يا لعنة الرب والقديسين لي.

يقوم الفتى كل يوم على هذا الموشح دون زيادة أو نقصان، يرتدي ملابسه الخشنة القديمة الممزقة، يتحسس فراشه الذي هو عبارة عن طبقتين من

الخيش الذي تآكل بفعل العتة، يتجوَّل بعينين يملؤهما النعاس في بيته الريفي المتهالك القابع في إحدى محافظات صعيد مصر يتلمَّس بضع قطرات من الماء يغسل بهما وجهه الشاحب البائس من قلة التغذية، يسأل الرب في سره أن يجد أي لقيمات يقيم بهنَّ صلبه قبل أن ينخرط في العمل الشاق المهلك الذي يهرسه فيه والده، ذلك البخيل الملعون الذي ترك أمه تموت مبطونة دون أن يأتي لها بحكيم أو بأي دواء قد ينقذها؛ لبخله الشديد وكرهه لزوجته التي أنجبت له ذلك الفتى الذي لا يشبع أبدًا من طعام. ينظر جوارجي إلى والده مرقص نظرة غل مملوءة بالكراهية لما تسبب من شقاء له في حياته البائسة التي لا يعرف لها طعمًا ولا طقسًا إلا التخديم على ذلك البخيل المعتوه الذي يستهلك ولده جوارجي في توصيل اللبن ومنتجاته التي يصنعها بنفسه في بيته إلى أهل القرية في بيوتهم، وكم اشتكى له جوارجي من صعوبة العمل وثقل الإناء، واقترح عليه مرارًا أن يشتري عربة كارو يجرها الحمار الذي يملكه والده ويحمل عليها اللبن ومنتجاته، فكان رد والده المحفوظ الدائم:

– ولماذا أهلك الحمار وأتعبه ما دام الرب رزقني "بحلوف" يتحمل أضعاف ما يتحمله الحمار ويأكل أضعاف وزن الحمار؟

كم تمنى جوارجي أن يتخلص من هذا الكائن المسمى زورًا والده، فهو ما دام لا يشعر به في حياته فعدم وجوده يتساوى مع وجوده، بل قد يكون أفضل. ينطلق إلى رحلته اليومية حاملًا طاولة خشبية قديمة فوق رأسه يحمل فوقها اللبن ومنتجاته، ويدور على أهل القرية الذين يتعاملون معه ليبيع لهم، وغير مسموح له أن يحصِّل منهم قيمة ما يشترونه منه لأن والده لا يثق به، فيقوم هو في نهاية كل أسبوع بالذهاب إليهم في بيوتهم محصِّلًا ما شراه لهم جوارجي.

لم يكن الجهد على هذا القدر فقط، ولكن المعاناة الحقيقية أن حجم المنتجات يكون كبيرًا ولا يستطيع جوارجي توزيعه في دور واحد فقط، فكان يقطع رحلات ما بين بيته وباقي بيوت القرية يحمل في كل رحلة دفعة فوق الطاولة ثم يعود بها، ويا ويله لو انسكب أي شيء أو تلف؛ فتكون ليلته أسود من الليل الحالك.

كم تمنى جوارجي أيضًا أن يقوم بتسميم البهائم التي يعتبرها سبب كل هذه المهانة التي يجدها من والده، فيستريح من هذا العناء من ناحية ومن ناحية أخرى يموت والده من حسرته على بهائمه فيتخلص جوارجي من الجحيم المضاعف.

لم تقتصر رحلات جوارجي على أهل القرية فقط، ولكنه أيضًا كان يصعد الجبل المطل على قريته ويحمل منتجات والده إلى الدير الواقع فوق الجبل لكي يعطي ما يحمل لرهبانه الذين كان والده يُهديهم منتجاته طمعًا في أن ينال بركاتهم، فيرضى الرب عنه ويبارك له ماله ورزقه.

كان جوارجي يلاقي معاملة ليست بالسيئة من رهبان الدير الذين كانوا يتلطفون معه ويطعمونه ويسقونه؛ لذلك كان جوارجي يحب الصعود إلى الدير باللبن والجبن؛ لأنه يعلم أنه سيأكل الخبز والتمر المجفف الذي لا ينقطع عن الدير صيفًا أو شتاءً.

في آخر الدير كانت هناك صومعة لراهب كبير في السن يدعى (إثناسيوس)، كان معتزلًا الدنيا بأسرها في هذه الصومعة الصغيرة داخل الدير، وكان الرهبان ينتهزون فرصة وجود جوارجي عندهم لكي يرسلوا معه الطعام والمؤن إليه في صومعته الصغيرة، وكان إثناسيوس رجلًا طاعنًا في السن لا يكاد يرى بعينيه، ولكنه كان يعرف جوارجي ويشعر بقدومه عندما يأتي إليه، وكان يحب جوارجي، خصوصًا عندما عرف حكايته منه فتعاطف

معه، وكان يعطيه أحيانًا بعض مقتنياته الصغيرة أو بعض قطع النقود التي معه ولا يحتاجها في الدير، فيبيع جوارجي هذه المنتجات ويحتفظ بنقودها في مكان بعيد عن أعين والده (مرقص اليهودي) كما كان يسميه؛ حتى لا يأخذ منه النقود ويحرمه منها.

لم تكن قطع النقود فقط هي التي يستفيد بها جوارجي في رحلته إلى إثناسيوس، ولكنه كان يعلمه أيضًا بعض أمور السحر التي كان إثناسيوس يجيدها، فكان يعلمها ويلقنها لهذا الفتى علها تنفعه في حياته.

ذات مرة أسر إثناسيوس إلى جوارجي بسر قائلًا له:

– لقد اقترب أجلي وقبل أن أتنيح أريدك أن تخرج من هنا ببعض المخطوطات القديمة التي أحتفظ بها تحت تراب هذه الصومعة وتحتفظ بها لنفسك؛ فأنا إن مت إما أن تقع في يد أحد هؤلاء الرهبان الذين يتمنون وينتظرون موتي اليوم قبل الغد، وإما أن تضيع ولا يستفيد بها أحد أبدًا، خصوصًا أنني أوصيت أن أدفن في هذه الصومعة وألا يدخلها أحد أبدًا بعد نياحتي.

كانت المشكلة الكبرى في كيفية خروج جوارجي بهذه المخطوطات من الصومعة والدير دون أن يشعر به أحد أو يلاحظها، فكان أن لجأ إثناسيوس لحيلة، وهي أن يقوم جوارجي بإخراج هذه المخطوطات على مراحل في كل مرة يأتي إليه فيها، يقوم بلف مخطوطه على جسده تحت ملابسه لكي يخرج به دون أن يلفت إليه الأنظار، واستمر الحال هكذا خمسين مرة بخمسين مخطوطة يخرج بها جوارجي من الدير مهربًا إياها تحت ملابسه ويذهب ليخفيها بعيدًا عن الأنظار، والعجيب أنه في اليوم الواحد والخمسين تنيح الراهب إثناسيوس بعد أن نقل هذه المخطوطات من ملكيته إلى ملكية ذلك الفتى الصغير.

بعد تنيح إثناسيوس حدثت حركة غير عادية في الدير للبحث عن تلك المخطوطات التي كان أغلب أساقفة الدير ورهبانه يعلمون بوجودها لدى إثناسيوس، لدرجة أنهم فتشوا صومعته وقلبوها رأسًا على عقب للبحث عنها قبل أن يقوموا بدفنه لكن دونما جدوى، فقد ذهبت جهودهم كلها سدى، ولم يرتق لفكر أي منهم أن يكون هذا الفتى بائع الجبن هو الذي استحوذ عليها.

عكف جوارجي على فك طلاسم هذه المخطوطات، حيث إن إثناسيوس علمه كيف يقرؤها ويفهم المكتوب فيها، وهو عبارة عن طرق قديمة جدًّا في أصول السحر وتعاويذه، والتي يعود بعضها إلى هاروت وماروت أول من علم الناس السحر على وجه الأرض.

تعلم جوارجي الكثير من أصول السحر في سن مبكرة للغاية، ولكنه لم يكن ليفصح عن هذا في هذه السن الصغيرة، وكان لا بد له من حقل تجارب يجرب فيه ما تعلمه من السحر من أعمال تضييق الرزق وأعمال إذهاب العقل بل وأعمال الموت، فكان أول ما تفتق عنه ذهنه أن يقوم بعمل موت لإحدى أبقار والده التي يعتبرها جوارجي سر شقائه، وبالفعل سحر جوارجي البقرة وتبدل حالها، فتوقفت عن الحليب وضعفت مفاصلها؛ فلزمت الأرض لا تستطيع الحركة، وامتنعت عن الطعام، وهزلت وضعف جسدها، حتى إن مرقص كان يبكي على حالها. أخذ جوارجي يستمتع بحال والده التي وصل إليها من خوفه على ماله وعلى بقرته التي يحبها أكثر من ابنه، فلما أحس بأنه تشفّى في والده بما يكفي فك سحر الموت عن البقرة، ففوجئ والده بصحتها تعود إليها وبالحليب ينفجر من ضرعها كأنها تعوض الأيام التي توقفت فيها عن الحليب؛ مما جعل والده يكاد يجن ويذهب عقله من الفرحة.

أحس جوارجي أخيرًا بالقوة التي ستمنحه الهيبة وملك رقاب الناس ومصائرهم، فلم يعد يكترث بسخافات والده، ولم يعد يشعر بالتعب في توصيل منتجات والده؛ لأنه بدأ في تسخير الجن الذين يحملون عنه الأشياء في الوقت الذي يبدو هو أمام الناس حاملًا إياها.

لم يعش مرقص – والد جوارجي – كثيرًا، فمات خلال سنوات قليلة تاركًا لجوارجي ثروة لا بأس بها جعلته يمتلك القوة الحسية المتمثلة في السحر والقوة المادية المتمثلة في المال الوفير الذي تركه له هذا البخيل البغيض إلى قلبه.

كان أمام جوارجي حلان: إما أن يستمر في القرية وينتقل من مرحلة إلى أخرى، ولكن هذا سيلفت له الأنظار، خصوصًا أن رهبان الدير ما زالوا يبحثون عن المخطوطات، وبلغه من خدامه من الجن أنهم علموا أنها معه، وإما أن يترك هذه القرية ويرحل ليستقر في مكان بعيد لا يعرفه فيه أحد يبدأ فيه حياته، وبالفعل نزح إلى مصر، واستقر في هذه الحارة النائية التي بنى فيها بيتًا وسكنها، وأصبح جوارجي الساحر الذي يعتبر نفسه إلهًا.

***

كانت صدمتي كبيرة عندما قرأت اسمي مكتوبًا بالدم على زجاج الشباك من أثر هذا الخفاش اللعين، ساعتها أدركت أني مقصود بها، وليس الموضوع مجرد مصادفة وخفاش أحمق ضل طريقه إلى شباك غرفتي لكي يصطدم به.

شيء غريب يحدث كلما تذكرت عيني الخفاش وهو يصطدم بالشباك وينظر إليَّ، أرى في عينيه العين البيضاء التي تطاردني منذ وصولي إلى حارة نجوى، إنه هو الشخص المجهول الذي يراني ولا أراه، لماذا يفعل ذلك معي وأنا لا أعرفه؟ هل يكون صاحب هذا العين هو السبب في وجودي في هذه الحارة التي وجدت نفسي مجبرًا على الذهاب إليها؟ لماذا لم يعطني

جدي تفاصيل أخرى حول سبب وجودي في هذا المكان اللعين؟

– دكتور عبد العليم.

أفقت من شرودي وتفكيري في أحداث الليلة العجيبة على صوت الدكتور محسن زميلي في العمل الذي عرفت أنه يقف أمامي منذ أكثر من عشر دقائق يحاول لفت نظري وأنا في عالم آخر.

– هل تناديني يا دكتور محسن؟

ضحك محسن حتى كاد أن يقع على الأرض من كثرة الضحك.

– أناديك؟ لقد وصل صوتي إلى ميدان العتبة يا دكتور.

– معذرة فلم أنم جيدًا ليلة أمس.

سحب محسن كرسيًّا وجلس أمامي وأمسك بمفكرة صغيرة وفتحها ممسكًا بقلمه متقمصًا دور الطبيب النفسي الذي نراه في السينما، وبدأ في سؤالي:

– منذ متى تأتيك هذه الحالة يا دكتور عبد العليم؟

نظرت إليه مستغربًا، فأكمل قائلًا:

– لا تقلق؛ فجميع أسرارك التي سأسمعها منك الآن لن تخرج من هذا الباب، ولكنها ستكون يوم الجمعة القادمة في برنامج حياتي على القناة الأولى مع السيدة فايزة واصف.

ساعتها لم أتمالك نفسي من الضحك؛ فالدكتور محسن يتميز بخفة ظل كفيلة بإخراج أتعس البشر من حالة الكآبة إلى حالة السعادة وانشراح الصدر، وبعد أن هدأت عاصفة الضحك التي اجتاحتني سألني الدكتور محسن بشيء من الجدية:

– بالحق، ما الذي يشغل بالك لهذه الدرجة؟

لوهلة أوشكت أن أحكي للدكتور محسن ما حدث لي في الليلة العصيبة الفائتة، ولكني تراجعت لأن شخصية مثل محسن له القدرة على قلب الجد هزلًا، فما بالي لو تحدثت معه في شيء لا يصدقه أغلب المتعلمين:

– لا أبدًا مجرد أرق وقلة نوم لعدم تعودي بعد على الشقة الجديدة.

– خسارة.

أجبته متعجبًا:

– خسارة؟

أجابني بجدية أكثر:

خسارة أن قصتك لن تظهر في برنامج حياتي.

ضحكت مرة أخرى حتى أفقت من كثرة الضحك، فبادرني الدكتور محسن بطلب:

– أريدك في خدمة يا دكتور.

– برنامج عالم البحار هذه المرة بدلًا من برنامج حياتي؟

ضحك محسن، ولكنه استدرك جادًّا هذه المرة:

– لا فعلًا أنا جاد هذه المرة، هناك حالة تخصني أريدك أن تفحصها.

تعجبت من هذا الطلب، خصوصا أن الدكتور محسن من الأطباء المهرة في المستشفى، فلماذا يطلب مني أن أفحص حالة تخصه بدلًا من أن يفحصها هو:

– ولماذا لا تفحصها أنت يا دكتور محسن؟

لمحت حزنًا على وجه محسن لم أعتد على رؤيته من قبل عليه لدرجة أن دموعه تحجرت في عينيه، فبادرته معتذرًا:

– أنا آسف يا دكتور ولكني ...

قاطعني محسن قائلًا:

– لا داعي للاعتذار، ولكن عندما تكون الحالة لشخص عزيز عليك فمن الوارد جدًّا أن تعجز عن تشخيصها وعلاجها.

تفهمت حالة الدكتور محسن، وتوقعت أن تكون هذه الحالة لشخص قريب جدًّا إلى قلبه لا يطاوعه قلبه أن يعترف أنه مريض نفسي، فبادرته:

– متى تحب أن أرى هذه الحالة؟

***

أثناء الفترة القصيرة التي قضيناها في الطريق إلى بيت الحالة حدثني عنه محسن بشكل مفصل بدون الدخول في تفاصيل كثيرة، كانا صديقين من الطفولة، تربيا معًا في نفس الحي قبل أن ينتقل والده إلى الحي الفاخر ليسكنوا فيه، ولكنهما ظلا على تواصل مستمر حتى تخرجا في الجامعة، فسلك محسن الطب، وفوجئ بصديقه مكرم يسلك الكهنوت، وكم كانت صدمة محسن الذي يعرف مكرم جيدًا ويعلم أن حياة الكهنوت من المستحيل أن تتوافق مع طبيعة مكرم المحب للانطلاق وعدم التقيد بأي قواعد أو أصول، ولكنه لم يجرؤ على مناقشة صديق عمره في هذا الموضوع؛ فهو يعلم مدى حساسية المسيحيين عند التدخل في شئونهم الدينية أو علاقتهم بالكنيسة؛ فآثر الصمت، وظلا على تواصل بشكل خفيف بعد أن أصبح مكرم كاهنًا، إلى أن فوجئ محسن باتصال من والدة مكرم وهي تبكي في انهيار وتتوسل إليه أن يأتي ليرى صديقه الذي صعق من منظره عندما رآه

ذابلًا شاحبًا سارحًا في عالم آخر غير الذي نحيا فيه، وعجز محسن عن التشخيص الحقيقي لحالة صديق عمره التي تبدو في ظاهرها حالة صرع، ولكنه في قرارة نفسه يعلم أن هناك سرًّا آخر غير السبب العلمي أو الطبي، ولكنه لا يعلم هذا السر.

– ولكن لماذا توقعت أن أستطيع تشخيص حالة مكرم؟

نظر إليَّ محسن مبتسمًا وهو يقود سيارته وأنا أجلس بجانبه:

– إنك رجل من أهل الله يا عبد العليم.

نزلت إجابة محسن على أذني كالصاعقة، فظننت أنه يعلم الحقيقة التي لا يعلمها أحد إلا الله وجدي الشيخ خطاب، ولكنه أكمل حديثه:

– إحساسي يراودني أنك الوحيد الذي من الممكن أن يحل مشكلة مكرم، ولا تسألني عن سبب هذا الإحساس.

في هذه اللحظة لمحت جدي الشيخ خطاب في مرآة صالون السيارة يجلس خلفنا على الكنبة الخلفية مبتسمًا لي؛ ففهمت لماذا توسم محسن الحل عندي.

وصلنا إلى منزل مكرم في الحي الهادئ الفاخر من أحياء القاهرة التي يسكنها الأعيان، وما إن دخلنا حتى استقبلتنا والدته التي بدا عليها الحزن والانهيار لما آل إليه حال وحيدها، وفور رؤيتها محسنًا ارتمت في حضنه باكية:

– مكرم يضيع مني يا محسن ولا أستطيع إنقاذه.

بدا التأثر الشديد على محسن الذي منع دموعه من الانهمار، وحاول أن يهدئ من روع والدة مكرم مع أنه كان يحتاج إلى من يحاول تهدئته هو:

– لا تخافي، لن أترك مكرم حتى يشفى بإذن الله.

لاحظت والدة مكرم أن محسنًا ليس بمفرده؛ فبدا عليها الحرج من أنها لم ترحب بالضيف الآخر:

– اعذرني يا محسن لم أرحب بضيفك، أهلًا وسهلًا يا بني.

– أهلًا يا أمي.

رد عليها محسن:

– الدكتور عبد العليم زميلي في العمل ومن الناس المحترمة، وسيساعدني في علاج مكرم إن شاء الله.

توجهت والدة مكرم نحوي بالشكر والدعاء:

– باركك الرب يا ولدي، سيكون جميلًا لن أنساه ما حييت لو عاد إليَّ ولدي.

– ليست هناك جمائل بين الأهل، هل نسيتِ أني تربيت على يديك أكثر من والدتي؟

قالها محسن فارتمت والدة مكرم في حضنه مرة أخرى رابتة على كتفه في امتنان، ودعتنا للصعود لغرفة مكرم في الدور العلوي:

– يمكنكما الصعود إليه فهو مستيقظ الآن، لكنه سارح في ملكوت الرب كعادته ولا يشعر بمن حوله.

صعد محسن الدرج وصعدت خلفه ينتابني إحساس غريب، شعرت أن مكرم ليس مريضًا نفسيًّا ولكن الموضوع له علاقة بشيء آخر غامض، كثير من المرضى الذين يعرضون على الطبيب النفسي ربما يكون المرض النفسي هو آخر شيء قد يصيبهم، وهذه مشكلة أقابلها باستمرار، فكم من مرة

يدخل عليَّ مريض للكشف لأفحصه؛ فأجد أن الشيطان يسكن جسده ومن المستحيل أن أصارح المريض بهذا الموضوع، فبالرغم من الثقافة الشعبية المصرية المتقبلة لموضوع المس والسحر والعكوسات الأرضية إلا أن وضعي كطبيب نفسي يمنعني أن أتحدث في مثل هذه الأمور؛ فالمفترض أنني رجل علم وطب ورجل الطب مثل رجل الرياضيات الذي يعيش حياته بين الأرقام والمعادلات الرياضية والمسلمات التي تقول إن مجموع 1+1=2 وليس من المحتمل أن يكون ناتج هذا الجمع أكثر من ذلك أو أقل؛ لذلك فالطبيب دومًا يفترض مشكلات مادية ويضع لها حلولًا مادية كما درسنا في الكتب والمراجع، وليس في الإمكان أن أصارح المريض أنه ملبوس أو مصاب بمس دون أن أكتب له دواءً يشفيه، معادلات لها مدخلات ولها مخرجات ومدخلاتها معروفة؛ لذلك يجب أن تكون مخرجاتها معروفة أيضًا على الرغم من أن كبار أساتذة الطب النفسي قد يكونون موقنين بما أقول ومقتنعين تمامًا به، ولكن عند الجد تجدهم ينفون وجود مثل هذا.

طرق محسن باب غرفة مكرم وانتظر إجابة فلم يجد؛ فاضطر لفتح الباب وأشار لي بالدخول خلفه، فدخلت، ووجدت مكرمًا جالس في ركن غرفته ينظر من الشباك في الفراغ والمجهول.

– كيف حالك يا مكرم؟

قالها محسن منتظرًا أي رد فعل من مكرم الذي ظل شاردًا في الفراغ دون أن يلتفت حتى للصوت؛ فنظر إليَّ محسن في أسى من حالة صديق عمره التي وصلت لمستوى ميئوس منه، فأشرت له أن يتركني بمفردي مع مكرم ويخرج من الغرفة ففعل، وأغلق الباب من خلفه، وسحبت مقعدًا خشبيًّا وجلست بجانب مكرم أمام الشباك متأملًا وسارحًا لعل الخبر يأتيني بوصف حالته التي قطعًا ليست مرضًا نفسيًّا يفضي إلى صرع كما عرفت من

محسن، انتظرت قليلًا حتى جاء الفرج، وذهلت عندما رأيت العين البيضاء التي تطاردني تنظر إلى مكرم وتنظر إليّ، لا بد أن صاحب العين البيضاء هو من تسبب في حالة مكرم هذه، ما الذي أوصلهما ببعض؟ ولماذا ذهب مكرم إليه أو ذهب هو إلى مكرم؟ وما هي العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين شخص كمكرم وشخص كصاحب العين البيضاء؟ أسئلة كثيرة جدًّا تصارعت في رأسي حتى أتتني كل الأجوبة وسمعت في أذني نص الحوار الذي حدث بينهما في غرفة صاحب العين البيضاء بالحرف الواحد مع شرح تفصيلي لما حدث ولماذا ذهب مكرم إلى هناك، وأنه تعرض لمؤامرة من كهنة داخل الكنيسة ليتخلصوا منه؛ فأرسلوه إلى حارة نجوى و... و.... و.

دقائق طويلة مرت وأنا أتلقَّى كل المعلومات، ولا تزال تلك العين البيضاء موجودة في المكان، حتى رأيت وكأنَّ سيفًا يخرق هذه العين فسال منه الدم، ثم تلاشت وذهبت من المكان نهائيًّا، بعدها هبت ريح خفيفة معطرة ملأت الغرفة، ثم فوجئت بيد توضع على رجلي فنظرت فإذا بها يد مكرم الذي التفت إليَّ مبتسمًا:

– هل أنت زميل محسن في العمل؟

ساعتها لم أملك إلا الرد بابتسامة المسرور الذي شعر بإنجاز شيء كان من المستحيل إنجازه، وهززت رأسي بالإيجاب، فأكمل مكرم حديثه إليَّ بجملة قصيرة أذهلتني وصدمتني:

– لقد كنت أنتظرك.

***

خارج الفيلا التي يسكن بها مكرم لمح الحارس سيارة تاكسي تقف على الجانب الآخر من المنزل، تجلس على الكنبة الخلفية بها امرأة يبدو على

مظهرها أنها من الطبقة الشعبية، تنظر بلهفة وترقب إلى الفيلا وكأنها تنتظر شيئًا ما أو شخصًا ما، اقترب منها الحارس ولكنها كانت في عالم آخر فلم تفق إلا على رأس الحارس متدليًا داخل السيارة من الشباك الخلفي المعاكس للشباك الذي تنظر منه يسألها في استنكار:

– لماذا تقفين هنا؟ هل تنتظرين أحدًا يا ست؟

انتبهت عنايات لوجود الرجل المفاجئ؛ مما أصابها بالفزع وجعلها تتفل في صدرها من "الخضة" ناهرة الرجل بغلظة:

– كيف تقتحم السيارة هكذا يا عديم المفهومية؟

نظر إليها الحارس في بلاهة مستنكرًا سؤالها، ثم رد عليها ساخرًا:

– عدم المؤاخذة، هل اقتحمت عليكِ حمام منزلك؟ إنك تجلسين هنا في سيارة أجرة في شارعٍ عام.

نظرت إليه عنايات في غضب:

– وماذا تريد مني الآن؟

– أنا لا أريد، ولكن يبدو من شكلك وانتظارك أنك من تريدين؟ لماذا تقفين هكذا أمام بيوت الناس؟

– وأنت بأي صفة تسألني؟

ضرب الرجل كفًّا على كف من التعجب وأجابها في سخرية:

– وأنت بأي صفة تقفين هنا؟ هل لا سمح الله تبحثين عن فيلا للإيجار؟ من الممكن أن أفيدك فأنا حارس الفيلا التي تحملقين فيها من الصباح، ولو رغبتِ في تأجيرها من أصحابها فمن الممكن أن أتوسط لكِ عندهم.

نظرت عنايات للحارس في يأس من أن يتركها وحالها وتأففت، ثم حولت نظرها إلى السائق:

– اطلع يا أسطى.

تحرك السائق بينما وقف الحارس متعجبًا من سلوك هذه المرأة الغريبة:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، يبدو أنها تبحث عن عمل كخادمة، ليتها صارحتني؛ فكثيرون طلبوا مني البحث عن خادمة لهم.

منذ خروج عبد العليم من الحارة في الصباح متوجهًا إلى عمله كانت عنايات في ذيله تراقبه بجنون تريد أن تلفت نظره بأي شكل، خصوصًا أنه حتى لم يلمحها طوال شهرين هما عمر سكنه في هذه الحارة التي تجمعهما.

من هذا الذي أفلت من براثن عنايات طوال هذه الفترة؟ هي تعلم أن الوصول إليه والإيقاع به يعتبر من المستحيلات، إنه محجوب محفوف بحماية من نوع خاص لا تستطيع اختراق الحجب من حوله بأساليبها الأرضية وسحرها الذي تتبعه مع كل الشباب، ومع علمها باستحالة غوايته فهي لم تيأس، وإذا كان كيد الشيطان ضعيفًا فإن كيد النساء أقوى منه بمئات المرات، ولقد وضعته هدفًا لها وتسعى بكل قوتها ومكرها ودهائها للوصول إليه والإيقاع به، حتى لو كانت فتكت بمن هو أكثر منه جمالًا وقوة، لكن لا بد أن ترضي غرورها، فكيف لهذا الصبي الذي تفصله خطوات عنها أن يكون أصعب عليها من الذين كان بينهم وبينها أميال؟ لا بد أن تلفت نظره بأي شكل حتى لو أضاعت عمرها كله وراءه.

***

– لا تتعجب فقد رأيتك من قبل وأنتظرك.

قالها مكرم وأنا ما زلت مندهشًا، كيف ومتى رآني ولماذا ينتظرني؟ قبل

أن أسأله أجابني:

- سأحكي لك كل شيء وبالتفصيل.

عاد مكرم برأسه إلى الخلف وسند على الكرسي ومد رجليه إلى الأمام وجلس في وضع الاسترخاء كأنه يجلس على الشيزلونج في عيادة طبيب نفسي، وحكى لي كل تفاصيل حياته منذ كان صغيرًا حتى لحظة شلحه من الكهنوت، والتي كان يعتبرها ميلادًا جديدًا له وحياة جديدة بدأت، وكانت أهم تفصيلة فيما رواه لي هي علاقته بصاحب العين البيضاء وماذا حدث بينهما وكيف رآني:

- عندما هممت بالخروج من عند جوارجي، وبعد أن أمسك معصمي وسرت في جسدي برودة غريبة وتركني حاولت الخروج مسرعًا، فشعرت بأن هناك شيئًا ما يعرقلني، فوقعت على الأرض، وفي أثناء وقوعي حدث شيء عجيب؛ رأيتك أمامي بنفس شكلك ونفس ملامحك تنظر إليَّ مبتسمًا وتمد يدك إليَّ لتساعدني على النهوض، كل هذا حدث في أجزاء من الثانية، وعندما ساعدتني على الوقوف مرة أخرى رأيتك كأنك تدفعني للخروج من المكان وتهمس في أذني قائلًا:

- سآتيك ولكن ليس بعد.

خرجت ساعتها وأنا لا أدري كيف وصلت إلى بيتي مرة أخرى، فقدت كل التفاصيل في عقلي وذاكرتي إلا صورتك وصوتك ووعدك لي، نوبات صرع كانت تنتابني بين الحين والآخر؛ لذلك تم شلحي من الكهنوت بناءً على تقرير الطبيب النفسي للكنيسة، وعند كل نوبة صرع كانت تأتيني كنت تأتيني أنت معها وتبتسم وتعدني بالمجيء إليَّ مرة أخرى، لم أكن مصدقًا ما أراه ولم أكن أنتظر تحقيقه؛ فقد فقدت الإيمان بالأمل، ولكن يبدو أن ما كفرت به أمس قد تحقق اليوم.

من طبيعة عملي أن أظل مستمعًا لمن يتحدث معي، فأحيانًا يكون المريض النفسي ليس به علة إلا الاحتياج لمن يسمعه؛ لذلك لم أقاطع مكرم أثناء حديثه الذي امتد لساعتين حتى باغتني بسؤال:

– أين تسكن يا دكتور؟

في الحقيقة لم أعرف كيف أجيب مكرم، وأخبره أنني أسكن في الحارة التي كانت سببًا في نكبته، ولكني اضطررت لمصارحته:

– أسكن في حارة نجوى.

نزلت الإجابة على رأس مكرم كالصاعقة، ونظر إليَّ في ذهول غير مصدق أنني أسكن في هذا المكان:

– يجب أن ترحل من هناك، هذه الحارة ملعونة.

قالها وعيناه تكاد تخرج من مقلتيه غضبًا على الحارة ومن فيها، فسألته في هدوء:

– ما الذي جعلك تجزم بأن هذه الحارة ملعونة؟

قام من مكانه وتحرك قليلًا في الغرفة وكأنه ينفث عن شحنة غضب داخلية، ثم تنهد في عمق قبل أن يقف أمام نافذة غرفته مشبكًا يديه خلف ظهره شاردًا في الفراغ قائلًا:

– عندما كنتُ كاهنًا كانت حارة نجوى في النطاق الجغرافي للكنيسة التي أخدم فيها، وكان المسيحيون من سكانها يأتون إلينا في الكنيسة للصلاة والاعتراف، وكل من قابلتهم من مسيحيي الحارة وتعاملت معهم كانت سلوكياتهم غريبة وذنوبهم أغرب، فذات مرة أتتني امرأة تسألني هل من الممكن أن يغفر الرب لها ذنبها؟ وعندما سألتها عن ذنبها قالت أن

تسمح لامرأة أخرى بمشاركتها في زوجها خوفًا من بطشها وأذاها.

بدا عليَّ الذهول لما سمعته من مكرم، ولكنه لم يلحظ هذا الذهول عليَّ؛ فقد كان في نفس وضعيته التي يقف فيها يسرد لي مأساته، ثم أكمل قائلًا: - ورجل أتاني ذات مرة في شبه حالة انهيار، أخبرني بأن هناك رجلًا يدعى شيحة طلب منه أن يتبرع بكليته لأحد الأثرياء في مقابل خمسة آلاف جنيه، وهدده إذا رفض بتلفيق قضية له ليكمل بقية عمره في السجن ثم يسرق أعضاء زوجته وبناته ليبيعها لمن يطلبونها في مقابل مادي كبير.

- وما الذي جعلهم يصبرون على هذا كله؟

استدار مكرم نحوي، ثم ابتسم إليَّ ابتسامة ساخرة: - لم يصبروا باختيارهم، ولكنهم كانوا مجبرين، فعندما لجئوا للكنيسة لحمايتهم مما يعيشون فيه تخلت الكنيسة عنهم تحاشيًا للتصادم مع جوارجي المسيطر على الحارة بسحره، فاستمروا في حياتهم، منهم من استطاع الفرار من الحارة ومنهم من لم يقدر؛ فاستمر في حياته البائسة متصالحًا مع الظلم متحاشيًا إغضاب الظالم. كنت مذهولًا مما أسمعه من مكرم حول حارة نجوى وما يحدث فيها، وشعرت لوهلة أنني تورطت في العيش في هذا المكان، وتعجبت من إرسال جدي لي للعيش هناك في هذه الحارة العجيبة والملعونة كما يصفها مكرم. لم يطل تعجبي فقد قطعه دخول محسن وخلفه والدة مكرم إلى الغرفة وحالة الانهيار من الفرحة التي انتابت والدة مكرم عندما رأته قد تحسن وعاد سيرته الأولى حتى لو بنسبة صغيرة، ووسط ملاحظتي لفرحتها ابتسم لي محسن وربت على كتفي وقال لي في فخر:

- ألم أقل لك إنك من أهل الله؟ نظرتي في الناس لا تخيب أبدًا.

***

بعد خروجي من بيت مكرم قام محسن بتوصيلي إلى شارع صلاح سالم، وقمت بالمشي بين المقابر حتى وصلت إلى ناصية الحارة، ووقتها تذكرت أن الشقة ليس بها بقالة؛ فتوقفت عند دكان عم كرامش لأتبضع منه بعض السلع، ورآني حمدي الذي كان يستقبلني كل مرة بنفس الحفاوة وكأنه يراني لأول مرة وينتظرني من سنين، قام إليَّ حمدي من أمام ماكينته واستقبلني بحرارة شديدة، حتى إنه أتى بالكرسي الذي يجلس عليه أمام الماكينة وقام بتنظيفه لأجلس عليه، وبعد أن جلست أتى لي بزجاجة مياه غازية من عم كرامش، وفي الحقيقة كنت أحتاجها، وجاءت في وقتها، وبعد أن شربتها وهدأت من تعب المشوار سألني حمدي بابتسامة وحنان الأم:

– لقد تأخرتَ اليوم كثيرًا وقلقت عليك أن تكون قد أصابك مكروه.

– كان هناك بعض المشاوير المهمة التي أخرتني.

– ولكن يبدو عليك إرهاق كأنه من قلة النوم.

– في الحقيقة نعم، لم أنم جيدًا بالأمس.

احترم حمدي كعادته رغبتي في عدم الإكثار من الكلام حتى لو لم أفصح له عن ذلك، وصمت حتى لا يطيل عليَّ، واستأذنته للذهاب إلى عم كرامش:

– لم ألق التحية على عم كرامش، سأذهب إليه.

ابتسم حمدي آذنًا لي في الانصراف، وقمت وتوجهت إلى عم كرامش المنهمك في متابعة فيلم عربي داخل الدكان، وحييته:

– السلام عليكم يا عم كرامش.

انتبه كرامش للوافد الذي قطع عليه خلوته مع الفيلم العربي الذي لمحته وعرفت أنه فيلم شباب امرأة:

– وعليكم السلام ورحمة الله، كيف حالك يا دكتور؟

قالها كرامش وهو يلتفت للتلفاز حتى لا تفوته لقطة أو مشهد من الفيلم، فمازحته قائلًا:

– يبدو أنك من معجبي الست كاريوكا، لا تبدو عليك الشقاوة أبدًا يا عم كرامش.

– هاهاها، وهل هناك مثل الست كاريوكا؟ أعطاها الله الصحة والعافية.

– هل حضرت لها أفلامًا في السينما يا عم كرامش؟

– الفيلم الذي تراه هذا شاهدته لها في السينما عندما كنت شابًّا، وكم حسدنا شكري سرحان وتمنى كل منا أن يكون مكان إمام أو حتى بغل السرجة الذي كان يعصر السمسم.

– هاهاهاها ... ألهذه الدرجة؟

تنهَّد عم كرامش تنهيدة المتحسر على عمر مضى دون أن يستفيد منه صاحبه إلا الشعر الأبيض خارج الرأس والذكريات الجميلة داخلها.

– كاريوكا ... آآآآه يا كاريوكا.

– هاهاهاها، تحب كاريوكا أم شفاعات؟

نظر إليَّ عم كرامش وكمن لدغه عقرب عندما سمع اسم شفاعات:

– أعوذ بالله من شفاعات وكل شفاعات.

ضحكت من رد فعل عم كرامش، وطلبت منه السلع التي أريدها حتى يجهزها لي وذهب إلى داخل الدكان ليأتي بها.

فجأة هبت رائحة لا يستطيع كل الناس أن يشموها، ولكني أستطيع،

رائحة تتميز بها النفس الخبيثة يشمها من خصه الله بعلم أو فراسة، استغربت من هذه الرائحة، واستعذت بالله في سري حتى قطع الصمت صوتُ امرأة يأتي من خلفي:

– مساء الخير يا دكتور.

التفتُّ لأجد صاحبة الرائحة واقفة أمامي تبتسم ابتسامة لو رآها الناس لوقعوا من سحر غوايتها، ولكني رأيتها ابتسامة شيطان مريد، إنها عنايات.

– مساء النور.

باغتتني عنايات معاتبة:

– هل يصح أن نكون جيرانًا في نفس الحارة لشهرين ولا تلقي علينا حتى السلام؟ السلام لله.

حاولت أن أتدارك الموقف وأنهي الحوار، وأثناء ذلك حانت مني التفاتة نحو حمدي الذي رأيته يجلس باديًا على وجهه الغضب، ولمحت في عينيه تحذيرًا لي من هذه المرأة الواقفة أمامي، فأجبتها بدبلوماسية:

– القادم أكثر من الفائت يا أفندم.

ضحكت عنايات عندما سمعت كلمة (أفندم)، وكأنها ترى مونولوجًا يؤديه إسماعيل ياسين على مسرح كازينو بديعة:

– أفندم؟؟ هاهاهاها يبدو أن الدكاترة لا يعرفون لغة أولاد البلد، عمومًا أنا اسمي عنايات، جارتك في الحارة ومن سكانها القدامى، ولدت فيها ولا أريد العيش بخارجها، بل وأريد أن أموت فيه؛ ففيها حياتي وأتمنى أن يكون بها مماتي.

تعجبت من هذه الديباجة الغريبة التي رصتها لي عنايات وكأنها تسمّع نصًّا

لمدرس لغة عربية، وتعجبت أكثر لأن هذا الكلام لا يليق مع شكل المرأة التي أمامي، فلم هذه البلاغة وكيف ومتى حطت عليها من السماء؛ فأنهيت الموقف سريعًا بكلمات مقتضبة:

– من لا يعرفك يجهلك ... الغريب أعمى وإن كان بصيرًا يا ست عنايات.

– ست عنايات؟!!

قالتها عنايات بتعجب وشعور المرأة التي مست قلبها كلمة غزل كانت تنتظرها منذ سنين، في هذه اللحظة أتى عم كرامش من داخل الدكان بطلباتي التي جهزها لي، ولمحت في عينيه نظرة اشمئزاز وتأفف عندما رأى عنايات، التي ما إن رآها حتى ناداها بكل تلقائية:

– شفاعات؟؟؟ ... أقصد عنايات.

نظرت عنايات إلى عم كرامش نظرة العاشق للشخص المتطفل الذي يقطع عليه لحظات عشقه وهيامه:

– نعم عنايات، ما لك يا رجل، وكأنك رأيت شيطانًا؟!

– شيطان؟؟ يعجبني تواضعك يا عنايات.

أوشكت أن أنفجر ضاحكًا من كلمة عم كرامش، ولكني تماسكت في اللحظة الأخيرة، وشاهدت المناكفة الحادثة بينهما وأنا أضحك بداخلي، وانتهى هذا الشجار سريعًا فقد بدا أنهما معتادان عليه منذ سنين، وبعد أن هممت بالانصراف استوقفتني عنايات قائلة:

– ألن تفتح عيادة أو مستوصفًا في الحارة يا دكتور؟ أهل الحارة يعانون حتى يذهبوا إلى أقرب طبيب على بعد أميال.

كنت أعلم يقينًا مدى كذبها؛ فقد رأيت الكثير من لافتات عيادات الأطباء في محيط الحارة، ولكني تظاهرت بتصديقها قائلًا:

– كنت أتمنى، ولكن تخصصي لن يفيد أهل الحارة كثيرًا.

تعجبت عنايات قائلة:

– لماذا، ألست طبيبًا؟

– نعم أنا طبيب، ولكني طبيب نفسي.

– وما المشكلة؟ أليست أنواع الطب كلها مفتوحة على بعضها؟

لفتت نظري كلمة أنواع وكأنها تتحدث عن سلعة تموينية أو جبن، وفكرت في أن أشرح لها الفروق بين التخصصات وبعضها، ولكني رأيت أنه لا جدوى من ذلك، وأنقذني عم كرامش الذي أنهى الموقف ببراعة قائلًا:

– الدكتور عبد العليم تخصص مجانين، عندما يصيبك الجنون سيكون أنسب من يعالجك يا عنايات.

بدا الغيظ على وجه عنايات بسبب مقاطعة كرامش المستمرة لها؛ فرمقته بنظرة غضب ثم تجاهلته متوجهة إليَّ بالحديث: – حسنًا يا دكتور، سعدت بلقائك المتأخر كثيرًا حتى وإن كان على عجل، أراك على خير.

مدت عنايات يدها إلى لتصافحني فترددت لأجزاء من اللحظة في أن أمد يدي إليها، ولكني في النهاية مددتها لأصافحها مع علمي وتوقعي بما قد يحدث نتيجة هذه المصافحة وقد حدث، ففور مصافحتي لها سرت في جسدي قشعريرة وكأنها أرسلت إلى جسدي موجة كهربائية صعقتني صعقًا خفيفًا، ورأيت وجهها يتحول إلى وجه شيطان يبتسم في انتصار، ثم انصرفت ورائحتها الخبيثة ما زالت تزكم أنفي.

التفتت إلى عم كرامش لأدفع له ثمن البقالة وأنا في حالة شرود، وفوجئت بحمدي الذي قفز من مكانه بعد انصراف عنايات وهو يرمقها بنظرات الغضب والقرف، ثم جاء إليَّ ونظر إليَّ نظرة أعرف مغزاها قائلًا:

– الاسم عنايات والوزن شفاعات والفعل بشاعات، طوبى لكل إمام* أفلت من حبائلها ولم يقع فيها.

فهمت ما يقصده حمدي؛ فهززت رأسي مبتسمًا، فوصل له أني فهمت ما يريد شرحه؛ فابتسم هو الآخر، وانصرفت على وعد من حمدي أن يزورني ليلًا بعد أن أستيقظ من نومي واليوم هو الخميس وغدًا الجمعة إجازة، فلا مانع من سهرة مع حمدي الفيلسوف.

انصرفت وأن أشعر أن عنايات سوف تزورني هذه الليلة.

***

لم تمر سوى سويعات قليلة على توديعه حتى فوجئت بمحسن زميلي يطرق باب الشقة ففتحت له وتعجبت عندما رأيته، خصوصًا أنني لم أتركه إلا منذ ساعتين على الأكثر، نظر إليَّ محسن وأنا أحملق فيه على باب الشقة وسألني مستنكرًا:

– ألن تدعوني للدخول؟

شعرت بالحرج من ردة فعلي على زيارته؛ فدعوته للدخول معتذرًا على سوء استقبالي له:

– معذرة يا محسن، ولكن للحظة تخيلت أن مكرم قد حدث له مكروه لذلك أتيتني، تفضل.

دخل محسن فور دعوتي له بالدخول، وتفحص في الشقة كأنه دخل

قصرًا ملكيًّا، واستغربت من إعجابه الشديد بالشقة البسيطة في مظهرها:

– شقتك رائعة يا عبد العليم.

– شكرًا للمجاملة ولكنها مجرد شقة في حي شعبي وتعبيرات وجهك تبدو وكأنك تتجول في قصر ملك أو سلطان.

نظر إليَّ محسن ضاحكًا من ردي عليه، وأجابني منكرًا عليّ بخس حق الشقة وصاحبها:

– إنك أعظم من الملوك والسلاطين يا عبد العليم، وشقتك أفخر من أي قصر من قصورهم.

تلفَّت محسن حوله وشمشم بأنفه قائلًا:

– يبدو أنك تطبخ، وأنا جائع، متى تنتهي من صنع الغداء لنا؟

ابتسمت لمحسن وتقمصت دور ربة المنزل وهي تعد أولادها بأن الطعام سيكون جاهزًا بأسرع ما يكون:

– دقائق وتأكل طعامًا لم تأكله في حياتك قط.

دخلت إلى المطبخ لكي أستكمل إعداد الطعام، وسمعت بعد دقائق طرقًا على باب الشقة؛ فناديت على محسن لكي يفتح ولكنه لم يرد:

– محسن، افتح الباب من فضلك فيدي مشغولة.

كررت النداء على محسن مرة أخرى، ولكني لم أتلقَّ إجابة أيضًا:

– محسن ... محسن!

خرجت لأفتح بنفسي، وظننت أن محسن قد غلبه النعاس، وعندما خرجت إلى الصالة استغربت بشدة؛ فمحسن ليس موجودًا بالصالة، وذهبت إلى

غرفة النوم لعلي أجده هناك ولكنه لم يكن موجودًا أيضًا، كل ذلك والطرق على باب الشقة مستمر، فقلت في نفسي: لعله خرج من باب الشقة وأغلق الهواء الباب، وتوجهت إلى باب الشقة لأفتحه فوجدت عنايات تقف أمامي في كامل زينتها؛ فانتابتني الدهشة، فعندما توقعت أن تزورني هذه الليلة لم أتوقع أن تأتي بسرعة هكذا؛ فقد تركتها لتوي منذ دقائق أمام دكان عم كرامش، فهل استطاعت أن تذهب إلى بيتها وتتجهز بكامل زينتها وتأتيني بهذه السرعة؟

لم تنتظر عنايات إذني لها بالدخول؛ فقد أزاحتني بدلال من أمام باب الشقة ودخلت دون أن أدعوها، وفوجئت بها تدخل إلى غرفة النوم وأنا واقف في مكاني أمام باب الشقة وكل همي وتفكيري في محسن الموجود معي في الشقة وماذا سيكون ظنه فيَّ إذا رأى عنايات عندي في غرفة نومي.

لم تضيِّع عنايات الوقت وخلعت ملابسها قطعة قطعة حتى أصبحت كيوم ولدتها أمها في غرفة النوم، وأنا أنظر إليها في استغراب من جرأتها، وأشارت إليَّ وهي جالسة في وضع مثير على السرير لكي أدخل إليها، ترددت لحظات وأنا أفكر في محسن، ولكني حسمت ترددي بالتحرك إليها ودخلت غرفة النوم، وأغلقت الباب ورائي وبدأت مقدمات العلاقة المحرمة بيننا؛ حتى إذا أوشك السيف أن يدخل غمده رأيت فجأة شعرًا ينبت في صدر عنايات وتمدد الشعر في باقي جسمها في لحظات معدودة وأنا أنظر إليها في فزع من هذا المنظر المخيف الذي أراه أمامي، فكيف لامرأة مكتملة الغواية تتحول فجأة إلى أنثى شمبانزي بشرية؟

في هذه اللحظة سمعت طرق باب الشقة، فكان عذرًا كافيًا لامتناعي عن إتمام العلاقة، وكانت حجّة أتت في وقتها لتنقذني مما أنا فيه، فقلت لها:

– معذرة! يبدو أن محسن صديقي يطرق باب الشقة.

بدا الغضب على وجه عنايات، الذي تحول هو الآخر لوجه شيطان كالذي رأيتها على هيئته منذ دقائق أمام دكان عم كرامش، وجذبتني من ملابسي بعنف لكي أقع عليها؛ فقد كانت في حالة ميئوس من شفائها من الغنج، وكلما زاد جذبها لي ازداد طرق باب الشقة سرعة وعنفًا.

استيقظتُ من نومي فجأة على صوت طرق باب شقتي، استيقظت في حالة مريعة من الخوف والعرق المتصبب والأنفاس السريعة المتلاحقة كأنني كنت أسابق شخصًا على منحدر متعرج للوصول إلى قمته.

قمت من على السرير أجرُّ أقدامي بالكاد لكي أصل إلى باب الشقة لأفتحه، وعندما فتحته وجدت أمامي سيدة عجوزًا تقف معتذرة ومتوسلة إليَّ لكي أنزل معها:

- أنا آسفة يا دكتور على الإزعاج، ولكن أرجوك أن تأتي معي حالًا للكشف على الصول شيحة.

نظرت إلى السماء فوجدت الدنيا قد أظلمت؛ فأدركت أنني نمت ما لا يقل عن ثلاث ساعات، ونظرت في ساعة يدي فوجدتها العاشرة مساءً؛ فاستأذنت المرأة العجوز أن أغير ملابسي وألحق بها على بيت الصول شيحة.

***

عندما قامت عنايات بمصافحة عبد العليم أمام دكان كرامش كان الغرض من مصافحتها له أن تترك على يده آثار عزيمة صنعتها على يدها اليمنى التي صافحته بها، وكانت هذه العزيمة مصنوعة بغرض الاتصال الجنسي الروحاني الذي تجيد عنايات وأمثالها من النساء صنعه عندما يقعن في غرام رجل صعب المنال، فيقمن بالاستمرار في مثل هذه الصنائع لكي يتم اتصال

جنسي في المنام بالنسبة للرجل، ولكنه يكون اتصالًا جنسيًّا حقيقيًّا بالنسبة للمرأة صانعة العزيمة.

في لحظة امتناع عبد العليم عن الإتيان بها في منامه كانت عنايات في الواقع في أشد لحظات التأهب للاتصال الجسدي به، بل إنها كانت ممددة على سريرها بنفس الوضع الذي رآه عليها عبد العليم في منامه، وعندما انتفض عبد العليم مستيقظًا من نومه كانت علامة على رفضه للوقوع في هذه العلاقة حتى وإن كانت في المنام؛ مما كان له أسوأ الأثر النفسي والجسدي على عنايات في الحقيقة، التي كانت كالزوجة التي بعد أن تأهبت وبلغ بها الشبق مبلغه قام زوجها من عليها دون أن تصل إلى متعتها.

قامت عنايات وهي تلهث من فرط النشوة الضائعة تسب عبد العليم بأقذع الألفاظ، فمن هذا الفلاح الذي يرفض جسدها في منامه؟

لم تكن عنايات تعلم أن عبد العليم قد رآها على حقيقتها الروحانية في منامه؛ فهي كالشيطان كثيف الشعر دميم الخلقة الذي قد تنفر منه الشياطين نفسها.

لم يفت عنايات أن تقضي وطرها من طرف واحد كعادتها القديمة بعد أن أهانها عبد العليم ورفضها، وبعد أن هدأت جلست تفكر في هذا العنيد الذي لم تقابل مثله قط.

جاءها في هذه اللحظة هاتف من خادم من خدامها الجن الذين تسخرهم بعزائمها التي تملكها وهمس في أذنيها ناصحًا:

– حتى لو حفرتِ في البحر الشقوق فلن يأتيكِ هذا المعشوق.

فهمت عنايات المغزى المقصود من هذه الرسالة؛ فقد اطلعت من قبل على الجسد الأثيري لعبد العليم وتجسست عليه روحانيًّا، وتدرك جيدًا أن

هذا الفتى محصن ومحجوب ولا حيلة للوصول إليه، ولكنها لم تتوقع أن تخيب وصفتها المجربة مرارًا من قبل فحاولت، ولكن محاولتها فشلت.

من الطبيعي أن تستسلم عنايات بعد أن وصلتها هذه الرسالة، ولكنها أبت الاستسلام، واختارت الاختيار الأصعب .... ستحفر في البحر الشقوق وسيأتيها عبد العليم عاشقًا غير معشوق، ولكن هل نجح أحد من قبل في الحفر على الماء؟

***

دخلتُ على الصول شيحة غرفته بعد أن استدعتني زوجته السيدة مفيدة، ولكني لم أتوقع أن أرى شيحة الجبار في مثل هذه الحالة أبدًا.

كان يتصبَّب عرقًا بشكل مثير للانتباه، حتى إن عرقه كان من الممكن أن يملأ أوعيةً بأكملها، لم يطل ذهولي فقد كانت نظرات الاستجداء من شيحة أقوى من دهشتي؛ فأمسكت سماعتي وكشفت عليه، وبعد فحص لمدة ربع ساعة كاملة كانت النتيجة الغريبة أنه لا يشتكي من أي عرض أو مرض عضوي، ولكن أمام حالته هذه لم أجد مفرًّا من حقنه بحقنة مهدئة مسكنة لكي يستطيع النوم وترتخي أعصابه التي وجدتها مشدودة بشكل مبالغ فيه.

بعد أن نام شيحة من الحقنة، سألت السيدة مفيدة عن حالته:

– هل يمكن أن تصفي لي بالضبط ما الذي حدث للصول شيحة؟

بكت السيدة مفيدة وهي تحكى لي مغالبة دموعها قائلة:

– استيقظ قبيل الفجر كعادته كل يوم، ولكنه هذه المرة لم يقو على صلب عوده حتى إنه مشى على يديه ورجليه كالطفل الذي يحبو، وتحشرج صوته حتى صار أشبه ...

انهارت مفيدة وهي تحكى لي الكلمة الأخيرة من جملتها التي نزلت على رأسي كالصاعقة:

– صار أشبه بنباح الكلاب.

على قدر صدمتي من وصف الحالة إلا أنني حاولت تهدئة مفيدة ترفقًا بحالها وبسنها الكبير:

– لا تقلقي يا ست مفيدة، يصير بخير إن شاء الله، لقد أعطيته حقنة مهدئة ومسكنًا للألم، وسيستيقظ بعدها بحال أفضل، وإذا حدث شيء آخر يمكنكِ استدعائي في أي وقت، أستأذنكِ.

خرجت من المنزل تاركًا مفيدة المسكينة معرضة لتكرار الذي حدث لشيحة مرة أخرى متوقعًا أنها لن تستطيع أن تفعل له شيئًا.

***

عدتُ إلى الشقة مثقلًا بالهموم والتعب من قلة النوم، وكابوس عنايات الذي أتاني في المنام، والخفاش الذي زارني في الليلة الفائتة، متخيلًا حالة شيحة العجيبة التي لا يبدو لها توصيف طبي ظاهر على الأقل بالنسبة لي.

دخلت إلى الشقة، وما هي إلا دقائق وطرق عليَّ السامر الفيلسوف حمدي أبزيمة على موعدنا المتفق عليه، وعندما دخل ووجدني على هذه الحالة سألني في لهفة:

– ماذا بك يا دكتور؟

تنهدت وجلست على كرسي بجوار البلكونة في الصالة، وقررت أن أسرد لحمدي حدثين من الثلاثة التي عاصرتها في خلال أقل من أربع وعشرين ساعة، فحكيت له عن الخفاش العجيب، ولكني لم أخبره باسمي الذي

وجدته مكتوبًا بالدم على زجاج الشباك، وحكيت له أيضًا على حالة شيحة العجيبة، فوجدته غير مكترث بحديثي عن الخفاش قدر اهتمامه الشديد وبهجته عندما شرحتُ له حالة شيحة، فوجدته قام من على كرسيه وذهب إلى البلكونة ونظر إليها وأشعل سيجارة ونفث دخانها في ابتسامة ملحوظة، ثم التفت إليَّ قائلًا في بهجة:

- إنها دعوة الشيخ مستور النوري قد جازت في شيحة.

استغربت من كلام حمدي، واستفسرت منه عن الدعوة المقصودة:

- أي دعوة؟ وبم دعا عليه الشيخ مستور؟

- كان شيحة دائمًا ينعت الشيخ مستورًا - رحمه الله - بالكلب، فكان الشيخ مستور يدعو الله عليه أن يميته الله كالكلب، وأن يعوي كالكلب قبل أن يموت، ويبدو أن الدعوة قد استجيبت.

لم أرد لذهولي من الموقف الذي يحكيه لي حمدي، ولعظم الدعوة التي دعا بها الشيخ مستور على شيحة الذي كان أحد من ظلموه، وتساءلت بيني وبين نفسي إذا كان هذا الرجل صالحًا وبينه وبين الله سر فعلًا، وقد دعا على شيحة بتلك الدعوة التي يبدو أنها في طريقها للتحقيق، فكيف بباقي من ساهموا في ظلمه ممن اشترك بنفسه أو أعان على ظلمه أو حتى سكت ولم يحاول رفع الظلم عنه ... إنها لمأساة!

قطع صمتي سؤال حمدي المفاجئ لي:

- هل أنت مشفق على شيحة يا دكتور؟

صمتُّ قليلًا قبل أن أسال حمدي نفس السؤال:

- وهل تشفق عليه أنت؟

تغيَّر وجه حمدي واحمرَّ ووضح عليه الغضب الشديد:

– أشفق عليه؟ والله وددت لو قتلته بيدي وحرقت هذه الحارة بمن فيها أحياء.

تعجبت من ردة فعل حمدي غير المتوقعة بالنسبة لي في موقف مثل هذا، فحاولت أن أهدئ من غضبه فعرضت عليه شرب فنجان من القهوة البن المعتبر الخاص بي فوافق، وقمت أعددت كوبين من القهوة، وعدت إلى حمدي الذي عاد لهدوئه وجلس على كرسي مقابلًا للكرسي الذي أجلس عليه، وبدأنا في شرب القهوة، وبدأ حمدي سارحًا شاردًا وهو يشرب القهوة، فقطعت عليه شروده:

– قل لي يا حمدي، ما سر كرهك الشديد لحارة نجوى؟

تنهَّد حمدي كأنه تذكر ما لا يحب أن يتذكَّره، ثم بدأ في سرد حكايته مع حارة نجوى.

***

لم يكن حمدي أبزيمة من النوع الذي يضمر الشر والبغض للناس بشكل مطلق دونما أية أسباب، فقد كان شخصية صافية الجوهر يحب الناس ويفترض فيهم الخير وحسن النية ما لم يثبت عكس ذلك، وعندما يكره حمدي أبزيمة شخصًا ما أو مكانًا ما فلا بد أن لهؤلاء الأشخاص أو لهذا المكان في قلبه مخزونًا كبيرًا من الكره المسبب.

في مراهقته وبداية شبابه كان إسكافيًّا ماهرًا، بعد وفاة والده أصبح هو العائل الوحيد لأمه التي لم تنجب غيره، دارت الأيام وكبر حمدي في صنعته فتحول من مجرد صنايعي تفصيل وتصليح أحذية إلى صاحب ورشة في درب الجنينة، وتبعها معرض خاص به بالقرب من ميدان العتبة يعرض فيه منتجاته

التي يصنعها في ورشته.

ولأن كل طائر لا بد له من عش يسكنه وشريكة في بناء هذا العش، فقد تحرك قلب حمدي لإحدى زبائن معرضه، وقرر البحث وراءها لكي يتزوجها.

حمدي يسكن بجوار مسجد قايتباي، ولحسن حظه فإن البنت التي تحرك قلبه لها كانت تسكن في حارة نجوى القريبة من سكنه، وكان لذلك أعظم الأثر في نفسه لسعادة حظه في الوصول إليها وطلب يدها.

رفضت أمه في البداية زواجه من هذه البنت عندما علمت أنها من سكان حارة نجوى، هذه الحارة سيئة السمعة:

– ألم تجد غير حارة نجوى وتتزوج منها يا حمدي؟ هذا لا يمكن أبدًا.

استغرب حمدي من إصرار أمه على رفض هذه الزيجة، واستفسر منها عن حارة نجوى وسبب سوء سمعتها:

– ما سبب رفضك لحارة نجوى ومن يأتي منها يا أمي؟

– ألا تعلم من هي نجوى التي تسمَّت الحارة باسمها؟

– لا.

– قديمًا عندما كنا أطفالًا صغارًا كان أهالينا يحكون لنا أن هذه الحارة ملعونة، كانت تسكنها امرأة شريرة سيئة السمعة تعشق الرجال اسمها نجوى، كان بيتها مفتوحًا دائمًا للبغاء والرذيلة، وكانت تغوي رجال الحارة بأكملها، حتى جاء يوم ونزل غضب الله على الحارة وتحول كل سكانها لتماثيل من الطين.

ضحك حمدي من رواية أمه وسذاجتها وأسطوريتها:

– ماذا تقولين يا أمي؟ إنها أشبه بحكايات أمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة

التي كنتِ تحكينها لي لكي أخاف من السير ليلًا وأنا صغير.

– صدقني يا ولدي، هذه الحكاية حقيقية، وهذه الحارة ملعونة.

– لو افترضنا أن سكان الحارة تحولوا لتماثيل من الطين فأين ذهبت هذه التماثيل؟

– يقولون إن السلطان قايتباي عندما جاء لمنطقتنا لبناء مسجده الذي نسكن بجواره سمع حكاية الحارة والتماثيل الطينية فذهب لكي يرى بنفسه، وعندما رأى تمثال نجوى فتن به وأعجبه فقام بالاحتفاظ به داخل الربع الخاص به الذي يبعد عنا بأمتار قليلة، وأمر بهدم باقي التماثيل وهدم بيوت الحارة وتسويتها بالأرض، وبعدها اختفى تمثال نجوى من ربع السلطان قايتباي في ظروف غامضة، وعندها حزن السلطان قايتباي؛ فأخبره العرافون أنها ستظل تظهر ثانية في أزمان متعددة، وفي آخر ظهور ستقتل عين الشيطان، ولكن حتى يحين هذا الزمن فإن روحها ستحوم حول الحارة تلعنها، ومن يومها وروح نجوى تحوم حول الحارة التي تم إعادة بنائها وتسميتها على اسمها، وكل ليلة تصب اللعنات على الحارة وأهلها وخصوصًا نسائها، هل تريد أن تتزوج امرأة ملعونة وتحل اللعنة على نسلك يا ولدي؟

ضرب حمدي بكلام والدته عرض الحائط وتزوج من فتاة حارة نجوى التي هام بها عشقًا لدرجة أنها قبل أن تتمنى الأمنية كان يحققها لها، وظل يعيش في سعادة يلمسها هو حتى أنجب ابنته الوحيدة فاطمة، التي اعتبرها هدية السماء له في حياته كلها.

تغيَّرت زوجته من ناحيته مع مرور الوقت، فلم تعد الزوجة الملهوفة على زوجها كما عهدها حمدي منذ زواجها، ومع استمرار تغيرها شعر حمدي بغريزة الرجل أن هناك شريكًا خفيًّا له في قلب زوجته، بل ربما يشاركه جسدها أيضًا.

كان ظنه حقيقة؛ فقد اكتشف بعد طول مراقبته لها أنها عشقت رجلًا آخر بددت عليه أمواله التي اكتنزتها من ورائه.

عندما واجهها حمدي اندهش لعدم انكارها، بل فوجئ بتبجحها في التباهي بالعلاقة الآثمة التي تجمعها برجل غير زوجها، فما كان من حمدي إلا أن حاول قتلها ليبرد ناره، فهربت زوجته واحتمت بشيحة جبار الحارة الذي تصدى لحمدي ومنعه من التعدي على زوجته، بل وأجبره بالإكراه على التوقيع على عقود بيع لورشته ومعرضه لصالح زوجته التي هربت بعد ذلك بابنته الوحيدة فاطمة بعد أن أجبره شيحة أن يرمي عليها يمين الطلاق.

ماتت أم حمدي بحسرتها على ولدها الذي تحول بين عشية وضحاها من صاحب أملاك إلى متشرد سريح يبحث عن لقمة عيشه عند صبيانه الذين صاروا أسطوات وأصحاب ورش كبارًا، وتعلق حمدي بحارة نجوى على قدر كرهه لها، وجاء بماكينته على ناصيتها مراقبًا للحارة معلقًا قلبه باحتمالية ظهور ابنته فاطمة في أي وقت، وآملًا أيضًا أن يرى هذه الحارة يخسف بها؛ لأن بها ذكرياته الأليمة وفيها يسكن شيحة الذي ظلمه وأهانه، وأيضًا تسكن عنايات التي حرضت زوجته وكانت سببًا في خيانتها له؛ لأن من طبع العاهرة أنها تود لو تزني كل النساء.

***

ليس بالأمر الهين أو اليسير على قلب الرجل أن يتذكر خيانة زوجته له وعجزه عن الانتقام لشرفه، بل وتذكره أيضًا لقهر الرجال المتجسد في أبشع صوره عندما يتم إجباره على التنازل عن كل ما يملك لامرأة عاهرة خائنة.

وليس من السهل أو اليسير عليَّ أيضًا أن أصف حالة حمدي التي رأيته عليها بعد سرده لهذه المأساة، التي لو تجسدت في عمل درامي ما صدقها البعض، ولاعتبروها مبالغة زائدة عن اللزوم.

ما خفف عني حزني على حمدي أنني ما زلت أحتفظ له بالبشارة التي رأيتها في فنجانه، والتي لن أفصح له عنها إلا عندما يأذن الله.

– وحد الله يا حمدي، وارم وراء ظهرك.

نظر حمدي إليَّ مبتسمًا كالطفل الذي يبكي ويحزن من والده الذي فور أن يصالحه ويداعبه ينسى كل ما كان يبكي من أجله ويبتسم ابتسامة صافية، ما أجمل أن تعيش بقلب طفل! وما أجمل أن تكون حمدي أبزيمة!

– لله المشتكى يا دكتور، وأنا أتعشم في الله أن يأخذ لي حقي وأن يعيد لي حياتي ... فاطمة ابنتي.

– إن شاء الله.

سألني حمدي مرة أخرى عن رأيي فيما حدث لشيحة:

– بعد أن عرفت أنني غير متعاطف مع شيحة أعيد عليك سؤالي: هل أنت مشفق عليه يا دكتور؟

كان السؤال صعبًا وإجابته أصعب؛ لأنه بالنسبة لطبيب مثلي الإجابة مركبة، فالجانب الإنساني والقلبي في نفسي بالتأكيد لا ينبغي أن يتعاطف مع مجرم مثل شيحة، ولكن وضعي كطبيب يختلف، فواجبي يحتم عليَّ أن أفصل تمامًا بين قلبي وشعوري بالواجب نحو المريض.

– أنا في النهاية طبيب يا حمدي، وهو بالنسبة لي حالة مرضية لا ينبغي أن أعاقبه على أفعاله ما دام مريضًا أمامي؛ فواجبي في النهاية أن أسعى في علاجه.

– حياتكم صعبة أيها الأطباء.

– هاهاهاها، ليست صعبة فقط ولكنها بائسة أيضًا.

ضحك حمدي كثيرًا، ثم صمت فجأة وقال:

– شيحة رجل ظالم، ولا بد أن الله سيأخذه أخذ عزيز مقتدر.

بدر إلى ذهني سؤال مهم توجهت به إلى حمدي:

– هل شيحة ظالم مطلق أم أن ظلمه نسبي؟

بدا على حمدي أنه لم يفهم السؤال؛ فأعدته عليه بصيغة أخرى:

– يعني هل شيحة يظلم كل الناس لمجرد الظلم؟ أم أن ظلمه وقع عليك أنت والشيخ مستور فقط؟

– شيحة ظالم يحب الظلم لذاته، فكم سمعنا منه أنه قتل سجناء في السجن الحربي، وكان يفتخر أمام الناس بأنه ظالم، والعجيب أن الناس يدافعون عن ظلمه مع أنه يقع عليهم.

تعجبت من الجملة الأخيرة لحمدي وسألته:

– يدافعون عن ظلمه؟

أجابني حمدي بفلسفة:

– يا دكتور! الكثير من الناس يعشق دور المظلوم ربما لعدم استطاعته أن يظلم غيره؛ لأن الفرصة لم تأته بعد، فيظل حبيسًا في قالب الإنسان المظلوم، حتى إنه لو لم يجد ظالمًا يظلمه بحث عنه كمن يبحث عن الإبرة في كوم القش.

– إذن؛ فهؤلاء يعشقون الظلم في حد ذاته، سواء كانوا هم الظالمين أو المظلومين بغض النظر عن شخصية الظالم.

– فعلًا يا دكتور؛ فهؤلاء لا مشكلة لديهم أن يعيشوا مقهورين مظلومين،

فمشكلتهم ليست في كره الظلم ولكن في كره الشخص الظالم، ولو أحبوه لقبلوا ظلمه بكل أريحية، بل إنهم من الممكن أن يثوروا على شخص عادل لمجرد أنهم يكرهونه.

– إمممممم.

– أعطيك مثالًا بالشيخ مستور – رحمه الله – كان رجلًا عادلًا وجبارًا في الحق، وكان صاحب واجب مع كل أهل المنطقة، وليس أهل حارة نجوى فقط، ولكن عنايات وشيحة وجوارجي استطاعوا أن يقنعوا أهل الحارة بكرهه وأن يزرعوه بداخلهم، فجعلوهم يثورون على الرجل الذي لم يروا منه إلا كل خير، وأوهموهم أنه رجل شر وبغي، مع أن الشر والبغي لا يقع عليهم إلا من هؤلاء الثلاثة.

– الكلام الذي تقوله يا حمدي يصلح لأن يكون مادة أساسية في دراسات نفسية كبيرة.

– هاهاهاها ... لا تحرج تواضعي يا دكتور وإلا طالبتك بحق الملكية الفكرية.

تبادلنا الضحكات التي طالت بعد الجملة الأخيرة لحمدي، وكافأته عليها بفنجان جديد من القهوة التي شربناها باستمتاع شديد، خصوصًا مع الصمت الذي حل علينا، وفور انتهاء حمدي من فنجانه وضعه على المنضدة واستأذن في الانصراف، خصوصًا أن الساعة اقتربت من الثالثة صباحًا:

– اسمح لي بالانصراف يا دكتور؛ فلقد عطلتك كثيرًا هذه الليلة.

– لا أبدًا يا حمدي؛ فأنا أسعد جدًّا بصحبتك والجلوس معك.

صافحني حمدي بحرارته المعهودة، واتجه نحو باب الشقة للخروج، وبعد أن هم بفتح الباب التفت نحوي فجأة قائلًا:

- ارحل يا دكتور، مكانك ليس في هذه الحارة.

صدمني كلام حمدي، ولم يعطني الفرصة للرد، حيث أكمل كلامه قائلًا:

- قلبي يحدثني أنك جئت للحارة لمهمة أشبه بمهام الأنبياء، ولكن هذه الحارة لا تستحق أن يأتيها نبي.

لم يزد حمدي على كلامه شيئًا، وخرج من باب الشقة وأغلقه وراءه تاركًا إياي في حالة من الذهول.

***

تمر الأيام وتستمر محاولات عنايات للنيل من عبد العليم، وترسل له الأحلام الجنسية الحلم تلو الآخر، ولكنه يفيق من نومه في اللحظات الأخيرة دائمًا قبل الوقوع بها؛ مما يصيبها بالإحباط فتفكر في طريقة أخرى للنيل منه, هذه المرأة لاتيأس أبدا من اصطياد فرائسها, خصوصاً إذا كانت الفريسة هى عبدالعليم الذى طرأت عليه منذ قدومه الى الحارة الكثير من التغيرات فى حياته وتكوين صداقات جديدة, حيث توطدت علاقته بمكرم الذي أصبح يتماثل تمامًا للشفاء بعد جلسات علاج طويلة مع عبد العليم ومحسن، وصار مكرم وعبد العليم أصدقاء.

ولكن ليس مكرم وحده الذى كان ينال اهمام عبدالعليم, فلم ينس الصول شيحة الذى بدأت حالته تسوء وتتدهور بشكل ملحوظ، وبدأ في العواء بصوت عالٍ يسمعه أهل الحارة؛ مما أثار رعبهم، ومنهم من أشفق عليه ومنهم من تشفى فيه.

ولأن المصائب لاتأتى فرادى فقد استمر العدو المجهول له فى محاربة عبد العليم حربًا خفية على أمل هزيمته وطرده من الحارة بعد إيذائه, وعبد العليم يصمد مضطراً ,فهو لايستطيع اتخاذ القرار بمغادرة الحارة دون

استئذان جده الذى يأتيه بصورة مستمرة يثبّته ويحضه على الاستمرار في مهمته التي لم تنكشف له بعدو مماجعله يوقن أن إقامته ستطول فماكان منه الا أن تعرف على أهل الحارة بشكل أكبر, يتقرب إليهم فأحبوه لأخلاقه العالية ولوقوفه بجانبهم في أزماتهم ,حيث كان يقوم باستدعاء زملائه الأطباء من التخصصات المختلفة كل أسبوع في الحارة ليقوموا بعمل قوافل طبية مجانية للكشف على أهل الحارة ومن حولها بالمجان , واستمر فى متابعة حالة شيحة التي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، حتى إن الأمر وصل للداخلية التي وصلتها شكاوى متعددة من أهالي الحارة بسبب عواء شيحة المستمر.

أما حمدي أبزيمة الحوارى المخلص لعبدالعليم فقد توسع في عمله واستأجر دكانًا بجوار دكان كرامش افتتحه كورشة لصيانة وتصنيع الأحذية، وما زال الأمل يراوده في رؤية ابنته فاطمة.

وفى وسط كل انشغالاته لم ينس عبدالعليم صديقه مكرم الذى هاجر للولايات المتحدة ويترك مصر، وتزوج من ليليان حبيبته القديمة في أمريكا، بعد أن رفض الزواج منها في مصر لأنه لم يكن يريد إقامة زواجه داخل أي كنيسة مصرية, ورغم أن مكرم غادر مصر بالفعل إلا أن حبال الود لم تنقطع بين صديقى الصدفة الذان التقيا بغير ترتيب بشرى, فجمع بينهما حبل خفى من الحب والود.

أما عن حياته العملية فقد قرر استغلال إقامته فى هذه الحارة العجيبة وسجل عبد العليم للحصول على درجة الماجيستير، وكان موضوع رسالته يتمحور حول الأنماط البشرية المختلفة التي رآها في حارة نجوى.

لايدرى لم تذكر وصف أمه لأبيه بأنه أهوج من الطفل الذى يتعلم المشى عندما تفاجأ به يدعوه على الغداء في مطعم العهد الجديد بالحسين، ويعرفه على حسناء السورية حبيبته السابقة التي جاءت للقاهرة لتستقر بها، ويخبره

أنه تزوج منها، وأخذ عليه العهود والمواثيق ألا يخبر والدته اعتماد بالموضوع وسط ترحيب منه بزواج والده من حبه القديم.

أما عنايات فقد أصاب سهم الحب قلبها ، وتحول اهتمامها بعبد العليم من مجرد سعي لقضاء شهوة إلى حب تحاول أن تجعله حبًّا طاهرًا يتكلل بالزواج, الكثير من الأحداث الغريبة التى يعجز عقله عن تحليلها تحدث له منذ قدومه إلى هذه الحارة, وخصوصا هذه العين البيضاء المجهولة له والتى تراقبه باستمرار , عين جوارجي الذى يراقب التفاف أهل الحارة حول عبد العليم وحبهم له، ويزداد غضبه وخوفه من تحقيق النبوءة.

أما المعجزة الأكبر فهى توقف عنايات عن مضاجعة الشباب والرجال في الحرام، ومحاولتها أن تتغير بسبب حبها لعبد العليم، وتفكيرها في طرق لتقريبه منها بعيدًا عن طرق السحر التي لم تفلح.

كل هذه الأحدث ولم يمر سوى عشرة شهور فقط على وجود عبد العليم في حارة نجوى.

---

* إمام بطل الفيلم، وقام بدوره الفنان شكري سرحان.

الفصل الرابع

سيرتها الأولى

فوجئ سكان حارة نجوى ذات صباح بعمال البناء يهدمون المقهى البلدي الذي حل محل الزاوية التي كان يؤمها الشيخ مستور، وزاد من تعجبهم عندما علموا أن عنايات اشترت المقهى من أصحابه وقررت إعادته سيرته الأولى كزاوية يصلي فيها الناس بعد أن كانت سببًا في تحويلها إلى مقهى عندما ادَّعت على الشيخ مستور أنه حاول الفجور بها داخلها. كعادة المصريين عند اعتزال فنانة وإعلان توبتها وارتدائها الحجاب ينقسمون إلى فريقين: فريق يبارك ويفرح ويهلل مع أنه مستمر في مشاهدة أعمالها القديمة التي ربما تكون في بعضها تكشف من جسدها أكثر مما تستر، وفريق آخر يهاجم اعتزالها ويدعي أنها مؤامرة على الفن لتجفيف منابعه من المبدعين، كذلك انقسم أهل حارة نجوى ما بين مهلل للتوبة المفاجئة التي حدثت لعنايات النجسة كما كانت شهرتها في المنطقة مع احتفاظه في مخيلته بالصورة الذهنية القديمة لعنايات النجسة، وفريق آخر كان مهمومًا ومكتئبًا وغاضبًا وناقمًا من توبة عنايات وهجرها للفاحشة التي كانوا يتمنون أن يصيبهم منها نصيب مع عنايات الفاتنة التي لا تريد أن تشيب أبدًا، وكان على رأس هذا الفريق جوارجي الذي خسر أهم حليفة له في الحارة بعدما حدث لشيحة الذي كان جوارجي يعتبره هو الآخر حليفًا له في السيطرة على عقول أهل الحارة وخضوعهم الكامل لسيطرته عن طريق بطش شيحة وجبروته. المحصلة النهائية أن عنايات أظهرت توبتها، وبدا وكأنها تريد أن تبدأ حياة جديدة على نظافة.

أما عنايات فكان بداخلها صراع شديد وتساؤلات طالما طرحتها على نفسها:

- هل تريد فعلًا طريق الهداية وفعلت ما فعلته لوجه الله وتبرؤًا من ذنوبها القديمة؟ أم أن حبها لعبد العليم دفعها لتغيير مجرى حياتها، لعلها تلفت نظره لتظفر به في النهاية في الحلال زوجًا بعد أن فشلت في الحصول عليه عشيقًا؟

- وهل يقبل هذا الطبيب الشاب ابن الأصول أن يتزوج من امرأة لها ماضٍ ملوث ويتحمل نظرات الناس له؟

أسئلة ظلت تتصارع في رأس عنايات، ولكنها لم تمنعها عن استكمال طريقها الجديد، ولكن لا شك أن هناك شيئًا قد تغير بالفعل في قلب عنايات.

من مميزات الممثل الناجح الذي يطلق عليه (مشخصاتي) من براعته في التمثيل أن نجاحه في تقمص الشخصية المرسومة له في الدراما قد يؤدي إلى توحد بينه وبين الشخصية الخيالية، ويتحول التوحد إلى تقمص حقيقي على أرض الواقع قد يحتاج بعده المشخصاتي وقتًا طويلًا للتخلص منه والعودة لطبيعته.

يبدو أن هذا بالضبط ما حدث لعنايات التي تقمصت دور العفيفة لأجل أن تلفت نظر حبيبها، ومع مرور الوقت شعرت بأن هناك شيئًا ما في داخلها يريد لها التطهر الحقيقي.

في خلال أيام معدودة لم تصل للأسبوع كانت الزاوية جاهزة لإقامة الشعائر من جديد بعد هجر دام لسنوات، وكانت المهمة الرئيسية لعنايات هي البحث عن إمام للزاوية يقيم الشعائر.

بالطبع لم يذهب تفكير عنايات إلا نحو عبد العليم الذي كان من ضمن أسباب هذا التحول الكبير الذي حدث لها في حياتها، انتظرت عنايات عودة عبد العليم من عمله وهي جالسة على كرسي أمام الزاوية، حتى إذا هل من بعيد قامت وانتفضت ذاهبة إليه، رآها عبد العليم متجهة إليه، وأخبره هاتف بما تريد أن تطلبه منه، ولكنه انتظر لكي يسمعه منها.

ابتسمت عنايات وهي تستقبل عبد العليم لدى وصوله لناصية الحارة قائلة:

– ألن ترى الزاوية بعد رجوعها يا دكتور؟

وقف عبد العليم أمام الزاوية الذي تحولت لمقهى ثم عادت مرة أخرى سيرتها الأولى كزاوية وبداخله شعور مختلط من الحزن والفرح، ثم نظر إلى عنايات قائلًا لها:

– جزى الله صناع هذا العمل خيرًا.

– كلما زاد سعي المرء في الدنيا كلما اقترب على الانتهاء، لعل الله يتقبَّل.

المستمع لكلام عنايات يدرك أن به الكثير من الصدق وأن هناك نية للتغيير الحقيقي، تريد من يشجعها على الاستمرار، وهذا ما أدركه عبد العليم وشعر به؛ فقديمًا قالوا إن الكلام إذا خرج من القلب يصل إلى القلب، أما إذا خرج من اللسان فلن يصل حتى إلى الأذن، وعبد العليم خبير نفوس، وتوقف كثيرًا أمام حالة عنايات تحديدًا، هذه المرأة الشرهة التي قد تقتل من أجل رغبتها عندما يحدث لها هذا التحول فلا بد أن هناك سببًا قويًّا جدًّا أدى لهذا التحول غير الطبيعي، بالطبع يعرف عبد العليم أنه هو نفسه سبب التحول الرهيب الذي حدث لعنايات، إنه حبه الذي وقر في قلبها كما

وقر حب يوسف عليه السلام في قلب زليخة، والعجيب أن هناك تشابهًا بين البدايات والنهايات في القصتين؛ فحب زليخة ليوسف بدأ من رغبة في اللقاء على الفراش، ثم انتهى لتصوفها في محراب حبها ليوسف، كذلك عنايات حاربت مرارًا، وحاولت أن تجذب عبد العليم لفراشها فلما فشلت تحرك قلبها نحوه كارهًا ونابذًا ما تعيشه من حياة قذرة.

تبقى المشكلة الأكبر، وهي تقبل المجتمع لتوبة عنايات، هل سينسون تاريخها بكل مآسيه ويفتحون صفحة جديدة ويتقبلون الشيخة عنايات؟ أم أن ماضيها سيظل دائمًا يطاردها؟

من رحمة الله بعباده أن التوبة تمحو ما كان قبلها من الذنوب ولا يعيِّر الله عبده التائب بذنب فعله في الماضي ثم تاب عنه، ولكن العباد لا يقبلون توبة بعضهم البعض.

– كنت أريدك أن تصير إمام الزاوية وخطيبها يا دكتور.

أظهر عبد العليم اندهاشه من طلب عنايات، مع أنه يعرفه قبل أن تطلبه، وقال لها:

– ولكني لست متخصصًا في الإمامة أو الخطابة يا ست عنايات.

– يكفي أن تخرج كلمات من قلبك لتغسل بها قلوب الناس، أرجوك يا دكتور! لقد عقدت العزم على التوبة وأريدك أن تساعدني.

– دعيني أفكر وأرتب أموري، وما يريده الله فهو كائن، عن إذنك.

انصرف عبد العليم وودت عنايات أن ترجوه ألا ينصرف؛ فقد ذهب بقلبها الذي أصبح ملكًا له هو فقط.

وقف جوارجي مراقبًا ما يحدث بين عنايات وعبد العليم من على عتبة

باب بيته القديم، ولمحته عنايات واقفًا فأشاحت بوجهها عنه، إن جوارجي شريك لها في ماضيها، وبالتأكيد لن يسمح لها بسهولة أن تفض هذه الشراكة من طرف واحد أبدًا.

***

عدت إلى شقتي بعد الفكاك من عنايات ورأسي تموج بالأفكار، كيف أهرب من طلبها بإمامة الزاوية وأنا أعلم أن طلبها هذا مجرد حجة للتواصل الأكبر معي، لا أحب إغلاق باب التوبة في وجه أحد، ولكني أيضًا بداخلي مخاوف من هذه المرأة صاحبة الشخصية المركبة.

– أراك حائرًا يا عبد العليم.

التفتُّ ناحية الصوت الذي أعرف صاحبه جيدًا وأنتظره منذ فترة، لقد جاء أخيرًا بعد طول انقطاع:

– أولا ترى أنه أمر يجعل الحليم حيرانَ يا فضيلة الشيخ خطاب؟

جلس جدي أمامي علي الكرسى المقابل لبلكونة الصالة، وسرح في الفراغ ممسكًا بمسبحته يعد عليها أذكاره صامتًا لدقائق أنتظر منه ردًّا لا أستعجله منه، لم أتعود على إساءة الأدب معه باستعجال كلامه، رد عليَّ وهو ما زال سارحًا دون أن ينظر إليَّ:

– لا تقم فيه أبدًا.

فهمت من كلامه أنه يقصد الزاوية التي أعادتها عنايات لسيرتها الأولى، فرددت عليه:

– كان هذا شعوري من البداية، ولكن ألا نكون قد أغلقنا باب التوبة في وجهها؟

أخيرًا التفت إليَّ جدي ونظر في عيني مجيبًا:

– كن بابًا يفتحه الناس لا بابًا يكسرونه للعبور على حطامه.

استوقفتني جملة جدي الأخيرة، وصمتُّ للحظات قبل أن أنظر إليه قائلًا:

– أنا أعلم أنها تريد الزواج مني بعد أن فشلت في الوصول إليَّ، أود أن أساعدها على التطهر، ولكن المعادلة صعبة جدًّا.

– ليست هناك معادلة أصلًا يا عبد العليم، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، لو كانت صادقة بينها وبين الله فسينجيها.

– هناك سؤال أريد سؤاله منذ فترة.

– سل يا ولدي.

– لماذا أرسلتني إلى هذه الحارة وأنت تعلم أنها حارة ملعونة؟!

تنهَّد جدي قبل أن يسرح مرة أخرى في السماء ليجيبني بعد لحظات تأمل:

– اللعنة لا تحل إلا على من يطلبها، يطلبها الإنسان ولكن الحجر والجماد والشجر يحذرون منها كما يحذر العاقل من وضع يده في جحر ثعبان.

– أنا لا أرى فائدة من وجودي بينهم.

نظر إليَّ جدي بابتسامة من يستفز ابنه ليُخرِج أقصى طاقته:

– لم أعهدك يائسًا يا عبد العليم.

– ليس يأسًا، ولكني فعلًا لا أرى فيهم أملًا.

– عليك البلاغ وعلى الله الحساب.

– ولكني لست بنبي.

– البلاغ ليس مقتصرًا على الأنبياء فقط، الدين النصيحة، وبلغوا عني ولو آية.

– صدقت يا سيدي يا رسول الله.

– عليه الصلاة والسلام.

– المهم، كيف أخرج من هذا المأزق الذي وضعتني فيه عنايات.

– اترك الحارة لأسبوعين، واذهب إلى شقتي في شارع الأزهر، في هذه الفترة ستكون عنايات أمام اختبار حقيقي بينها وبين نفسها، لو استقامت فقد أراد الله بها خيرًا ولو عادت سيرتها الأولى فقد أشركتك بالله في قلبها، فالله مطلع على قلوب عباده.

– وبعد الأسبوعين؟

– لكل حادث حديث ... لكل حادث حديث.

فعلًا ... لكل حادث حديث.

***

اختفى عبد العليم من الحارة بشكل مفاجئ، فلم يعلم أحد بأنه سيغادر، ولعل أحدًا لم يلحظ هذا الاختفاء من عموم أهل الحارة قدر ما كان مثار اهتمام من عنايات التي قتلها الشك والشوق، شك في أنه قد لا يعود مرة أخرى وشوق لرؤيته جعلها كالهائمة على وجهها تجلس أمام الزاوية كدراويش التكايا تنتظر أن تلمح حتى طيفه آتيًا من بعيد، وعندما يحل الليل تذهب إلى بيتها تقضي سواد الليل وراء شباكها علها تراه عائدًا.

فى خلال الأسبوعين دخلت عنايات في صراع داخلي رهيب وتساؤلات من يصارح نفسه، هل تفعل هذا لحبها لعبد العليم؟ أم أنها نوت التوبة والتطهر بالفعل؟ كانت تصبر نفسها أن ازدواج النية لا يضر ما دامت النتيجة خيرًا.

لكن العجيب أن عنايات حافظت على نفسها وواظبت على صلواتها وانسكبت دمعاتها تحاول أن تغسل ماضيها، كانت تواجه نفسها باحتمالات كثيرة، قد لا يعود عبد العليم ثانية فهل يكون هذا مبررًا لعودتها لما كانت عليه، قد يعود عبد العليم ويرفض الارتباط والزواج بها فهل تنتقم من نفسها بالانغماس فيما تركته؟ هل تركت الرذيلة كرهًا فيها وفي حياتها أم أن حب عبد العليم أضاء لها نهاية نفق مظلم كانت تسير فيه؟

هي لا تعلم إجابة محددة، غير أنها متأكدة من عشقها لهذا الفتى الذي تركت حياتها السابقة كلها من أجله، ولكن هل يشعر بها؟

إنها تنتظر عودته، ولكن هناك من ينتظر عودتها هي أيضًا.

***

مر الأسبوعان، وكانت عودتي حتمية لا مفر منها، عدت أجرجر قدميَّ اللتين تحاولان السير للخلف للهرب من هذا المكان، لم أعد أقوى على هذه المهمة، مر أحد عشر شهرًا على وجودي بين أهلها، أناس غريبو الأطوار، يعيشون على الخرافات ويقسمون بحقيقتها حتى لو لم يروها، يكرهون الحقائق ويقسمون على كذبها حتى لو لمسوها بأيديهم، قتلوا الشيخ مستورًا الذي لم يروا منه إلا خيرًا، حرموا حمدي أبزيمة من ابنته وأمواله وقاموا بحماية طليقته الفاجرة واختلقوا لخيانتها الأعذار، لا أشك لحظة أنهم سيفعلون معي مثلما فعلوا مع الشيخ مستور، بل أكاد أراها بعيني مع أنهم لم يروا مني إلا خيرًا، أحدهم سألني ذات مرة في خبث إن كان بيني

وبين عنايات علاقة أم أن الحظ لم يسعدني بعد، جوارجي الملعون الذي لم أقابله حتى الآن لا يريد تركي في حالي، أهل الحارة يعبدونه ويقدسونه كما يقدسون شيحة الذي طالما ظلمهم ويقدسون عنايات التي قال لي عنها أحدهم أنهم لو استطاعوا عبادة فرجها لعبدوه، أي بشر هؤلاء؟ وأي مهمة أرسلت بها إليهم؟

ليتني سمعت نصيحة حمدي أبزيمة بالرحيل، ولكن كيف أرحل وأنا لا أملك القرار؟

قابلني صديقي الفيلسوف حمدي وكأنه قرأ ما يدور بداخلي:

– على قدر فرحتي برؤيتك مرة أخرى إلا أن سعادتي كانت أكبر برحيلك من هنا يا دكتور.

نظرت إلى حمدي وأجبته في اقتضاب:

– لم يحن وقت الرحيل بعد. فَهِم حمدي كعادته أنني لا أريد الكلام فاحترم رغبتي في الصمت وصحبني إلى الشقة حاملًا عني حقيبتي.

ما إن دخلت الشقة ووضع حمدي متاعي حتى سمعنا صوت شيحة يعوي بشراسة شديدة لم أعهدها على صوته من قبل؛ فالتفتُّ إلى حمدي الذي باغتني بقوله:

– إنه ينادي عليك، يستجير بك، لقد شعر بوجودك.

– منذ متى وزادت عليه هذه الحالة؟

– منذ يوم اختفائك، كل ليلة يشتدُّ عواؤه وكأنه يبكي، لدرجة أن أهل الحارة ربطوه من رقبته كالكلاب حتى لا يهرب ويؤذيهم.

– سأذهب إليه.

حاول حمدي منعي من الذهاب إلى شيحة، ولكن أشحت له بيدي أن لا فائدة من المنع؛ فقرر اصطحابي إلى شيحة. دخلت على شيحة، فلما رأيته على حاله كادت عيناي تفيضان بالدمع شفقة عليه، شيحة الجبار مربوط كالكلاب في حائط غرفته، عندما رآني لمحت في عينيه بكاء استجداء كمن يريد أن يشكو إليّ ما يصنعونه به، ذهبت إليه وفككت رباطه فارتمى تحت قدمي ينتفض، شعرت بحرارة القهر تخرج منه حتى كادت أن تحرق قدمي، جلست بجواره، نظرت في عينيه فوجدت فيهما دموع طفل لا يستطيع الكلام يشكو لأمه بنظراته ظلم إخوته الكبار له بعدما تركته معهم وخرجت. فقد شيحة النطق تمامًا ولم يعد يخرج منه إلا العواء، إنه الشيخ مستور ودعوته التي دعاها عليه، لماذا فعلت هذا بنفسك يا شيحة؟ ألم يمهلك الله فرصًا كثيرة للتوبة والأوبة؟ لماذا ضيعتها وضيعت آخرتك مقابل دنيا زائلة؟ لم أشعر بنفسي إلا وأنا أربت على رأسه وأحتضنها؛ فبكى حتى بللت دموعه ملابسي، أرى في عينيه كلامًا يريد قوله ولكنه لا يستطيع النطق، يسألني عن الخلاص مما هو فيه، عن الشيخ مستور الذي يراه واقفًا خلفي يضحك في شماتة واضحة، عن الباب الذي يفتح على أخدود به نار يقع فيها شيحة ويراه كل ساعة بعدما كان يراه على فترات في منامه، عن حمدي أبزيمة الواقف خلفي والذي ظلمه في زوجته وماله وابنته، هل سيسامحه؟

نظرت لحمدي فوجدته متأثرًا بحال شيحة على عكس ما كنت متوقعًا، وقبل أن أسال حمدي هل يسامح شيحة أم لا فاجأني هو قائلًا:

– أسامحه، والله أسامحه.

ما إن سمع شيحة حمدي يسامحه حتى أحسست في عينيه بفرحة شديدة، وبتساؤل آخر عن الشيخ مستور الواقف خلفي والذي يراه شيحة،

فالتفتُّ إلى الشيخ مستور فوجدته يبكي تأثرًا لحال شيحة الذي قتله مظلومًا، فوجدته يقول لشيحة: – اذهب يا شيحة فإني قد عفوت عنك.

انصرف الشيخ مستور ورأيت في عيني شيحة فرحة طفل بمصالحة أمه له، وزاد تساؤل شيحة لي عن الذين قتلهم وعذبهم في حياته، فقلت له:

– عند الله تجتمع الخصوم، ورحمة الله واسعة.

بكى شيحة بكاءً مريرًا، وخاطبني بعينه قائلًا أنه أجرم في حق الله إجرامًا ما بعده إجرام، فهل يرحمه الله؟

أجبته قائلًا:

– رحمة الله وسعت كل شيء ... كل شيء يا عم شيحة.

هنا هدأ شيحة وكفكف دمعه ونظر إليَّ نظرة عرفان، وطلب مني بعينيه طلبًا أخيرًا:

– أريدك أن تخرجني من هذه الحارة، أريد أن أموت خارجها، اسأل مفيدة عن عنوان مقابرنا وخذني إلى هناك، وعندما أموت غسلني وصلِّ عليَّ وادفني.

لم أجد بدًّا من تنفيذ طلب شيحة، خصوصًا أنني رأيت الموت يحوم حوله، فسألت الست مفيدة زوجته عن عنوان المقبرة فدلتني عليه وأعطتني مفتاحها، وذهب حمدي للخارج وأتى بسيارة أجرة وحمل شيحة أمامي وانطلقنا إلى مثواه الأخير.

***

كان يومًا طويلًا انتهى بدفن شيحة في مقبرة عائلته، والتي دفن فيها أخوه الذي قتله في السجن الحربي بيده ووالده الذي مات من حسرته على ابنه

الأصغر الذي قتله أخوه، فرَّقتْهم الحياة وجمعهم الموت، لعل شيحة يطلب منهما السماح في القبر فيسامحانه، سيرفقان به بالتأكيد؛ فهما يعلمان أن حسابه كبير وقتلاه كثيرون، سيسامحه أبوه على الفور، فمهما فعل فهو ابنه، ولكنَّ أخاه سيرفض في البداية، فيستجديه أبوه أن يسامح أخاه للتخفيف عنه، فيقبل أخوه في النهاية أن يسامحه لعله بعفوه عن أخيه يكون سببًا في نجاته من عذاب غليظ ... لعل أمنياتي تتحقق!

شيحة رفض أن يموت في هذه الحارة، فكيف يتحمل الأحياء العيش فيها؟ سؤال ألح على خاطري كثيرًا، لم يقطعه عن ذهني إلا صوت طرق باب الشقة، تمنيت ألا يكون حمدي قد عاد مرة أخرى، فليس بي جهد للمسامرة أو الحديث، ولكني أعرف أن حمدي حيي ويستحيي أن يراني منهكًا ويأتي إليَّ مرة أخرى، إذن الطارق ليس هو، فلأنظر من الآتي.

فتحت الباب، وفوجئت بعنايات تقف أمامي متشحة بالسواد باكية معزية:

– البقاء لله يا دكتور.

فهمت طبعًا أنها تعزيني في شيحة، ولكني لم أكن في حالي نفسية أو جسدية تسمح لي بالحديث إلا برد مقتضب: – لله الأمر.

أفسحت المجال لعنايات للدخول، وجلست على أول كرسي قابلني من شدة الإنهاك، ودخلت عنايات تمشي على استحياء تاركة باب الشقة مفتوحًا، وقفت صامتة لفترة قبل أن أشير لها بالجلوس دون حتى أن أنظر إليها من شدة الإعياء من المجهود، جلست عنايات وبدأت حديثها بالاعتذار:

– أعتذر عن مجيئي إليك في بيتك.

أشرت لها بيدي أن لا تهتمي، فصمتت للحظات قبل أن تكمل حديثها مرة أخرى:

– أعلم أن الوقت غير مناسب للحديث، وخصوصًا فيما أريد محادثتك فيه، ولكني اشتقت إليك كثيرًا في فترة غيابك.

نظرت إليها بعينين نصف مغلقتين ولم تترك لي فرصة للرد، فأكملت:

– باختصار يا دكتور أنا أريد الزواج منك، أريد أن تحفظني وتصونني.

لم أتعجب من كلام عنايات وطلبها؛ فقد كنت أعلمه جيدًا، واستجمعت قواي حتى أرد عليها:

– عنايات ... ارحلي من هذه الحارة إذا كنتِ تريدين التوبة.

بدا الاستغراب على وجه عنايات:

– أرحل؟ أين أذهب وقد عشت عمري كله هنا؟

– عليكِ أن تختاري بين عمر سابق كنتِ فيه ميتة وعمر قادم تكتب لك فرصة للحياة، شيحة طلب مني أن أخرجه من الحارة حتى لا يموت فيها؛ فالأولى بك أن تتركيها وفيكِ قلب ينبض.

سرحت عنايات ثم تنهدت ونظرت إليَّ نظرة يملؤها الرجاء متسائلة:

– وهل تتزوجني بعدها؟

نظرت إليها في صمت طويل تخلله ترقب ملأ عينيها بالشوق لإجابة تشفي قلبها العليل؛ فأجبتها بدبلوماسية قاتلة:

– لو أراد الله لهذا الزواج أن يتم فلن يستطيع أحد منعه ولا أنا نفسي حتى لو كنت رافضه.

تهلل وجه عنايات، ورأيت في عينيها فرحة كبيرة جدًّا قامت على أثرها منتفضة من على الكرسي قائلة في عزم:

– لن يصبح عليَّ الصباح في حارة نجوى، سأرحل الآن.

انصرفت عنايات وهي تنتوي الرحيل، لكنَّ شيئًا ما وقر في قلبي أن هناك من سيمنعها عن إبصار النور ... بأي ثمن.

***

دخلت عنايات إلى شقتها مسرعة كأنها تسابق الزمن للرحيل من هذه الحارة التي تحول بينها وبين حياتها الجديدة التي تريد تذوق حلاوتها بعد كل هذه السنين التي عاشت تتجرع فيها المر وتقنع نفسها أنها تشرب عسلًا.

ما إن دخلت عنايات من باب الشقة وتوجهت إلى غرفة نومها حتى فاجأها صوت تعرفه جيدًا:

– أنتظر عودتك منذ فترة يا عنايات.

أسقط في يد عنايات عندما التفتت ناحية مصدر الصوت فوجدت جوارجي جالسًا على كرسي قديم في الصالة وكأنه يجلس في بيته، وظهر الغضب واضحًا على وجه عنايات التي انفجرت في جوارجي:

– كيف دخلت إلى هنا؟ وما الذي جاء بك؟

قام جوارجي من على كرسيه وتوجه نحو عنايات التي تستشيط منه غضبًا، ووقف أمامها يرد عليها بكل برود:

– أما بخصوص كيف دخلت إلى هنا فجوارجي لا يسأل مثل هذه الأسئلة التافهة، وأما بخصوص ما الذي جاء بي فهو بالتأكيد أنت.

– أنا؟

– طبعًا، اشتقتُ إليكِ فجئت لأراكِ.

انفعلت عنايات على جوارجي، وذهبت ناحية باب الشقة وأشارت إلى جوارجي بالخروج:

– وأنا لا أريد رؤيتك مرة أخرى، اخرج بهدوء وإلا فتحت الباب وصرخت لأفضحك.

ضحك جوارجي في برود وقال:

– الباب لن يُفتح، والمفضوحة لا تُفضح.

حاولت عنايات فتح الباب، ولكن وجدته بالفعل لا يريد أن يفتح، فنظرت إلى جوارجي في غضب شديد:

– اتركني وشأني، لا شأن لك بي؟

رد عليها جوارجي في هدوء:

– أكلُّ هذا من أجل ذلك الصبي؟

انفعلت عنايات وصرخت في جوارجي:

– لا تذكره بسوء أيها اللعين، هل تفهم؟

– لا لا لا، لا يا عنايات، لا يجب أن تتحدثي مع جوارجي المسكين بهذا العنف.

– (بسخرية) مسكين؟ إنك لعين ولست مسكينًا.

أشار جوارجي لعنايات بالجلوس، وطلب منها أن تهدأ قليلًا:

– يبدو أنكِ متوترة قليلًا، اجلسي يا عنايات واهدئي.

نظرت عنايات إلى جوارجي بشيء من اليأس من الخلاص منه، وجلست على كنبة موجودة بالصالة، وظل جوارجي واقفًا أمامها يحدثها:

– مبدئيًّا نحسبها بالعقل، لماذا تريدين ترك حياة الآلهة لتعيشي مثل البشر؟

نظرت عنايات إلى جوارجي في ذهول:

– آلهة؟

– طبعًا، أولا تشعرين بألوهيتك؟ ألا تشعرين أن كل من حولكِ يعبدونكِ ويتمنون دخول جنتك؟ عنايات إلهة الفتنة والجمال تريد النزول من عليائها لتخالط أهل الأرض؟ أفيقي يا عنايات وعودي لرشدك.

انفعلت عنايات على جوارجي وقامت من مكانها وأشارت إليه بإصبعها في عصبية:

– لقد عدت إلى رشدي بالفعل، وحياتي القديمة سأتركها بلا عودة.

نظر جوارجي في الأرض وشبَّك يديه:

– حتى لو افترضنا أنكِ تركتِ حياتكِ القديمة، فمن يدريكِ أنها هي ستتركك؟

نظرت عنايات إلى جوارجي في استغراب من كلامه:

– ماذا تقصد؟

– حياتك القديمة ليست ملكًا لكِ وحدكِ، لكِ فيها شركاء صنعوها يجب استئذانهم قبل الرحيل؟

– شركاء؟

– طبعًا، أنا واحد منهم، بل أنا أبرزهم.

– أنت؟ بئس الشريك أنت، لقد ضيعتني.

توقف جوارجي عن الحركة ونظر إلى عنايات في مسكنة وهدوء قائلًا:

– كيف يضيع المرء شيئًا ملكه؟

– ملكك؟ أنا ملكك؟

– بالطبع، أنتِ ملكي منذ كنتِ صغيرة، ألا تذكرين عندما أتت بكِ أمكِ إليَّ لكي أصنعكِ؟

– تصنعني؟

– نعم ... أنا من صنعت عنايات التي يعرفها الجميع، والصانع يجب أن يُستأذن قبل أي تغيير يحدث في صنيعته.

– (بانفعال) تحدثني وكأني آلة.

– (ببرود) بالفعل أنتِ آلة، آلة لصناعة البهجة، آلة لصناعة السعادة ... آلة لصناعة المتعة.

انهارت عنايات، وجلست على الكنبة تبكي قائلة:

– صنعت المتعة الزائلة التي قتلتني وجردتني من آدميتي، صرت كالحيوان الجائع الذي كلما تخيل أنه اصطاد فريسته يكتشف أنه هو الذي وقع فريسة لغيره، تلوث فراشي وقبله تلوثت فطرتي، خربت بيوتًا على أصحابها وأغلقت قبورًا على سكانها، لو كنت آلة فأنا آلة لصناعة الدمار والخراب.

نظرت عنايات إلى جوارجي متوسلة له:

– اتركني أرحل فلم تعد لي رغبة في الاستمرار في حياتي كمسخ، أريد التطهر.

نظر إليها جوارجي مصطنعًا التأثر من كلامها، ثم حدثها بخبث:

- ومن منا لا يريد التطهر؟ من منا لا يحب أن تسمو روحه على جسده؟

ظنت عنايات أن جوارجي سيسمح لها بالرحيل فابتسمت، ولكنه أكمل كلامه:

- لو كنت متأكدًا أنه سيتزوج منكِ لكنت أسعد الناس، ولكنه يراوغ ... صدقيني.

صدمت عنايات من كلام جوارجي:

- إنه لا يراوغ، لقد قال لي إن إرادة الله غالبة، ولو أراد الله لنا الزواج فسنتزوج بالتأكيد.

- ولكن الله لن يريد لكما الزواج، انظري.

أشار جوارجي بيده في الفراغ، فظهرت صورة كشاشة السينما يجلس فيها عبد العليم يبدو شكله أكبر سنًّا مع امرأة أخرى يبدو أنها زوجته ومعهما أطفال صغار ينادونه بابا:

- أين أنتِ في مستقبله؟ لو كان مكتوبًا لكما الزواج لرأيتِ نفسك في هذه الصورة زوجة له وأمًّا لأطفاله.

بدت الصدمة الممزوجة بالذهول على وجه عنايات وهي ترى ما يعرضه لها جوارجي، وبدا على جوارجي الشعور بأنه اقترب من غايته بخداعها وإقناعها، وفي تلك اللحظة أشار جوارجي بيده إلى شخص يرتدي ملابس المأذون يظهر فجأة كأنه داخل من باب الشقة:

- عمومًا لو كنت غير مصدقة لما يحدث فها هو مأذون أحضرته معي، فلنذهب إليه في بيته الآن ونطلب منه أن يتزوجكِ ونرى هل يقبل أم يرفض.

نظرت عنايات إلى المأذون وظلت شاردة للحظات قبل أن تظهر لها أمُّها

في الصالة وتتحدث إليها:

– اسمعي كلام جوارجي يا عنايات، فهو الوحيد الذي يبغي مصلحتك يا بنتي.

نظرت عنايات إلى أمها في ذهول:

– أمي؟

– نعم أمك.

احتضنتها أمها ومسحت على رأسها واستمرت في نصحها:

– لقد استأمنت جوارجي عليكِ منذ صغرك وأوصيته عليكِ قبل موتي، اسمعي كلامه ولا تمشي وراء قلبك.

بدا السكون على عنايات التي بدا وأن هناك تصارعًا من الأفكار يدور بداخل رأسها، ولكنها في النةايه استسلمت ولمح جوارجي هذا في عينيها، وأشار لأمها أن تنهض بها وتذهب بها إلى غرفة نومها فتلك هي اللحظة المناسبة لكي يجهز الضبع على فريسته.

قامت أم عنايات وأخذت بيد ابنتها التي بدت مستسلمة جدًّا كالورقة التي تعبث بها الريح، واتجهت بها إلى غرفة نومها التي فتحها جوارجي بنفسه وأشار بداخلها لعنايات:

– انظري يا عنايات، انظري هدية جوارجي لكِ.

نظرت عنايات داخل غرفة النوم فرأت ثلاث شباب عرايا أجسادهم منحوتة مثل التماثيل الإغريقية، نظرت إليهم بإرادة مسلوبة لا تملك من أمرها شيئًا، أشار إليها جوارجي بالدخول إلى غرفة النوم فنظرت عنايات لأمها التي شجعتها على الدخول:

– ادخلي يا عنايات، اغترفي من نهر المتعة كما يحلو لك، الحياة أقصر من أن نفرط في متعتها.

دخلت عنايات كالمسحورة إلى غرفة النوم التي أغلقها عليها جوارجي، دخلت كالفريسة في قفص الذئاب الجائعة التي تلقفتها تنهش فيها دون شفقة أو رحمة.

***

بعد خروج عنايات من عندي ليلتها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أستيقظ صباحًا علي سريرى، كان يومًا مرهقًا جدًّا لم أمر بمثله في حياتي من قبل، وكان لا مفر من الاستعداد ليوم آخر من الحياة.

فتحت باب الشقة للخروج وليتني ما فتحته؛ فقد استقبلتني العين العوراء ومن خلفها صاحبها جوارجي وجهًا لوجه لأول مرة منذ ما يقرب من عام هو عمر سكني في هذه الحارة.

للحظات تجمدت أمام باب الشقة من الداخل من المفاجأة التي لم تكن متوقعة بأي حال من الأحوال، شهور وهو يحاربني من خلف ستار لا يكشف نفسه لي ولا أراه ولا يراني مع أن كلًّا منا رأى الآخر.

عندما يختار خصم أن يدير معركته مع خصمه في الخفاء ثم يقرر الظهور في العلن قبل انتهائها فلذلك احتمالات، منها أن يكون شعر باقتراب الهزيمة فيكشف أوراقه ويتبع تكتيكًا جديدًا، أو أن يكون موقنًا بالنصر وظهوره ليس إلا لإعلان النصر وإلحاق الهزيمة النفسية بخصمه.

في كل الأحوال لم أهتم إلا بهذا الأعور الدجال الواقف أمامي بشحمه ولحمه ورائحته وابتسامته التي تشبه الموت.

– ألن تدعوني للدخول يا دكتور؟

– في العادة يطلب الضيف من مضيفه تحديد موعد لزيارته.

– إمممم، فلتعذر ضيفك بجهله إذن.

رأيت أنه لا فائدة من تأجيل المواجهة أمام إصراره عليها، فلتكن إرادة الله:

– تفضل، ولكن أرجو أن تراعي أنني في طريقي للعمل ولا أحب التأخر عليه.

دخل جوارجي وهو يطمئنني:

– لا تقلق، لا حاجة لي بأكثر من دقائق من وقتك.

دخل جوارجي وتفحص الشقة بعينه قبل أن يجلس على الكرسي المجاور للبلكونة وأنا ما زلت واقفًا، فأشار لي بالجلوس وكأنه يدعوني في بيته:

– اجلس يا دكتور، أنت في بيتك.

جلست في حالة لا تخفى على أحد من مزيج من التوتر والقلق والقرف والرهبة، وأعلم أن شخصًا مثل جوارجي يمكنه أن يرى ذلك بداخلي بكل سهولة؛ لذلك لم أحاول تصنع حالة غير التي كنت عليها وإن حاولت التماسك طبعًا، ساد صمت قصير بيننا قطعه جوارجي بادئًا الحديث:

– لا أخفي عليك سرًّا أني كنت أتوق لهذه المقابلة من فترة.

صمتُّ قليلًا قبل أن أشعر بعودة الثقة إلى نفسي رويدًا، ثم رددت عليه:

– ولا أخفيك سرًّا أنني لم أتق إليها مطلقًا، فقد كان خيرك سابقًا.

صمت جوارجي قليلًا وهرش في ذقنه قبل أن ينظر للسقف، ثم قال:

– إممممم، حسنًا، لقد قصرت علينا الطريق، فلنلعب بأوراق مكشوفة.

- لم تكن عندي أوراق لأخفيها، أنت من تلعب من وراء ستار.

صمت جوارجي مرة أخرى وحافظ على برود أعصابه، ثم أردف:

- حسنًا ... لماذا جئت إلى هنا؟ ولماذا تقصدني؟

استغربت من سؤال جوارجي الذي لا أملك أنا شخصيًّا عليه أية إجابة؛ فأنا لا أعلم لماذا أرسلني جدي إلى هنا، وليس عندي فكرة عما يقصده بشطر سؤاله الثاني:

- أقصدك؟ وهل كنت أعرفك من قبل لكي أقصدك؟

- إذن لماذا جئت إلى هنا إن كنت لا تقصدني؟

- جئت على قدر.

- لستَ موسى.

- ولستَ فرعون لكي أقصدك.

صمت جوارجي هنيهة ثم قال:

- إذن فلترحل.

رددت عليه بهدوء أقرب للبرود:

- ومن يملك القرار؟

- أنا.

- ومن أنت.

- أنا إله هذه الحارة.

- أستغفر الله العظيم، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

– أولم تفسدا بالفعل؟

– أمثالك من أفسدوها.

– أمثالي من ملكوها.

– ملك زائل.

– في النهاية هو ملك، وأنا لست مجرد ملك، ولكني إله.

– هاهاها .... من صنع ألوهيتك؟

– الآلهة لا تُصنع من فراغ، الناس هم من يصنعون الآلهة ليعبدوها.

– إذن في النهاية فأنت مصنوع.

– لو لم يؤمنوا بقدراتي ما آمنوا بألوهيتي.

– مغفلون.

– بل حمقى.

– تعترف بحماقة من يعبدونك؟

– بالطبع حمقى، فالحمقى هم من يسلمون مصائرهم لمن يستعبدهم.

– إذن أنت تعترف أنك استغلالي.

– بل قل ذكي، فالغبي هو من يترك فرصة كهذه تضيع من يديه.

– ولكنك تسببت في إيذاء الكثيرين.

– إنها أقدارهم وأنا أنفذها.

– تعترف أنها أقدارهم المرسومة لهم؛ أي إنك لم ترسمها لهم بنفسك؛ أي إنك لست إلهًا، الإله يتحكم في أقدار معبوديه.

بهت جوارجي للحظات ولم يستطع الرد على هذه الجزئية، بعد لحظات قام من على الكرسي وأعطاني ظهره ناظرًا في السماء عبر البلكونة المفتوحة، ثم تحدث دون النظر ناحيتي:

– على العموم، لقد اقتربت من منطقة محرمة عليك.

– أي منطقة؟

– عنايات.

– هي من اقتربت.

– عادت وابتعدت.

– ما دامت عادت إليك فلم الغضب؟

استدار ناحيتي ولاحظت فيه توترًا لا يليق بشخص في إمكانياته إلا إذا كان يشعر فعلًا أنه مهزوم، ثم اقترب مني ووضع يده اليمنى على مسند الكرسي الذي أجلس عليه، وتحدث وكانت أنفاسه تدخل جوفي:

– اسمع يا بني، وجودك في هذه الحارة ليس مرغوبًا فيه، اخرج قبل ألا تخرج.

دفعت جوارجي حتى لا أختنق من رائحته ومن أنفاسه التي وصلت لمعدتي، ثم قمت وتحركت ناحية البلكونة أستجدي الهواء وأستنشقه، فجاء ووقف خلفي ليكمل كلامه:

– عنايات عادت سيرتها الأولى، فأنا من صنعَها ولم أكن لأسمح لها أن تختار مصيرًا مغايرًا لما رسمته لها، أنا أملك هذه الحارة وكل من فيها عبيدي، لا حيلة لهم في شيء إلا ما آمرهم به، ولو أمرتهم أن يقتلوك لفعلوا دونما تفكير.

استدرت إليه ونظرت إليه بغلٍّ:

– مثلما فعلت مع الشيخ مستور؟

ضحك جوارجي ثم أجابني في برود:

– مثلما فعلت مع الشيخ مستوووور.

– ولكني أحتفظ بعلاقات طيبة مع أهل الحارة.

– لقد كانوا يعشقون الشيخ مستورًا، ولكنهم في النهاية كانوا مع من غلب، وأنا غلبت وسأغلب.

في الحقيقة لم أعلم سر بغض جوارجي لي لهذه الدرجة، ولكن إصراره الشديد والعجيب على رحيلي جعلني أدرك أن هناك ما يخفيه جوارجي بداخله يعتبر وجودي في هذه الحارة خطرًا عليه، استشعر هذا الخطر عندما أحسَّ بفقدان عنايات وميلها للخروج من مملكته المزعومة بسببي؛ لذلك حارب حتى لا تفلت الأمور منه أكثر من ذلك؛ فاستعاد حصن عنايات الذي أوشك أن يفقده، إن عنايات بالنسبة لجوارجي ليس مجرد سبية أو شيئًا يعتبره ملكه، ولكنها أداة قوية في يده يستخدمها لتثبيت أركان ملكه وسيطرته على أهل الحارة، السحر وحده دون غواية النساء لا يستطيع به الحفاظ على ما يملك، فسلاح النساء البغايا مهم جدًّا قد يكون أهم من السحر ذاته، فالأدوات قد تفوق في أهميتها العمل نفسه.

– عمومًا يا دكتور لقد أنذرتك قبل أن تفاجأ بالطوفان.

قالها جوارجي ورحل أخيرًا، رحل لكي يستعد لجولته الأخيرة التي حتمًا ستكون أشرس جولاته.

***

انتصر جوارجي في جولته السابقة واستعاد عنايات واستعاد أهل الحارة، فليس لظالم أن يستقر دونما أدوات أو مظلومين يوقع بهم ظلمه أو يظلمون هم أنفسهم بتقبلهم لأن يسوقهم.

ساقهم جوارجي لرفض عنايات الجديدة ورفض من أوهمهم أنه السبب في إفسادها عليهم ... أنا.

لا ألمح نظرات الغل في عيون أهل الحارة نحوي، بل أشعر بوخزها كالإبر تخترق جسمي، أصبحت كالنبتة التي غرست في أرض غير أرضها فنبذتها تربة هذه الأرض ولم تقبل لجذورها أن تمتد فيها.

انقطع عنى جدي منذ فترة، لا أستطيع الهرب فلم تأتِ الأوامر بعد، أدرك أن أهل الحارة يتربصون بي وينتظرون الأمر بلحظة الخلاص، هدموا الزاوية التي عمرتها عنايات ولم يستفيدوا حتى بإعادتها لمقهى كما كانت عليه قبلًا، بل تخلصوا منها نهائيًّا وكأنهم يتخلصون مما يذكرهم بشيء أليم.

لم يعد خافيًا أن الخطوة الثانية هي التخلص ممن أفسد عليهم عنايات وجعلها تطلب التوبة، كانوا يسبون عنايات ويصفونها بالنجسة، فلما حاولت التطهر من نجاستها كانوا قد اعتادوا عليها فلم يستسيغوا أن يروها على حال مختلف، إحساس مخيف أن يتعود المرء على القبح حتى يتحول لجزء منه فينفر من الطهر الذي يعتبره غريبًا عنه.

حمدي ينصحني كثيرًا بالهرب، إنه يرى الغدرة قادمة، أنا أراها أيضًا، ولكنه لن يفهم أنني لا أستطيع الفرار.

هل نجحت في مهمتي؟ ... لا أعلم.

هل انتهت؟ ... لا أعلم.

هل بدأت أصلًا؟ ... لا أعلم.

الحيرة تقتلني، جوارجي صامت، عنايات صاخبة كما كانت، ضحاياها تكدسوا على بابها، عادت سيرتها الأولى، أرى آثار نظراتها على شيش بلكونة شقتي، هل هي نظرات عتاب؟ هل هي نظرات غل؟ أنا لم أطلب منها ترك حياتها، لم أعدها بشيء، كل ما حدث أنني رفضت أن أكون جزءًا من حياتها الصاخبة، فقررت تغيير مسارها.

أعلم أن جوارجي خدعها، هل عنايات ضحية أم أنها جانية؟

هل أتعاطف معها أم أصب عليها اللعنات؟

كل ما أعلمه أنها بشر ... إنها مجرد بشر.

***

11 أكتوبر 1992م

مضى يومان على حرق أهل الحارة للمنزل الذي تقع به شقة عبد العليم، أحرقوها بعد أن أغلقوها عليه من الخارج حتى لا يكون هناك أية فرصة لنجاته، كرروا فعلتهم مع الشيخ مستور النوري، قالها له حمدي أبزيمة ولم يصدقه: هذه الحارة لا تستحق أن يأتيها نبي.

لم تذهب عن عنايات صدمتها بعد اكتشافها أن الذي انتهت لتوها من مضاجعته هو ابنها الذي أنجبته وحرمها منه والده، خرج من الحمام ورآها ممسكة ببطاقته؛ فظن أنها كانت تحاول سرقة محفظته فانتشل منها المحفظة والبطاقة، ولكنه وجد كل محتويات محفظته كما هي، نظر إليها نظرة احتقار واشمئزاز، وأخرج ورقة بعشرة جنيهات من محفظته ورماها في وجهها في غضب:

- اطلبي ما تحتاجينه بدلًا من سرقته يا ساقطة.

أكمل ارتداء ملابسه وخرج من بيتها على عجل تاركًا إياها في حالة مزرية، مصدومة وصامتة تكاد تنهار، لا تصدق ما حدث، كل ما دار في ذهنها أنه جوارجي هو من فعل فيها هذا، أظهر تردده في الإتيان لها بهذا الشاب بعد أن عادت لسابق عهدها في اصطياد الشباب الفتية بعزائمها القديمة، ولكن هذا الشاب تأخر في الهرولة إليها، إنها الآن تربط الخيوط ببعضها، جوارجي هو من رتب لأن يقع ابنها في طريقها، إنه يعاقبها على محاولة التوبة والخروج من تحت سيطرته، ضيعها جوارجي، بل ضيعت نفسها بعدم الصبر، ضيعت نفسها بالمساهمة في التحريض على قتل أكثر إنسان نقي قابلته في الوجود ... هذا هو ذنب عبد العليم.

زنت المرأة بابنها.

عمي عقلها عن التفكير في أي شيء إلا أمر واحد ... جوارجي يجب أن يموت.

12 أكتوبر 1992م (العاشرة صباحًا)

لم تنم عنايات ليلتها، ظلت تبكي بكاءً مريرًا على ما وصلت إليه، كان بينها وبين طريق التوبة أن تترك هذه الحارة الملعونة، لم تصمد أمام خداع جوارجي فكانت النتيجة ما حدث، قتلت الحبيب وزنت بالأشد حبًّا.

دخلت إلى مطبخها وأخرجت سكينًا كبيرًا استطاعت إخفاءه في ملابسها.. لقد حانت قيامة جوارجي.

12 أكتوبر 1992م (الحادية عشرة صباحًا)

جوارجي ملقى على الأرض محاطًا بزجاجات الخمر الفارغة، ثلاثة أيام مضت يحتفل فيها بخلاصه من الغلام، شرب من الخمر ما لم يشربه في حياته أبدًا، مع أن الآلهة لا تشرب الخمر.

كلما تذكر النبوءة التي سمعها من أحد خدامه قديمًا ضحك وسخر منها، فها هو الذي أخبروه أن زوال ملكه على يده قد تخلص منه للأبد، ولكنه نسي الجزء الأهم في النبوءة عندما قيل له: إن ظهوره سيكون مقدمة لموته الذي لن يكون على يديه، إذن سيموت ولكن لن يقتله عبد العليم.

12 أكتوبر 1992م (الثانية عشرة ظهرًا)

يفتح جوارجي المترنح باب بيته فيرى عنايات واقفة صامتة شاردة، تركها ودخل لأنه لا يقوى على الوقوف من أثر الخمر في رأسه، فاستلقى على أقرب مقعد أمامه يمسك رأسه الثقيل، فوجئ بعنايات تقف أمامه يشتعل الغضب في عينيها، غضبٌ لم يره في عنايات من قبل.

– هل كنتَ تعلم أنه ابني؟

السؤال المباغت لعنايات جعل جوارجي يستفيق قليلًا عندما فهم أنها تقصد الشاب الذي قضى معها ليلتها بالأمس، لم يرد جوارجي ونظر صامتًا إلى عنايات، فأردفت قائلة:

– إذن فقد كنتَ تعلم.

لحظات صمت قطعها جواب جوارجي الصادم:

– نعم، كنت أعلم وأنا من وضعته في طريقك، وأنا من جعلتك تلهثين وراءه، وأنا من أتيت به إلى فراشك.

صرخت عنايات صرخة هيستيرية في جوارجي:

– ملعووووون.

ضحك جوارجي في سخرية:

– هذا جزاء من يحاول الخروج عن طاعتي.

قام جوارجي من على مقعده مترنحًا وأمسك بزجاجة خمر مفتوحة وجدها وسكبها في جوفه وأعطى عنايات ظهره، وظل يتحدث إليها بغرور وثقة:

– لا يجوز الخروج من ملكوتي دون إذني، لقد ملكت داءك وكان يجب أن تكون عقوبتكِ من نفس هذا الداء، فأنتِ ...

– جوارجي.

استدار جوارجي فجأة على صوت عنايات التي باغتته بوضع نصل سكينها في عينه البيضاء التي انفجر منها دم أسود اللون؛ مما جعلها تنزع السكين فزعًا من منظر الدم الغريب، وصرخ جوارجي صرخة ألم كبيرة جدًّا وأمسك بعينه التي تسيل منها الدماء، وظل يتخبط في أرجاء الغرفة محاولًا الإمساك بعنايات:

– يا فاجرة ... تضربينني أنا يا بنت الكلاب ... سأقتللكِ.

أفلتت عنايات من محاولة جوارجي الإمساك بها، وفاجأته بضربة سكين أخرى في رقبته ضربتها له بغل وحقد شديدين، ساعتها أصدر جوارجي صوت خوار كأنه ثور يذبح، وأمسك يد عنايات التي تمسك السكين الراشق في رقبته حتى جثا على ركبتيه أمامها من شدة الألم والدماء النازفة التي أفقدته توازنه، فسحبت عنايات السكين من رقبته ووضعت سبابتها اليسرى في فتحة عين جوارجي، واستدارت خلف جوارجي ثم قامت بسحب السكين على رقبة جوارجي حتى فصلتها عن جسده. أصيبت عنايات بحالة هيستيرية جعلتها تبرك على جثة جوارجي الممددة على الأرض بدون رأس وترشق السكين في صدره مرات ومرات، ثم قامت بعد ذلك بتقطيع جثته إلى قطع صغيرة وكأن كل قطعة تقطعها من جسده تمثل يومًا من عمرها الذي قضته تحت سيطرته. استغرق هذا الأمر قرابة الثلاث ساعات، ولم تشعر عنايات بنفسها إلا وهي تحمل رأس جوارجي وتخرج بها إلى الحارة ملابسها مليئة

بدمائه، ولو أراد المرء أن يعصر ملابسها لملأ الدم أحواضًا. خرجت عنايات أمام أهل الحارة بهذا المنظر المهيب المخيف؛ مما أثار فزع أهل الحارة الذين وقفوا جميعًا مذهولين غير مصدقين لما يحدث، ظلت عنايات صامتة تحملق في وجوه أهل الحارة، فرأت في كل الوجوه الموجودة أمامها وجه جوارجي، وتمنت أن تقتلهم جميعًا، رفعت عنايات رأس جوارجي في الهواء، ثم صرخت صرخة عنيفة: – قتلته ... قتلته.

فجأة توجهت عنايات بنظرها إلى آخر الحارة، فرأت طيف عبد العليم كأنه ينظر إليها؛ فابتسمت وأشارت إليه برأس جوارجي وكأنها تسترضيه ليغفر لها:

– قتلته ... قتلت جوارجي.

ألقت عنايات برأس جوارجي على الأرض، ثم جرت فاتحة ذراعيها نحو طيف عبد العليم وسط رعب أصاب أهل الحارة مما صنعته، فجأة توقفت عنايات عن الحركة وحدث شيء أصاب جميع الحضور بالذهول ... لقد مسخت عنايات تمثالًا طينيًّا.

***

لم تطل دهشة أهل الحارة من تحول عنايات أمام أعينهم لتمثال طيني، فما هي إلا دقائق معدودة حتى اهتزت الأرض اهتزازًا عنيفًا، هاج الناس وماجوا وظلوا يفزعون في كل اتجاه طلبًا للنجاة من هذه الهزة المفاجئة، ولكن تساقطت الجدر وتهدمت البيوت ولم يستطع أحد من أهل الحارة الهروب. في خلال لحظات تحولت الحارة إلى ركام دفن تحته كل من كان حيًّا فوقه ... واختفى تمثال عنايات.

***

بعد عودتي من العمل في هذا اليوم لاحظتُ أن الحركة في الحارة مريبة وغير عادية، النظرات المتوجهة إليَّ أرى فيها رائحة الموت تفوح منها، عيون الناس تحولت إلى كرات من نار ترمي بشرر، أدركت أن النهاية قد اقتربت لا مفر.

صعدت إلى الشقة وأغلقت الباب ورائي مسترجعًا ومحوقلًا ملقنًا نفسي الشهادة، وليقضِ الله أمرًا كان مفعولًا.

يبدو أن هذا هو السبب الذي جعل جدي يرسلني إلى هنا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، لقد انقطع عني جدي قرابة الشهر، يبدو أن مهمته قد انتهت.

قبيل المغرب فوجئت بطرق على باب الشقة جعل قلبي ينخلع؛ ففي هذه اللحظة يصاب المرء بالهلع من أي حركة لورقة صغيرة قد تمر بجواره، فما باله بطرق عنيف على بابه؟

توكلت على الله، وفتحت دون أن أسأل عن الطارق، فوجدته حمدي أبزيمة يتصبب عرقًا ويسيل الخوف منه أنهارًا:

– قلت لك لن يتركوك ... إنهم قادمون.

كان الصمت والتجمد هو رد فعلي الوحيد فور سماعي الجملة الأخيرة: إنهم قادمون.

– هيا لنهرب من سطح المنزل بسرعة.

انتبهنا لباب الشقة يغلق علينا من الخارج، وسمعنا صوت أقفال يغلقها أشخاص علينا، لحظات حتى وجدنا النار تتسرب إلينا من تحت باب الشقة، أصيب حمدي بالهلع وظل يتجول ببصره في الشقة لعله يجد مخرجًا ولكن كل المخارج أغلقت بكرات من اللهب انطلقت من الحارة على منافذ

الشقة، النار تحيطنا من كل مكان، حمدي يصاب باليأس ويصرخ بهستيريا:

– لا فائدة ... إنا لمدركون ... إنا لمحروقون.

في هذه اللحظة بينما أنا شارد، ظهر جدي أخيرًا، وبينما حمدي يردد: إنا لمدركون، أجاب جدي:

– كلا، إن معي ربي سيهدين.

فهمت ما الذي يريده جدي، فبدأت أردد: كلا إن معي ربي سيهدين، بصوت بطيء، ثم علا صوتي تدريجيًّا بعد أن اكتمل إدراكي للموقف، ثم نظرت إلى حمدي وأشرت إليه أن يردد خلفي:

– كلا إن معي ربي سيهدين.

بدأ حمدي في ترديد الآية، وظللنا نرددها كثيرًا وأنا أنظر إلى جدي مستفسرًا عن المخرج، فجأة أشار جدي إلى الجدار الذي به باب الشقة المشتعل، فرأيت طاقة قد فتحت على مكان أعرفه جيدًا، إنها شقة جدي في شارع الأزهر، قبل أن أفكر في عمل أي شيء فوجئت بجدي يخاطبني:

– لقد انتهت مهمتك، جئت لهم بالنصيحة ولم يقبلوها فأقمت عليهم الحجة.

نظرت لجدي وفهمت أخيرًا ماهية المهمة التي جئت من أجلها، وهززت رأسي بينما يشير إليَّ جدي بالانطلاق من خلال الطاقة المفتوحة في الحائط أمامي، أمسكت يد حمدي وقلت له:

– هيا.

نظر حمدي إليَّ في ذهول صارخًا:

– هيا؟ هل جننت يا دكتور؟ هل تريدنا أن نقفز في النار؟

لم يكن هناك أي وقت لمحاولة إفهامه؛ فأمسكت يده بعنف واستجمعت قوتي وسحبته سحبة شديدة وسط صراخه قافزين إلى الطاقة المفتوحة التي يظنها حمدي نارًا.

– آآآآآآآآه هـ هـ هـ هـ.

كان الذهول والصدمة هما حال حمدي الذي لم يصدق نفسه عندما وجدنا نحن الاثنين على أرضية صالة شقة جدي في شارع الأزهر، فكان رد الفعل الطبيعي لحمدي هو إصابته بالإغماء.

***

مرت شهور على الحادثة وعلى الزلزال المدمر المفاجئ الذي ضرب مصر كلها وألحق الدمار بها وأتى على حارة نجوى تمامًا، فلم يبق منها أي شيء من بشر أو حجر، وأصبحت الحارة أنقاضًا يئست الحكومة أن تستخرج من تحتها أي أحياء، أسابيع قليلة وتحول مكان الحارة إلى أرض خلاء كبيرة كأن لم تحيَ بالأمس، حتى إنك لو صحبت غريبًا عن المكان وحاولت إقناعه أن هذه الفراغ كانت تدب فيه الحياة ولو لساعة من نهار فلن يصدقك.

تخطى حمدي أبزيمة مرحلة الصدمة من طريقة الإنقاذ، ولم يحاول أن يفهم ما الذي حدث وكيف حدث؛ فقد كان يعتبرني مبروكًا ومن أولياء الله والله لن يضيع أولياءه، عدت أنتظر حمدي في موعد زيارته اليومي لي بعد عودتي من العمل واستيقاظي من النوم ولكنه لم يعد يزورني بمفرده؛ فقد أصبح يزورني بصحبة ابنته فاطمة.

عندما رأيت فنجان حمدي دون علمه ذات مرة في شقة حارة نجوى رأيته يمسك ابنته فاطمة في يده ويشتري لها ألعابًا كثيرة، ووقتها لم أصارحه بما

رأيته حتى يتحقق وتكون المفاجأة من الله أفضل.

في يوم الزلزال جاءت طليقته لتزور أقاربها في محيط الحارة، وقبل دقائق من حدوث الزلزال سمعت الهرج الحادث بعد أن قامت عنايات بقتل جوارجي، فهرعت إلى الحارة لترى ماذا يحدث؛ فأصابها ما أصاب القوم وماتت.

كان حمدي قد استعاد عافيته، وأصررت أن يبقى معي في الشقة حتى أطمئن على حالته بعد ما حدث ليلة حريق المنزل الذي كان قبل الزلزال بثلاثة أيام، وبعد حدوث الزلزال أصر حمدي أن يذهب ليطمئنَّ على عم كرامش وعلى دكانه المستأجر بجواره، وعندما ذهب ورأى هذا الدمار نسي ما كان ذاهبًا من أجله، وظل صامتًا مذهولًا مما يراه حتى فوجئ بطفلة تبكي في الشارع من الخوف بعد أن هجر الناس منازلهم إلى الشوارع هربًا من الزلزال، وعندما ذهب إلى الطفلة الوحيدة لكي يهدئها فوجئ أنها تشبه فاطمة ابنته التي ما زال يحتفظ بشكلها في ذاكرته، وتأكد من أنها ابنته عندما رأى قريبة طليقته تبحث عنها في الشارع وهي تبكي، وعندما رأت حمدي انهارت في البكاء وأشارت إلى ابنته قائلة:

– إنها فاطمة ابنتك يا حمدي، لم يعد لها غيرك الآن، أمها ماتت في الحارة يا حمدي، حقك عاد، وانتقم الله لك.

لم يصدق حمدي نفسه وهو يرى ابنته بين يديه مرة أخرى حتى كاد أن يجن من الفرحة، وظل يحتضنها ويقبلها حتى كان المنظر مهيبًا؛ ففي وسط الحطام والركام نرى أبًا مكلومًا يرى ابنته التي حرم منها لسنوات، فقديمًا قالوا: من رحم المحنة تولد المنحة.

انتهت حارة نجوى ولم تنته الأساطير المضروبة حول الحارة وحول حقيقة شخصية نجوى التي تسمت الحارة باسمها، وزادت عليها أسطورة

عنايات التي تحولت لتمثال طيني اختفى قبل الزلزال بعد أن تواترت الحكاية على ألسنة بعض الناس الذين يسكنون خارج الحارة ورأوا ما يحدث من البلكونات؛ فالحارة لم ينج منها أحد ليحكي هذه القصة.

هل ستعود عنايات مرة أخرى في شكل امرأة أخرى كما عادت نجوى التي فتن بها السلطان قايتباي في جسد عنايات في زمن مختلف؟ وهل سيكون هناك جوارجي آخر؟ في الحقيقة لا يهمني كل هذه الأسئلة، ولكن ما يشغل بالي حقًّا: هل سيكون هناك عبد العليم آخر؟ ... أتمنى ألا يكون أنا مرة أخرى؟

***

القاهرة 1798م

الفرنسيس يتقدمون نحو القاهرة بعدما دكوا المقاومة في الإسكندرية، القلوب في الحناجر والاستعدادات على قدم وساق، المقاومون يستعدون والخونة أيضًا يستعدون، الفيلق القبطي ينشط في جمع بيانات المقاومين ليسلموهم للفرنسيس فور دخول القاهرة الذي أصبح وشيكًا بعد دورهم القذر في مدينة الإسكندر المقدوني، يعقوب الخائن قائد الفيلق ومؤسسه يحلم بيوم يجلس فيه على عرش مصر نائبًا عن الفرنسيس، فعل ما يستحيي الحيوان عن فعله، الحيوانات لا تخون القطيع.

يكاد يدفع الزمن دفعًا ليحقق حلمه القديم، يدخل عليه مساعده الأقرب مرقص الصعيدي، يبتسم إليه في تزلف لزج، يلقي عليه التحية:

– مساء الخير معلمنا العظيم.

يرمقه يعقوب بنظرة يفهم معناها، فيعدل من وصفه ليعقوب:

– بل أقصد مساء الخير يا سلطان مصر.

هنا تهللت أسارير يعقوب، وانفكت رموز وجهه المعقدة والمعقودة وتبسم لتابعه اللزج الذي ذكره بموعوده له:

– لعل سلطان البلاد مشغول ذهنه بالإقطاعية التي وعدني بها، أتمنى على مولاي أن يقطعني بني سويف أحكمها وأهلها الذين أهانوني قديمًا وطردوني منها.

يهز يعقوب رأسه في فخر وخيلاء ويطمئن مرقص:

– لا تقلق، أسيادنا الفرنسيس لن يرفضوا لي طلبًا بعد ما قدمته لهم من خدمات.

يتنهد مرقص في ارتياح عميق ممنيًا نفسه بحكم بني سويف، يتلفت حوله في غرفة سلطانه، يسأله:

– هل جهزتَ الهدايا للقائد نابليون؟

يشير يعقوب بعظمة السلاطين إلى ركن الغرفة الممتلئ بالهدايا الثمينة، يتفحصها مرقص ويكاد أن يتشممها كالجرذ المحروم، يلفت نظره هذا التمثال الطيني، يسحره شكله، يقترب منه، يحملق فيه فاغرًا فاه، يسأل سيده في بلاهة ممزوجة بالدهشة:

– ما هذا التمثال العجيب الذي يبكي يا سيدي؟

يبتسم يعقوب في سخرية ويضع قطعة الأفيون تحت لسانه وينسجم من مضغها ثم يجيبه في تثاقل:

– تمثال عجيب وجده أحد الأتباع فجاء به، فقررت أن أهدي به سيدنا بعد وصوله واستقراره في قصر القلعة.

في اندهاشته لم يفق، يحدثه مرقص:

– ولكنه يبكي وتنزل دموعه في مكان مجهول.

– دعه يبكي، المهم أن يدهش سيدنا ... وسيدهشه.

في بلاهة:

– وهل يبكي الحجر؟

هنا يدوي صوت رنان في الغرفة لا يعرفون له مصدرًا:

لا تحسبن الدمع لابن آدم وحده   حكرًا على كل فرِحٍ ومنفطرِ
إن كان لا يبكي إلا كل مكلَفٍ   ما فجّر الله الماء من الحجرِ

ينخلع قلب الخائنين فزعًا، ينظران لبعضهما ويزيغ بصرهما، يدور في الغرفة يبحث عن مصدر الصوت، يضيء مكان التمثال حتى يكاد نوره يذهب ببصريهما، تهدأ الأنوار الساطعة فيختفي التمثال من مكانه، اختفى بعد أن حلَّت بهما اللعنة.

تمت بحمد الله.

شكر واجب لكل من:

–الأديب والروائي المبدع ماجد شيحة على نصائحه وتوجيهاته الثمينة التى استفدت منها كثيرا.

–للأخوين أحمد وعمرو الشافعى أول من قرأ الرواية بعد صدور طبعتها الأولى وقاما بإهدائى تعليقاتهم الجميلة القيّمة.

–لكل من كلف نفسه عناء البحث عن الرواية وشرائها... أشكركم من أعماق قلبى.